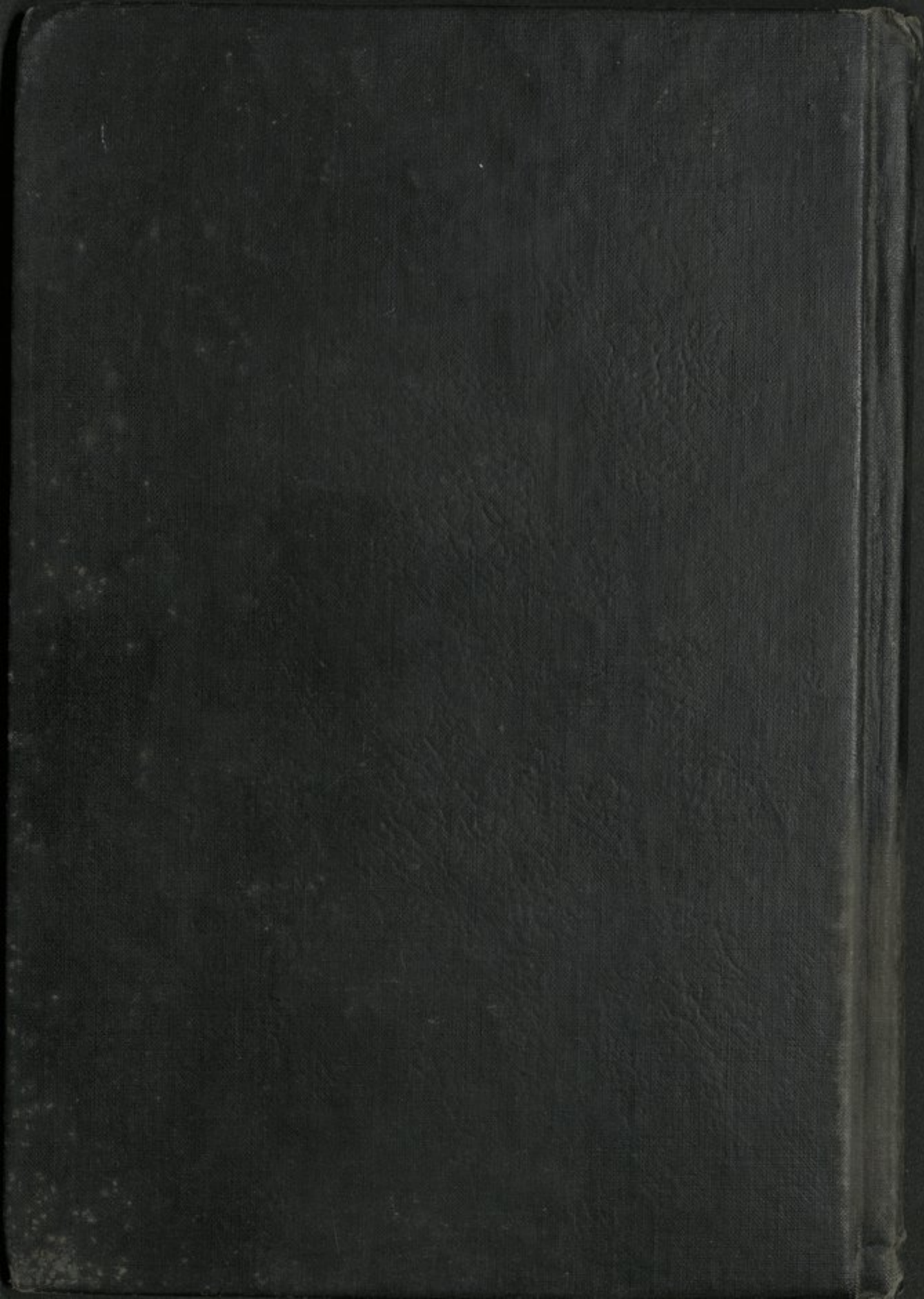
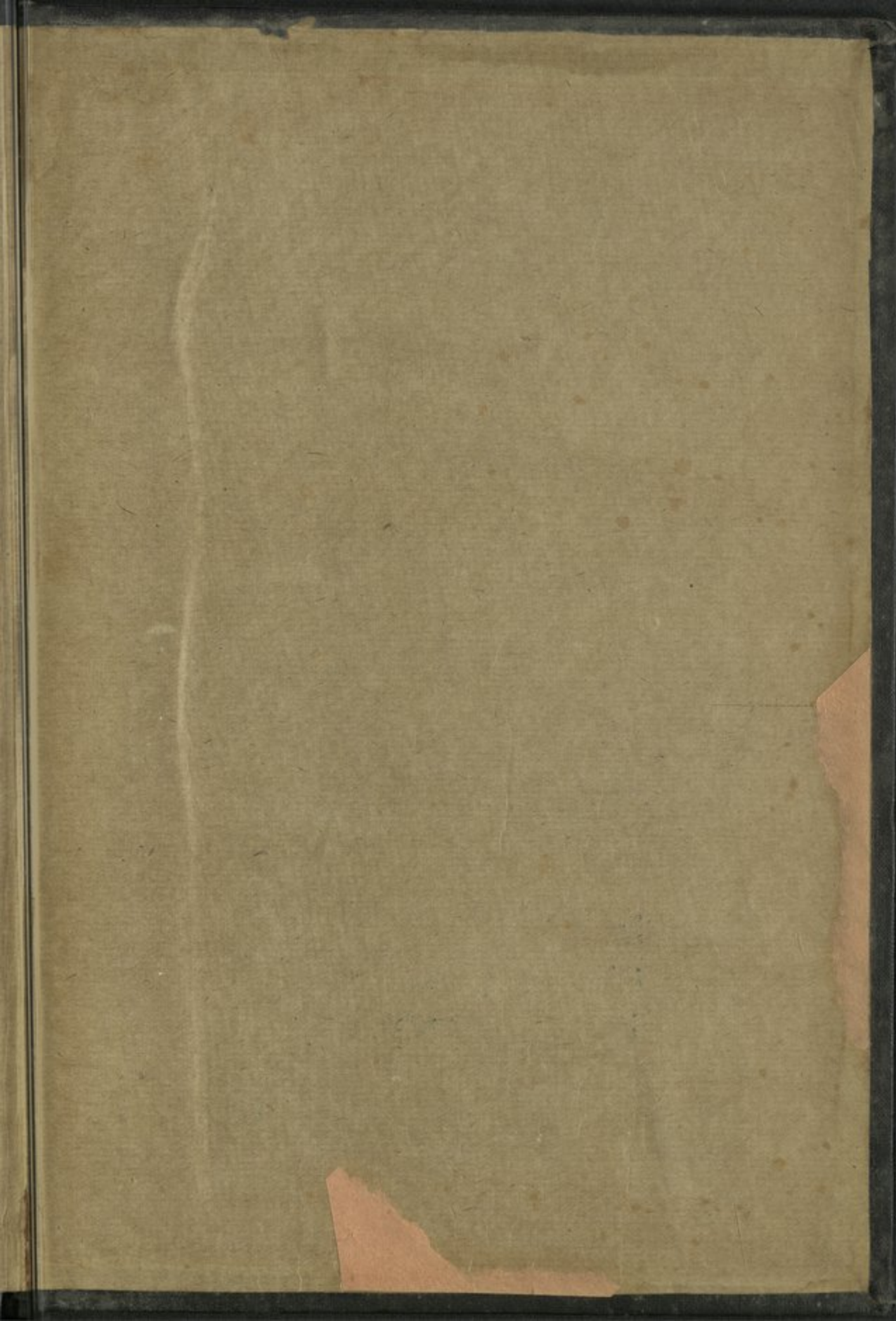
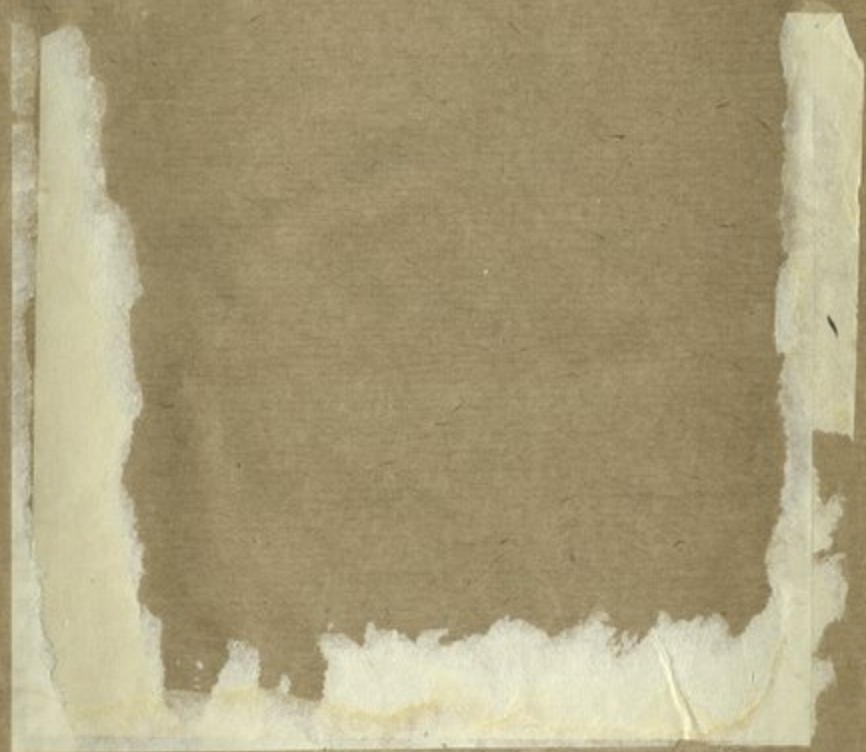
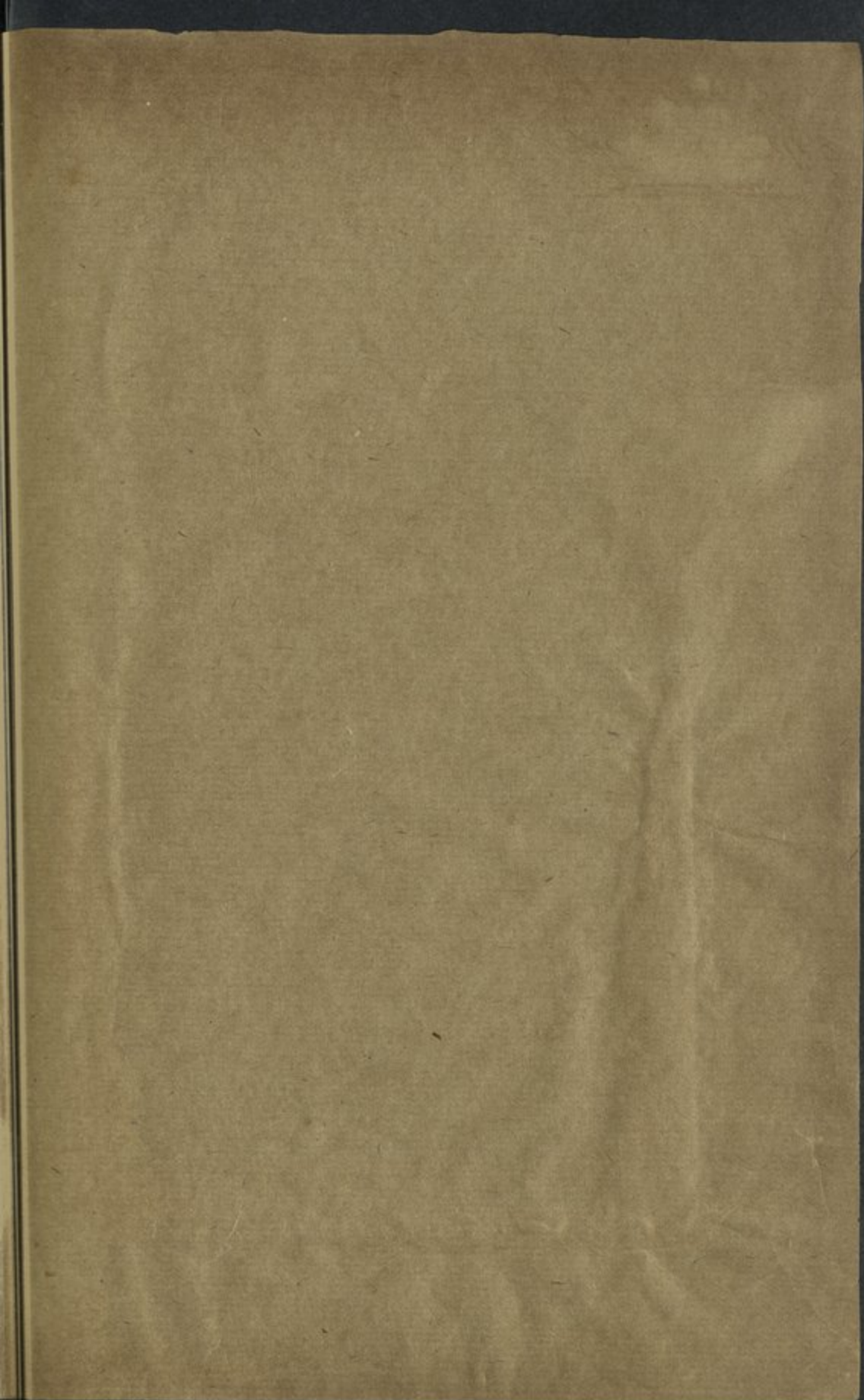










956
P596A

تقديم مكتبة جامعة القاهرة
بهدية

62

بواعث
الحرب العالمية الأولى

في الشرق الأدنى

وموجز لتاريخ ملول أوروبا في هذا الشرق

تأليف
جان بيشون

نقله الى العربية

محمد عيسى دروزة

عن ترجمة تركية عن الافرنسية للكاتب التركي المعروف

مبين جاهد باشين

67442

مطبعة الكشف بيروت

Cat. Oct. 1947



فهرست الكتاب

٣	• كلمة المعرب •
•	• تقديم الكتاب للجنرال بريموند •
١٠	• كلمة الناقل التركي •
١١	الفصل الاول حلول اوروبا في الشرق الادنى في العصور القديمة والوسطى •
٢٧	• الثاني • بدء التنافس بين فرنسا وانكلترا •
٣٩	• الثالث • خطط فرنسا في الاستيلاء على الهند في عهدي الثورة والامبراطورية
٥٧	• الرابع • التشاد الافرنسي — الانكليزي في القرن التاسع عشر
٧٩	• الخامس • تبسط روسية •
٩١	• السادس • التبسط الجرمانى •
١٠٤	• السابع • سياسة ايطالية •
١١٠	• الثامن • الدول الاوروبية والاقليات العثمانية •
١٣٠	• التاسع • التفاهم على امور الشرق قبيل الحرب العالمية (الاولى) •
١٤٠	• العاشر • مسألة النفط •
١٤٥	• الحادي عشر • نشوب الحرب العالمية (الاولى) •

طبع من هذا الكتاب ألف
ومئة نسخة على ورق عادي

الطبعة الأولى ، ١٩٤٦

مطبعة الكشاف بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قرأت هذا الكتاب في هجرتي الى تركيا ، فرأيت من المفيد نقله الى العربية لانه متصل اتصالاً وثيقاً بفصول الرواية التي تمثل على مسرح بلادنا منذ نهاية الحرب العالمية الاولى .

وقد تضمن استعراضات وجيزة لتاريخ صلة اوروبا بالشرق وخاصة بالشرق الادنى ، ومطامعها الاستعمارية فيه ، ومؤامراتها عليه ، وجهودها ودسائسها في سبيل تحقيق هذه المطامع والمؤامرات ، وتنافسها فيما بينها في هذا المجال الى يوم انفجار الحرب العالمية المذكورة عام ١٩١٤ .

وقد جاء الاستعراض لدوري القرون الاولى والوسطى مقتضباً ، ولدور القرون الاخيرة وخاصة القرنين التاسع عشر والعشرين مفصلاً بعض الشيء ، واحتوى هذا الدور قصة مطامع دول اوروبا الكبرى اي بريطانيا وفرنسة والمانيا وروسية واطالية والنمسا ومنافساتها فيما بينها مع اختصاص ما كان بين انكلترة وفرنسة من ذلك بشيء من التفصيل .

والكتاب ليس تاريخاً بالمعنى المفهوم من الكلمة ، لان فيه تغريات كبيرة من هذه الناحية ؛ ولم يكتب في الحقيقة ليكون تاريخاً ، وانما كتب ليكون منبهاً للقارئ الافرنسي الى ما فات فرنسة من فوائد استعمارية بسبب خطأ أو تقصير اولياء امورها . والاستعراضات التي احتواها ليست من الشؤون المجهولة بوجه الاجمال ، غير انها في الكتاب مملومة الاطراف متصلة الحلقات ، وهذا مفيد للقارئ العربي ، لا سيما وان فيها اشياء كثيرة من صور المشاهدات والمطامع والدسائس والمؤامرات التي دارت حول بلادنا منذ امد طويل واتصلت بعمدنا الحاضر .

(١) لهذا السبب لم نحاول سد الثغرات بالتعليق او التصحيح .

وسيرى القارىء في اسلوب الكاتب الذي هو في الحقيقة اسلوب عامة الكتاب المستعمرين بل والساسة المستعمرين الغربيين من المفارقات والمبالغات ، وقلب الحقائق والنظرات الزائفة كما سيرى خلال الوقائع والاحداث التي احتوى الكتاب قصتها من اساليب المستعمرين ونواياهم وتكالبهم ، وتبريرهم كل واسطة في الوصول الى تحقيق مطامعهم ، واستغلالهم كل ثغرة وموقف وظرف وصلة ما يصل بين ما يراه الآن على المسرح وبين ما مر من فصول الرواية ، وما فيه كثير من دواعي التنبيه ومواطن الاعتبار ، فيزداد معرفة بالغرب المستعمر ، وحذراً منه ، واستمساكاً بحقه ، وحرصاً على استقلال وطنه وكرامته ، ونصميمياً على الاستمرار في الفضال في الدفاع عن هذا الحق والاستقلال والكرامة .

٢ صفر ١٣٦٤ - ١٧ مارس ١٩٤٥^١

بورسه - تركية محمد عزف دروزه

(١) انتهينا من بياضه الذي اعدناه للطبع في ١٥ محرم الحرام ١٣٦٥ - ٢٠ كانون الاول ١٩٤٥ في دمشق، وقد احتفظنا بذكر التاريخ والسكان الذي انتهينا فيها من تعريب الكتاب للذكرى .

تقديم الكتاب

— ١ —

« كان الشرق الأدنى منذ بدء التاريخ ميداناً للتنافس والتنازع بين الأمم . وهذا الحال ما زال قائماً ، وسيبقى كذلك . ذلك لأن هذا الشرق هو طريق الاتصال بين أوروبا وآسيا ، او بين كتلي البشر العظيمتين ، او بين قلب مدينتنا الحاضرة واعني به البحر الابيض وبين الاوقيانوس العظيم الذي تتجمع فوقه ركام السحب السود ، وقد يكون كذلك لانه السديينهما ايضاً » .

من اجل هذا يصح ان يقال ان هذا الكتاب قد صدر في وقته ، فالتاريخ يكاد يكون حركة دائمة التكرار ، والمستقبل انما هو نسج خيوط الماضي التي تتحكم فيه ، وهذا الكتاب صورة كاملة لمنازعات الشرق التي سبقت حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ؛ وقد رسمها كاتب عسكري هو المقدم جان بيشون ؛ ولقد فرض الكاتب نفسه بقلمه كما فرضها بسيفه ، وسجل لنا في كتابه ما لا يزال نعيش في جوه من امور واحداث .

ولقد قال الجنرال اماد باسلوب الساخر ان الرأي العام الافرنسي يكاد يكون في جهل مطبق بامور فاس ؛ فاذا كان هذا كذلك فسادا ينبغي ان يقال ازاء شؤون الشرق الأدنى وقد اضعنا من ايدينا بسبب اخطاء رجال حكوماتنا الذين تعاقبوا على الحكم منذ عام ١٩١٨ فقط الموصل ونحاس ارغنى (١) ، وقطن كليشيا واحداً بعد آخر ، ولم يبق لنا فيها شيء الا حصة متواضعة من سهام نفط الموصل ؟ ؟ وهذا فضلا عن ما منيتنا به من خسارة ملك يصح ان يكون لنا الزاساً ثانية في هذه الانحاء !!

(١) في الاناضول وهو من اغنى وانقى النحاس في العالم - المغرب .

من اجل هذا يتحتم ان يقرأ هذا الكتاب كثير من الناس .

— ٢ —

ان هذا الشرق كما قال فولثير قد اصبحت منذ ان فتح الاسكندر الكبير طريق آسيا، وغير وجه تجارة الدنيا موضوع تنافس وطمع بين جميع الدول التي قامت حول سواحل البحر الابيض، وتعاقبت عليها واحدة بعد اخرى . ولقد تعاقب على هذه التجارة خلال سبعة عصور كل من الكريديين والفينيقيين والصوريين واليونانيين والارانيين والمعنيين والقرطاجيين ؛ ثم تعاقب عليها خلال خمسة عشر قرناً كل من المصريين والنبطيين والرومانيين ؛ ثم تعاقب عليها خلال عشرة قرون كل من الاحباش والبيزانطيين والبنديقيين ، ثم الاسبانيون والهولنديون والافرنسيون والانكليز ، بينما كان البرتغاليون من الجانب الآخر يفتحون طريق رأس الرجاء استجابة لدعوة العرب الذين يقيمون على سواحل بحر الهند والذين سد البنديقيون في وجههم طريق البحر الاحمر ، وقطعوا صلاتهم بها .

ولقد كانت هذه الطريق تحمي نفسها وتحفظ بخطورتها بفضل ما هي عليه من شاسع الابعاد ، وما تستلزمه من صعب الوسائل ؛ وقد زال اليوم عنها كل ذلك ؛ فانه لم يكن في امكان اساطيل روما وبيزانطية ، ولا اساطيل الترك التي خلفتها ان تقوم برحلات بحرية في الشتاء ، وكانت اساطيل قسطنطين تقضي سنة كاملة في الرحلة ذهاباً واياباً بين اوستي والاسكندرية ؛ مع ملاحظة ان هذه الاساطيل هي اساطيل دولة ؛ ولقد انهكت الضرائب الملاحة الحرة الشخصية وقضت عليها ؛ ولم يستطع القديس بولس ان يصل من فلسطين الى روما الا في خمسة اشهر وقد مضى بليسير ثلاثة اشهر في رحلته البحرية حتى استطاع ان يصل من القسطنطينية الى قرطاجه عام ٥٣٣ حينما رأى ضرورة هذه الرحلة لازالة آثار التخريب الذي احدثه غزاة الواندال ؛ وقد انتظر وليم الفانج عدة اسابيع ليتسنى له الريح الطيبة لعبور مضيق المانش الى الضفة الامامية في ايلول عام ١٠٦٦ ؛ ولم يستطع الاميرال دوبري الذي قام في ٢٥ مايس عام ١٨٣٠ من طولون ان يصل الى ميناء سيدي فروخ وينزل عسكره اليها الا في ١٤ حزيران .

فاهل القرون العسيرة كانوا يسرون بقوة الريح فقط ، وكانوا لا يقطعون في اليوم الواحد الا احدى عشر ميلا ، ولا يسرون الا محاذاة للسواحل ، وكانوا يقيمون في الليل حيث ادركهم الظلام ، ولم يكن في استطاعة المراكب الثلاثة المجاذيف ان تحمل اكثر من مؤونة ثلاثة ايام . وفي الحق ان بحارة تلك القرون جرآء ابطال جديرون بالاعجاب والاعظام !

— ٣ —

ولقد كان اليونانيون والفينيقيون مخترعين ، فاستطاعوا ان يكونوا ذوي مدينة كاملة . ولقد كانت مراكب كليوبترا بطول ١٢٥ متراً ، وفي كل منها ثلاثة او اربعة آلاف بحار ، وخمس طبقات تجذيف ؛ وهذه المراكب هي التي كانت تجذب قواد روما الذين لم يكن لهم مثلها وليس انف كليوبترا ولا جملها الخيالي . فروما دمرت قرطاجه وكورنيث ، وادى هذا الى ضعفها ووهن قواها .

ويقول البروفسور غوتيه ان العقم الذي بدا من المدينة الرومانية في ساحة الاختراع يتسق مع عقمها الصناعي اتساقاً تاماً ، وانه مرتبط به ارتباطاً طبيعياً . ففي خلال المدة التي عاشت فيها امبراطورية روما وهي نحو خمسة قرون لم تخط اية خطوة في سبيل الرقي البحري ، بل انها تدنت بعض الشيء ؛ ولم تستطع ان تتجاوز طراز المراكب الذي ورثته من القرطاجيين واليونانيين ؛ ولقد كان من المقدر انتظار ظهور فاسكودي جاما حتى يتسنى الطواف مرة اخرى حول سواحل افريقيا . وانه لمن الحق ان يضم الى هذا الاسم اسم البحار العربي الشهير احمد مديج الذي كان يلقب بسمع البحر ، لانه هو الذي كان دليل فاسكودي جاما ؛ وهو الذي الف نحو اثنين وعشرين كتاباً في الملاحة بين منظوم ومنثور كانت هي جميع ما كان في زمنه عن المعارف البحرية ١٤٦٢ — ١٤٩٠ م .

ولقد وقفت القرصنة التي يحق ان نسميها دولة في وجه السيطرة الرومانية في البحر الابيض ؛ وكانت ملجأً للاحرار المستقلين ، واستمر نضالها الذي تمركز اخيراً في الجزائر الى عام ١٨٣٠ اربعة عشر قرناً ، وكانت مما يزيد في مشاكل الملاحة في هذا البحر .

— ٤ —

وفي خلال ما كان من أوروبا نحو آسيا من حملات الطمع يبدو للعيان واقعتان عظيمتان . اولاهما الحملات الصليبية التي كان لها نتائج عظيمة ومستمرة ، وثانيتهما حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٩ التي كانت موضوع تفكير ورغبة منذ لويس الرابع عشر على الأقل . ولقد كانت هذه الحملة خاصة ثورة وانفجاراً ؛ وهي لا تعد خطوة تقدمية للاروبيين الذين كانوا قد تغلبوا على الصعوبة بدورهم حول سواحل افريقيا من طريق الرجاء الصالح فحسب ، بل جاءت رابطة من الداخل ايضاً . فقد كان البشر بدافع حب السيطرة والكسب يتنازعون فيما بينهم للحيلولة دون هذه الحادثة ؛ حيث كان القرطاجيون يقضون على كل ما يصل اليهم من مراكب اليونانيين ، وكان احد قوانين جوستينيان ٤ ايلول عام ٤١٦ ينص على عقوبة الموت لكل من يعلم الملاحاة للبرابرة لتظل محصورة في بيزانطي البحر الابيض ، وكان الهولنديون في جزر المولوك يبيدون كل مركب اجنبي يأتي الى هذه الجزر ، وجعل الاتراك ثغر السويس منطقة محرمة على النصارى ، وكانوا الى سنة ١٧٩٩ يصادرون المراكب التي تصل اليها ، ويعتقلون ملاحياها .

— ٥ —

وكل ما فكرنا فيه نحن الافرنسيين حينما هاجمنا الالمان — وكان ذلك طبيعياً — هو متر وستراسبرغ ، في حين كان الشرق موضع انظار وافكار الامم الاخرى ؛ فمنذ عام ١٩٠٠ اخذ الالمان يوطدون اقدامهم فيه ، ويهددون الروس والانكليز ؛ ومع انه ليس من ريب في ان زحف الالمان على بلجيكا هو الذي حرك الانكليز مباشرة ، فان السبب الرئيسي هو الخطر الذي كان يهدد مصالحهم في الشرق الادنى ؛ ولقد ارتكب الافرنسيون خطأ كبيراً جداً بقصر تفكيرهم على الرين ، لان الخطر كان يهددهم في كل مكان .

ولقد اشتد الامر اليوم اكثر من قبل ؛ فقد زالت الابعاد ، وحلت السيارات السريعة في بادية الشام محل الجمال ، واخذ الاسلحة يوحدين البشر ويجمعهم كأنما

هو سلسلة جامعة : وفقد صفته كسلاح خفيف يستعمل لخدع البشر واستعبادهم ؛ وصارت الطائرات تسبح في جو السماء كجفن اساطير الف ليلة وليلة . واذا كانت قناة السويس طريق السفن ، فبين النهرين طريق السيارات والطائرات . وسورية تتقدم كل يوم خطوة في سبيل صيرورتها مركزاً رئيسياً لطريق الاتصال الجوي بين الشرق الابيض الاوروبي وعروق آسيا البيضاء والصفراء ، اي ان خطورتها تزداد كل يوم عما قبله .

وكلما عرفت ظروف وادوار المفاوضات التي اعقبت حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ تزداد حيرة المرء من جهل الرجال الثلاثة الذين زعموا انهم وطردوا الحق على اساس القوة والنصر ، والذين لم يكن منهم في الحقيقة الا ان جعلونا في المركز الذي نحن فيه الان .

واستمرار جهل الطبقة العليا منوط باستمرار جهل الطبقة الدنيا . ولو ان جميع الافرنسيين قرأوا هذا الكتاب لسار امر سورية في غير الطريق الذي سار فيه ، ولم يكن من الممكن خدع الشعب وتقريره بمسائل تافهة كما اعتاد ذلك رجال الحكومة . من اجل هذا عليكم ان تقرأوا هذا الكتاب ، وان تقرؤوا غيركم ؛ فان لفرنسا فائدة عظيمة في ذلك .

الجنرال برعموند

من ملاك الاحتياط

كلمة الناقل التركي

بضع كلمات عن الكتاب وجواب لا بد منه
للجنرال الافرنسي على مقدمته التركية

ان قراءة هذا الكتاب الذي يوصي الجنرال الافرنسي قومه بقراءته بهذه الحماسة
الشديدة ستفيدنا نحن الاتراك ايضاً فائدة جلى . فالجنرال الافرنسي انما يفكر في
منافع فرنسا ومصالحها ، غير ان معرفة ما يجري في افكار الغير نحو الشرق الادنى
هي واجبة علينا بقدر ما هي مفيدة لنا ، لان موضوع الكلام هو وطننا .
من اجل هذا رأيت من مصلحة الاتراك ان يقرأوا هذا الكتاب فترجمته الى اللغة
التركية .

وهناك نقطة مهمة اخرى في كلام الجنرال الافرنسي ، وهي ما اظهره من اسف
على ما افلت من ايدي الافرنسيين من مناجم نحاس ارغنى وقطن ارضه . فالناس الذين
يعتبرون خرق المايا لحياض بلجيكا وزحفهم على الارض الافرنسية عملا في غاية الظلم
والتوحش لا يرون في ما يبدو اي محذور في الاستيلاء على اراضي الامم الاخرى ،
مهما كان البعد بينها وبينهم شاسعاً ، ولا يثبتون ان ينسوا في هذا السبيل معاني
الحق والعدل .

والجنرال الافرنسي المحترم ينسى نقطة مهمة ؛ فلن يجديه الاسف والحسرة من بعيد
على معادن ارغنى وقطن ارضه كما بدا منه ؛ فالحرب التركية تقوم على حراستها ؛
وانها لمي الحرب التي طردتهم عنها ! فهم لم ينسحبوا برضاهم حتى يكون من شأنه
ان يأسف على ضياع نعمة كانت في أيديهم بسبب خطأ او تقصير ؛ ولو كان في
استطاعتهم ان يقفوا في وجه عزيمة الترك وصولتهم لما تركوا ذلك النحاس ولا
هذا القطن ! فاذا كان يرى والحالة هذه ان يأسف ، فان اسفه انما يصح ان يكون
على ما كان منهم من عجز .

عبد الله باشا

الفصل الاول

حلول اوروبا في الشرق الادنى في العصور القديمة والوسطى

كما أن مصر هي مفتاح طرق البحر الى الهند
فان سورية هي مفتاح طرق البر اليها
الجنرال نيوقس : المجلد الخامس لموسوعة
الجغرافية العسكرية لسنة ١٨٨٧

توطد المستعمرين اليونان في طرواده - فتوحات الاسكندر الكبير وتائجها - السلوقيون
واللاكديون (١) المملكة الهندية اليونانية - سيطرة روما واليونان - الصليبيون - تجارة
الشرق الادنى - اكتشاف طريق رأس الرجاء - النضال بين البندقيين والبرتغاليين على طريق
البحر الاحمر وخليج البصرة - التنافس التجاري بين الاوروبيين في البحر المحيط الهندي
بعد سقوط الامبراطورية البرتغالية .

— ١ —

بعد نحو قرن واحد من حروب طرواده ، نزل المهاجرون اليونانيون الى شواطئ
آسيا الصغرى ، وانشأوا فيها مستعمرات ثيوليد وثيونى ودوريد ولسبوس وورودس ؛
وقد استقرت ذريتهم في هذا القسم من آسيا ، وضربت فيه جذورها على الرغم مما
احدق بها من ضيق وتضييق ؛ وظلت كذلك نحو ثلاثة آلاف عام الى ان اقتلعت
منه وطردت عنه بموجب معاهدة لوزان حيث تم الاتفاق على المبادلة بين السكان
اليونانيين والترك في اوروبا وآسيا .

ولقد حالف التوفيق مستعمري اليونان الاولين ، فلم يلبثوا ان انتشروا في مدة
وجيزة على جميع شواطئ آسيا الصغرى حتى وصلوا الى قبرص ؛ وانشأوا على

جميع شواطئ البحر الأبيض مراكز تجارية؛ ومن جملة ذلك مدينة نوقرانيس التجارية المهمة الواقعة على أحد مصاب النيل في القطر المصري .

على ان اليونانيين اختلفوا وتنازعوا مع الفرس قبل الميلاد بنحو خمسة قرون ونصف ، فاستولى هؤلاء على جميع اقاليم آسيا الغربية وعلى مصر ؛ ثم اخذوا يتهاون للاستيلاء على بلاد اليونان الاًم ؛ وكان هذا مبدءاً ذلك الدور الطويل من النضال ؛ حيث ظل الاوروبيون والاسيويون يتناحرون في الحروب المعروفة بحروب الماديين وما بعدها الى ان مزق الاسكندر الكبير امبراطورية الفرس .

— ٢ —

ومما يروى ان ملك مكدونيا « الاسكندر » حينما اعتزم العبور الى آسيا من معبر هلمبونت (١) في سبيل اخذ ثار اليونانيين تعمد ان يكون هو اول من يضع قدمه على الارض الاسيوية ، وحينما تم له ذلك ركز رجمه في هذه الارض ايداناً بصيرورة هذه القارة في حوزته . وليس من ريب في انه اراد بهذه الحركة التمثيلية ان يعلن للملأ عظم خطورة العمل الذي اقدم عليه .

ومن الحق ان يقال ان اليونانيين لم يفكروا الى تلك اللحظة في التقدم الى ما وراء الشواطئ اذا استثنينا حملة كينوفون (٢) التي لم تكن في الحقيقة الا جيشاً مأجوراً للملك كورش ، في حين ان جيوش الاسكندر كانت جيوش فتح . وقد رأى اليونانيون قبل ان يتوغلوا في القارة ان يولوا اهتمامهم اولاً للسيطرة على الاقاليم القائمة على سواحل البحر الأبيض الشرقية ، وان يخضدوا خاصة شوكة الفينيقيين ولقد تمكنوا بعد انتصاراتهم الكبرى في معارك غرانيسك (٣) ٣٣٤ ق و ايسوس (٤) ٣٣٣ ق من الاستيلاء على سورية ، وتخريب صور ، واحتلال القطر

(١) الذردنيل .

(٢) قائد يوناني . ولقد كان من اليونانيين في جيوش ملوك ايران جنود مرتزقة كثيرون حتى يروى ان عددهم كان (٥٠٠٠٠) حينما عبر الاسكندر الى آسيا .

(٣) اسم نهر جرت قربه معركة كبرى (٤) مدينة قديمة في ايران مشهورة بآثارها - العرب .

المصري ، وانشاء مدينة الاسكندرية ؛ ثم استأنفوا في العام التالي رحلتهم الموقفة فعبروا الفرات والدجلة ، ومزقوا شمل بقية جيوش دارا ، ومشوا عام ٣٣١ ق الى السويس وبرسيموليس وبابل .

وبسيطرتهم على امبراطورية الفرس انفتحت امامهم جميع ابواب آسيا ، فوصلوا الى بحر الحزر والاراشوس والبختار ، ثم عبروا وادي كابول ، ودخلوا البنجاب الواقعة وراء نهر السوس ٣٢٦ ق .

ولا بد لهذا النشاط العظيم من الوقوف عند حد ما ، وقد اضطر الاسكندر الى حساب حساب ما وقع فيه جيشه من التعب والكلال ، فلم ير مناصاً من التخلي عن فتح الهند ، فارسل قسماً من جيشه بحراً الى خليج البصرة ، وعاد على رأس بقيته رآ الى كابل ، ولم يلبث ان وافته منيته فيها على غير انتظار ٣٢٥ ق .

— ٣ —

ومع ان فتوحات الاسكندر لم تلبث ان تفتت فان نتائجها السياسية والتجارية كانت عظيمة جداً .

فقد كانت عاملاً رئيسياً في ادخال اسس الحضارة الاوروبية الى آسيا بما انتشر بسياقها من فن اليونان ولغتهم ومدنيتهم . وقد عرفت العالم ببعض الطرق العسكرية والفتوحات الكبرى ، حتى انها لفتت انظار نابليون الذي جاء بعد احقاب طويلة حيناً اخذ يفكر ويرسم الخطط المختلفة لقهر انكلترا في الهند . فقد سار الاسكندر بعد قتل دارا في الطريق التي تؤدي رأساً من السوس الى مشهد وهرات وقندهار عابراً معابر بحر الحزر وبلاد الافغان ، ومن هناك مشى في طريق او كسوس (١) الذي يمر من معابر الاندوس والكوش ويؤدي رأساً الى كابول وبشاور ، فوصل الى سمرقند اولا ومنها الى الاندوس . ولقد عرف بنفسه كذلك الطريق الساحلي لبلاد الفرس حيناً سار فيها بجيشه مع معاونه افستيون ، حيث وصل منها الى السوس بطريق كندروسي . اما طريق خليج البصرة الاخرى فقد

(١) اسم قدم لنهر في آسيا يغلب ان يكون النهر المعروف اليوم بيجون .

سير فيها معاونه الثاني نيبارك .

ومن ناحية ثانية فان فتوحات الاسكندر قد أثرت تأثيراً كبيراً في سير ونشاط التبادل التجاري بين اوروبا وآسيا ، وكان هذا الى وقته مستوراً بحجاب كثيف من الاسرار ومحسوراً في ايدي البحارة الفينيقيين والتجار اليهود الذين حرصوا اشد الحرص على الاحتفاظ بالسِر وحصره في ايديهم . على انهم هم انفسهم لم يكونوا يعرفون المنابع الاصلية لسلع الشرق المتنوعة ، وانما كانوا يتناولونها بواسطة قوافل البر التي تسير في طريق تدمر وبطرا وغزة ، او من المستودعات البحرية القائمة على سواحل ابله (١) وشبه جزيرة سيناء العربية .

ولم يكن البحر الاحمر في ذلك العهد هو الطريق الرئيسية الى الهند ، فقد كان سير السفن فيه شاقاً ، وكان من النادر ان تمت رحلات الملاحين المصريين والفينيقيين الى مسافات بعيدة ، حيث كانوا على الاغلب يقتصرون فيها على سواحل بلاد العرب السعيدة . وعلى هذا يمكن ان يقال ان اهل هذه البلاد اي السبئيين كانوا هم الوسطاء الحقيقيين لتجارة خليج البصرة وبلاد الهند من جانب ومصر وفينيقية من جانب آخر ، وقد كانوا بسبيل الاحتفاظ بمنابع الثروة دون شريك يوهمون المصريين والفينيقيين بان غالب السلع التي يتناولونها من ثعري عدن ، وكأنه انما يأتي من قلب بلاد العرب . ولقد اكتشف الاسكندر وهو يتقدم في غرب آسيا تقدم الظافر اكثر مجاري التجارة العظمى التي كانت تجري فيها سلع الهند وغلاتها نحو الغرب ، وهي خليج البصرة وبابل وتدمر وطريق او كسوس وثغور البختياران وهرجان وبحر الخزر ، ومع ذلك فانه لم يكتشف كل الحقيقة لانه لم يلحظ جميع مدار سواحل جزيرة العرب ابتداء من خليج البصرة . وكل ما هنالك ان اليونانيين ظنوا ان جميع سلع بلاد الهند وغلاتها انما تأتي الى البحر الابيض من طريق بلاد الفرس وبين النهرين وآسيا الصغرى وسورية . وان مصدر جميع السلع والغلات التي ترد الى بطرا او تدخل الى مصر هو بلاد العرب السعيدة او افريقية .

— ٤ —

وتنازع الزعماء المكدونيون السيطرة على البلاد التي فتحها الاسكندر . وكان من

(١) على خليج العقبة .

نتيجة ذلك ان نال بطليموس ملك فلسطين ومصر . فنشأت العائلة الملكية التي تعرف باللاكديين (١) والتي امتد نفوذها الى بلاد الحبشة .

وانتزع سلوقيوس من يد انطوغيوس ولايات سورية اي اعظم اقسام الملك اليوناني في آسيا ، فنشأت العائلة الملكية السلوقية . التي امتد سلطانها ايضاً الى نهر الغانج شرقاً . غير ان هذه الامبراطورية الواسعة لم تلبث ان انتقصت من اطرافها فاقطع منها بعض رجال سلوقيوس الاقسام الشمالية في آسيا الصغرى ، ثم نار الارشاكين (٢) في سنة ٢٥٥ ق وسيطروا على بلاد الفرتين (٣) ، ونتج عن هذه الثورة ما لا بد منه وهو انفصال بلاد البختيار التي انقطعت صلتها بمملكة السلوقيين ولم يكن مناص لملوك هذه المملكة من التحول عن مقرهم القديم في اقليم بابل ، واتخاذ انطاكية عاصمة جديدهم للملك .

ولقد حاول الملك انطوغيوس الثالث حوالي سنة ٢٠٥ ق ان يجبي ذكري فتوحات الاسكندر ويعيدها الى ما وصلت اليه ، وأن يرفع شأن عائلته وكرامتها ونفوذها فاضع لسلطانه آسيا الصغرى وبلاد البختيار ووصل الى البنجاب ، ثم انتزع من ايدي اللاكديين مقاطعات فلسطين وفينيقية ، غير انه لم يلبث ان اشتبك مع الرومانيين الذين هزموه في الترموبيل عام ١٩٢ ق ثم في ماغنيسيا عام ١٨٩ ق ، ولم يلبث خلفاؤه ان دانوا بعد قليل لروما ، وخضعوا لسلطانها ، وكان ذلك نهاية الامبراطورية السلوقية . ولقد اغار كل من اللاكديين والسلوقيين عنايتهم باستمرار للتجارة الاسيوية . فقد استهدف الاسكندر حينما دمر صور وانشأ الاسكندرية جعل هذه مركزاً للتجارة في شرق البحر الابيض ، فبذل اللاكديون بعده جهدهم في وصلها بواسطة قناة فيلية بخليج ارسينوثي (٤) وبخليج العرب . غير ان صعوبة الملاحة في البحر الاحمر اضطرتهم الى التخلي عن هذا المشروع ، فوجهوا عنايتهم الى انشاء الثغور في معبر البرينيك (٥) وخليج هرمز ، ومن هنا اخذت سلع الشرق وغلاته تجري مدداً لا ينقطع بواسطة

(١) م البطالسة في التاريخ العربي (٢) Arsacids (٣) وفي هذه البلاد قامت الدولة الارشاكية او الاراسايدية (٤) اسم مدينة مصرية قديمة على شاطئ النيل (٥) هو مضيق هرمز

القوافل الى الاسكندرية عن طريق غوتبوس والنيل . اما السلوقيون فقد انشأوا في حوض النهرين مراکز تجارية كبرى ، وقد وصلت مراكبهم جراحى وجزيرة تيلوس (١) وسارت محاذية للسواحل الاسيوية حتى بلغت تابروبان (٢) ، بل لهم وصلوا الى ابعد من منطقة شرسونيس دور (٣)

ومن ناحية ثانية فقد اشتمك الفريقان في نزاع ونضال في سبيل الاستيلاء على بلاد الانباط وفلسطين وفينيقية وسورية الداخلية . والسيطرة بذلك على المنافذ والطرق والمراکز التجارية التي تتصل بالشعور القائمة على البحر الابيض مما يدل على ادراك كل منهما خطورة التجارة الاسيوية . وعلى رغبة كل منهما في الانفرد بهما .

— ٥ —

وحينما انفصلت بلاد البختيار عن المملكة السلوقية نتيجة لثورة الارشاكين على ما ذكرناه قبل قليل قام على ادارتها مستقلا الحاكم اليوناني الذي كان يتولى امرها من قبل السلوقيين . وقد ظلت هذه الدولة اليونانية الجديدة تمارس السلطات في هذه البلاد الى عام ١٤١ ق . حيث ضيق الارشاكيون والسيكتيون الخناق وحشد التجأت اليونانية مؤقتاً الى الهند . واستطاع بنانديرس اليوناني ان يوطد حكمه في البنجاب والسند وكجرات وحوض الغانج . فقامت هكذا دولة يونانية هندية احتفظت بسلطانها الى عام ٣٠ ق حيث سقطت على ايدي السيكتيين في عهد الملك هرمونيوس . ومن الحق ان ننوه بخطورة هذه الحادثة وان نلاحظ ان أي دولة اوروبية لم تفكر في بسط نفوذها وسيطرتها على هذه البلاد منذ ذلك العهد الى ان كان الفتح البرتغالي في اواخر القرن الخامس عشر اي مدة تزيد عن الف وخمسمائة عام .

— ٦ —

ولما استولت روما على بلاد اليونان ومكدونيا وجهت اهتمامها الى آسيا فبسطت سلطانها على كل ما بقي في يد السلوقيين من تركة الاسكندر .

(١) البحرين (٢) سيلان (٣) مالاقا

ولقد كان الباعث الذي حفز المكدونيين الى الزحف على امبراطورية الفرس والوصول الى قلبها هو فكرة الانتقام . اما الذي دفع الرومانيين الى بسط سلطانهم على الشرق الادنى فهو الحرص على السيطرة على تجارته . فقد استغرق هؤلاء في الترف والبذخ . فرنوا بأبصارهم الى ما في آسيا من ثروات وتوابل وحجارة كريمة ولائى ومنسوجات حريرية وعطور متنوعة .

وقد اشتبكوا في بادئ الامر مع المتريديانيين والتيفرانيين (١) في سبيل الاستيلاء على آسيا الصغرى وسورية وفنيقية . ولما انتصروا اصبحوا وجهاً لوجه امام الفرتين فالارشاكين . وقد ساقهم ما كان يتجدد بينهم وبين جيرانهم هؤلاء من نضال ونزاع الى ما بين النهرين وكتسوفون (٢) وخليج البصرة . وكان النضال سجالات بين النصر والهزيمة .

ولقد بدت في اثناء ذلك خطورة نهري الفرات ودجله كطريقين عسكريين في سبيل الاستيلاء على ايران وخليج البصرة وبلاد الهند . ولقد شهد قره سوس (٣) هلاك جيشه في الصحراء عام ٥٤ ق م . وكان تراجان عام ١٠٧ ب م وجوليان ٣٦٣ ب م مدينين بالنصر الذي احرزاه في زحفهم على كستوفون للاساطيل النهرية الصغيرة التي سيرها في النهرين المذكورين . ولقد استلم نابوليون هذا الدرس في خطئه التي وضعها للاستيلاء على بلاد الهند

ولما اصبحت مصر ولاية رومانية في سنة ٣٠ ق م حاول اوغستوس اوكتاف ان يمد سلطانه الى بلاد العرب والحبشة . فقد كان يظن ان هذه البلاد هي منابع السلع التي ترد الى البحر الابيض من طريق البحر الاحمر . وفي سنة ٢٥ ق م سير ايليوس قالوس على رأس جيش زل في ساحل لوكومى ومشى منه الى بلاد اليمن . وكان كيوس بترونبوس يسير في نفس الوقت بجيش آخر نحو ميروبي وبلاد الحبشة .

(١) من الامم التي كانت تسكن في الاناضول قديماً .

(٢) تعرف في كتب العرب بطيفسون او المدائن عاصمة السلوقيين سابقا والساسانيين الفرس بعدهم .

(٣) ملك ليديا في الاناضول .

على ان الرومانيين لم يلبثوا ان عرفوا ان ما ينقله السبثيون من سلع الشرق وثرواته لم يكن مصدره — باستثناء البنحور — بلاد العرب ولا بلاد الحبشة وانما كان يأتي من بلاد الهند . ومنذئذ اخذوا يبذلون جهودهم في سبيل السيطرة على سواحل جزيرة العرب . ووصل امرهم الى فرض الجزية على السبثيين .

وقد حدث في هذه الاثناء وفي عهد كلود (١) حادث مهم في تاريخ الملاحة . حيث اكتشف هيمال ظاهرة هبوب رياح معينة في مواسم معينة من السنة . فأدى هذا الى اكتشاف طرق يسار فيها رأساً من بحر الاريترة الى ثغور اقليم نياغارا (حيدرآباد) وباريغازا (باروجي) وموسيريس (ماتالور) في شبه جزيرة الهند . والى جزيرة تابرويان (سيلان) . فعدت سلع وثلثات بلاد الهند بعد ذلك تود الى ثغور البحر الابيض بكثرة وفيض . ولم يكن الملاحون الى ذلك الوقت يجرأون على الابتعاد عن شواطئ افريقيا وبلاد العرب ويران حينما يقومون برحلاتهم بين مصر والهند ذهاباً واياباً .

ولقد بسط الرومانيون سلطانهم على تدمر وبطرا ايضا . مستهدفين بذلك السيطرة على طرق القوافل التجارية التي تسير في صحارى سورية وبلاد العرب . على ان بعض الظروف السياسية لم تمكنهم من الاحتفاظ طويلاً بالحكم المباشر في هذه الاصقاع الصحراوية . فانصرفوا اولاً عن بطرا الى بصرى . ثم خربوا مدينة تدمر سنة ٢٧٢ ق م بسبب الثورة التي اشعلت نارها الزباء . ثم اخذوا يتخللون تدريجاً وخاصة في عهود روما المتأخرة وعهود بيزانطية الاولى عن ذلك الحكم . ويعهدون به الى الامراء والملوك المحليين مثل ملوك وامراء الحيرة والفسانيين . ولقد ادى هذا الى حروب متواصلة انفقد بها الامن في طرق التجارة الصحراوية . واضطرت الرومانيين الى الانصراف عنها بالكلية ، وتركيز جهودهم وانظارهم في تجارة البحر الاحمر وبحر الحزر ويوتوليسين . فأخذت العطور والتوابل والافوايه والآلئ والاحجار الكريمة الاخرى تتدفق على الاسكندرية من طريق البحر الاحمر بينما كانت المنسوجات الحريرية

(١) من اباطرة الرومانيين .

تنقل من طريق اوكسوس وبختران وبحر الخزر وفارس . وبذلك ظل النشاط التجاري في مدار ما يسمى طريق الحرير مستمراً الى القرن الميلادي السادس حيث احضر رهبان التساطرة دود الحرير من كوتان الى الملك جوسقينيان فلم تلبث تربية الدود وصناعة الحرير ان انتشرت في بلاد اليونان وصقلية وايطاليا

— ٧ —

ولقد استؤتف التصال بين اباطرة روما الشرقية والفرس ، واستمر الفريقان في حالة حرب متواصلة امداً غير يسير . وقد سيطر الفرس سنة ٦٠٨ ب م على سورية وما بين النهرين وبعض اقسام آسيا الصغرى . واحتلوا سنة ٦١٢ ب م انطاكية وسنة ٦١٤ دمشق وسنة ٦١٥ القدس وسنة ٦١٦ مصر . ثم قام هرقل بزحف مضاد سنة ٦٢٢ فاستولى على ارمينية وكليكية ثم زحف الى العراق وسحق جيش الفرس امام نينوا سنة ٦٢٧ . واستنقذ خشيبة الصليب الاصلية التي استولى عليها كيخسرو عام ٦١٥ حينما فتح القدس .

واعقب هذا الفتح الاسلامي فكان سبباً في ارتداد المسيحية الاوروبية الى الورا مرة اخرى .

ولقد انتزع العرب من يد هرقل اقطار ما بين النهرين ٦٣٢ — ٦٣٤ ب م وسورية وفلسطين ٦٣٦ ثم مصر ٦٤٠ واحداً بعد واحد . والجأوا الامبراطورية الرومانية الى الانكماش في آسيا الصغرى بعد ان كادوا يقضون عليها . على ان الملوك البيزنطيين الذين يمتون باصلهم الى الملوك المكدونيين الاولين لم يصبروا على الهزيمة . فعادوا الى الاشتباك مع العرب . وتكرر اشتباكهم معهم الحين بعد الحين . حتى انهم استطاعوا ان يمدوا حدود امبراطوريتهم الى الانحاء العليا من الفرات . وقد استولوا عام ٩٦٥ على طرسوس و ٩٦٨ على حلب وانطاكية و ٩٧٤ على اورفه ونصيبين و ٩٧٦ على دمشق وبيروت . غير ان بروز الترك السلجوقيين في اوائل القرن الحادي عشر اوقف هذا الامتداد وردة على اعقابهم . حيث تمكن طغرل والب ارسلان وملكشاه من انتزاع اعظم املاك البيزنطيين في آسيا الصغرى واحتفظ اخلافهم بها الى الحروب الصليبية .

— ٨ —

ومع ان التبسط الاوروبي في الشرق الأدنى كان منحصراً تقريباً في العالم الروماني واليوناني ، ومطبوعاً بطابعه فان امم اوربا الغربية كانت متصلة بآسيا منذ زمن قديم ايضاً بواسطة النصارى الكثرين الذين كانوا يحجون الى الارض المقدسة . ولم تكن الفتوحات الاسلامية لتسد الطريق في وجوههم ، ومن الحق ان يقال ان العرب تنصرفوا تصرفاً سمحاً ، ويرجع هذا على الارجح الى الصداقة التي توطدت بين هرون الرشيد وشرلمان اللذين وحد بينهما العداء المشترك لامراء قرطبة .

غير ان الحالة قد تبدلت بعد ان حل السلاجقة في الحكم محل الخلفاء العرب . ولقد اغضب نصارى الغرب ما بدا من السلاجقة من تصرفات ومطالب ومضايقات متنوعة وشديدة ازاء الحجاج ، فلما دعا البابا اوربان الثاني في مجمع كليرمونت الروماني عام ١٠٩٥ الى حملة صليبية استجابوا اليها بشوق وحاسة عظيمين . وهكذا خرج الصليبيون الى فتح آسيا واستولوا على القدس عام ١٠٩٩ وانشأوا الامارات النصرانية في البلاد السورية .

وما يجدر التنبيه عليه ان فتوحات الصليبيين ابعد من ان تشبه الفتوحات اليونانية والرومانية ، فقد كانت غاية حملاتهم الاولى قاصرة على تخليص المقامات المسيحية المقدسة ، ومع انهم امتدوا الى اورفه شرقاً وإلى البحر الاحمر والنيل جنوباً فانهم اخفقوا في فتح حلب عام ١١٢٤ وفي فتح دمشق ايضاً عام ١١٤٨ كما انهم لم يستطيعوا ان يوطدوا اقدامهم في مصر . ومع ان رايات ربنود دوشاتيليون قد وصلت الى البحر المحيط الهندي بواسطة زخوف وجولات قرصان جزيرة غراي الجرشة فان جيش اولطور غوردان مني بالهزيمة عام ١١٨٢ امام المدينة (١) . وفي عام ١١٨٧ سحق الامير (السلطان) صلاح الدين جيوش ملك القدس قوى دولونيان قرب طبريا ، وانتهت اخيراً الحملات الصليبية بسقوط عكا عام ١٢٩٠ بالحامية بعد جهود قرنين كاملين .

(١) لا ندري اي مدينة قصد المؤلف . فان كانت المدينة المنورة فالمحقق ان الصليبيين لم يصلوا الى ابوابها وكل ما كان من امر بعضهم ان فكروا في غزوها وان قام بحركة بسبيل ذلك وقفت في البلقاء حيث منيت قواه بالهزيمة .
المغرب

ولقد شغلت فرنسا في هذه الحملات المكان الاول ، ومنها بدرت بادرتها الاولى ، وكان ابناؤها يؤلفون الكتلة الكبرى فيها ، كما كان أكثر امراء الامارات اللاتينية التي قامت في الشرق الأدنى اثناءها من اشراف فرنسا . ومن اجل هذا قلنا تصح ان تعد اصلاً لجميع ما لنا من تقاليد وعقائد في آسيا الصغرى وسورية وفلسطين !! ولقد كانت نيات الاباطرة البيزنطيين السيئة عقبة دائمة في سبيل الصليبيين ونشاطهم والواقع ان هؤلاء كانوا يبغضون الرومانيين بقدر بغضهم للمسلمين ؛ حتى ان زعماء الحملة الصليبية الرابعة استولوا على القسطنطينية عام ١٢٠٤ بتشويق دوندولو ودوغو البندقي ، واقاموا فيها امبراطورية لاتينية ، واضطروا البيزنطيين الى الفرار منها ، فالتجأوا الى آسيا الصغرى وطربزون وايزنيق ؛ ولم يستطيعوا ان يأخذوا ثأرهم ، ويستردوا سيطرتهم ، ويعيدوا امبراطوريتهم الى الحياة مرة اخرى الا بعد نحو نصف قرن ١٢٦١ على يد احد زعمائهم ميخائيل باليولوغ وبمساعدة الجنويين منافسي البندقيين في التجارة ؛ على ان هذه الامبراطورية لم تستطع ان تسيطر الا على بضعة ولايات من آسيا الصغرى الى حين غير طويل . وقد انشأ امراء والفرنجة حينئذ امارات في اثينة والموره كان فيها ملجأ مؤقت لحضارتهم .

ولقد كانت حركة نيمورلنك التي ظهرت في القرن الخامس عشر ، والتي مكنته من السيطرة على حلب والشام ، والامتداد بعد ذلك الى انقره وازمير سبباً في توقف مؤقت لنشاط الترك العثمانيين الذين حلوا محل السلاجقة ؛ فلما فترت عيادوا الى نشاطهم الظافر حيث استولى محمد الثاني عام ١٤٥٣ على القسطنطينية ، وكان بذلك نهاية الامبراطورية الرومانية اليونانية ، ولم يمض طويل وقت على هذا الحادث حتى انهارت امارات الفرنجة في بلاد اليونان ايضاً ؛ وكل ما كان من امر ان جماعة فرسان القديس جان التي التجأت من فلسطين الى رودس والجماعات البندقية التي قامت في مجموعة جزر البحر الابيض المتوسط استطاعت ان تطيل حياتهما امداً آخر . ومهما يكن من امر فقد سد الترك العثمانيون الذين وطئوا اقدامهم على طرفي سواحل المضائق طريق آسيا في وجه الاوروبيين .

ولقد قتل الامبراطور قسطنطين دراغاميس آخر اباطرة بيزانطيه اثناء الدفاع عن

عاصمته ، ولم يترك خليفة الا ابنة اخيه صوفيسا باليولوغ التي تزوجت عام ١٤٧٢ قيصر روسيا ايفان الثالث ؛ فسارع هذا الى اعلان نفسه خليفة لامبراطور القسطنطينية ، واتخذ النسر ذي الرأسين شعاراً له ايذاناً بأنه اصبح حامي الدين الارثوذكسي وصاحب ثأره ، وصار هذا الحادث اصلاً من اصول المسئلة الشرقية الخطيرة التي واجهتها الدول .

— ٩ —

ولقد كان من نتائج الحروب الصليبية عودة الصلات الاقتصادية التي انقطعت منذ امد طويل بين الشرق والغرب من جديد ، وقد اتصلت الامارات النصرانية السورية بالامارات الاسلامية في سبيل التبادل التجاري ، واخذت تجار البندقية وجنوه وبيزه ومرسيليا ينشطون في مضمار الاخذ والعطاء مع موانئ الشرق الادنى نشاطاً قوياً . وقد نال دوندولو دوغو البندقي من الصليبيين مكافأة على ما اسداه من معونة في ضبط القسطنطينية سلسلة من المراكز في المورة والارخبيل ورودوس كانت كالحلقات المنظومة بين بحر الادرياتيك ومضيق البوسفور .

ولقد كان البندقيون اذ ذاك متوطنين في القسطنطينية بكثرة ، وقاضين على زمام تجارة الشرق ، فلما انتقم اليونانيون لانفسهم ، وهدموا الامبراطورية اللاتينية عام ١٢٦١ منحوا الجنوبيين بسبب مساعدتهم لهم ضاحية بيرا (١) واعفوه من كثير من الرسوم الجمركية ، وبذلك اصبحت الجمهورية الجنوبية صاحبة السيطرة على تجارة البحر الاسود ، فأنشأوا في القرم مركزى طانا وجافا التجاريين ، ولم تلبث ان اخذت تجري اليها انواع ومقادير كثيرة من السلع الاسيوية . وقد كانت هذه السلع ترد اما عن طريق الدجلة وارمينية وطربزون ، واما عن طريق تركستان وبحر الخزر وقازا واما عن طريق او كسوس واستراخان ونهرى الفولغا والدون . وفي تاريخ ١٣٧٣ استطاع الجنوبيون ان يتوطنوا في جزيرة قبرص ايضاً وبنفقوا بمنزلة ايجازو (اياس) الواقع في ساحل ارمينية الصغرى .

(١) الي اوغلو في القسطنطينية

ولقد انهمك البندقيون الذين طردوا من القسطنطينية في تجارة التوابل والاقاوية التي كانت متركزة في مصر ، حيث كان العرب يوردون الى مصر من جزر المولوك الفلفل والقرفة والزنجبيل وجوز الهند عن طريق البحر الاحمر . وكانت هذه الاصناف مرغوبة رغبة كبيرة لدى الاوربيين على الرغم من ارتفاع اسعارها . وقد استطاع البندقيون بعد ان نالوا اذنًا من البابا بالمشاركة مع الكفار (١) ان يعقدوا معاهدات تجارية مع هؤلاء عادت عليهم باعظم الفوائد ، وامكنهم بها اقامة قنصليات وبيوتاً تجارية في كل من الاسكندرية ودمشق .

ولقد حاولت جمهورية فلورنسا ان تنشئ علاقات تجارية مع الاسكندرية ، غير انها لم تستطع ان تنافس البندقية في هذا المضمار . وقد حاول كذلك جاك كورفي اوائل القرن الخامس عشر ان ينشئ في الشرق الادنى مراكز تجارية كما ان شارل السابع اوفد بتشويق هذا جان فيلاج لعقد اتفاق تجاري مع السودان المصري ، ولكن هذه المحاولات باءت بالاخفاق مع الاسف .

— ١٠ —

وقد كان فتح الترك العثمانيين للقسطنطينية عام ١٤٥٣ ضربة قاصمة للجمهورية الجنوبية . ولما لم تكن فرنسا ولا انكلترا ولا هولانده ولا البرتغال اذ ذاك في حالة تستطيع معها منافسة البندقيين منافسة قوية فان هؤلاء قد حصرروا في ايديهم تجارة البحر الابيض جميعه حصراً يكاد يكون تاماً .

ولقد كانت ثروة البندقية وبذخها مما يؤيد القصص المثيرة التي كان يقصها رجال البعثات التبشيرية والتجار الاوربيون الذين جرأوا على التوغل في قلب آسيا منذ بدء الحروب الصليبية . حيث كانوا يروون اخباراً عجيبة عن الثروات العظيمة التي كانت في بعض الاقاليم الاسيوية . وبهذا يسهل فهم اسباب المحاولات والجهود التي كانت تبذلها الامم الاوروبية الاخرى في سبيل الوصول الى الهند من الشرق او الغرب ، وفي سبيل اكتشاف طرق جديدة اليها ، وانزاع تجارتها من ايدي البندقيين .

(١) هذه الصفة كانت تطلق على المسلمين من قبل الصليبيين ونصارى اوروبا عامة .

وقد ذكر ماركو بولو حينما عاد من رحلته في اواخر القرن الخامس عشر ان المحيط الهندي لم يكن بحراً مقفولاً او مجهولاً ، وان فيه حركة تجارية كبرى تمتد الى الجزر الواقعة في انحاء الشرقية . كما ان بارتيلمي دياز وبدرودوجولام اللذين قاما برحلتها حوالي عام ١٤٨٧ قررا ان قارة افريقية مخاطة بالبحر من جميع اطرافها . وهذه المعلومات هي التي ألهمت فاسكودوغاما ومكنته من الرحلة الى الهند عن طريق رأس الرجاء . وقد اخذ معه حينما نزل الى ساحل الموزامبيك ادلاء من العرب فاوصلوه في الخامس والعشرين من شهر مايس لعام ١٤٩٨ الى كلكتوة الهند . (١)

ولقد احدثت رحلة فاسكو دوغاما هذه انقلاباً عظيماً في صلات اوروبا بآسيا . والواقع ان البرتغاليين قد حاولوا ان يفرضوا انفسهم كاصحاب حق احتكار السيطرة على اراضي وتجارة البلاد التي اكتشفوها ، وان يقبضوا على زمام التجارة في جميع بلاد الفرس والهند . وان يحولوا مجراها الى لشبونة عن طريق المحيط الهندي . ولقد

(١) قال انابليس دودياب ان القبطان النورمندي قوسين قد دار حول رأس الرجاء ايضا عام ١٤٨٨ بل انه وصل الى الهند قبل وصول فاسكو دوغاما اليها بسبع سنين . ولقد رحل بينوت بوليه جونفيل على مركب تجاري من هونتلور عام ١٥٠٣ ودار حول هذا الرأس ايضا ونزل الى ارض مجهولة بسبب عاصفة هوجاء ثارت في وجهه بعد منطقة مياه هذا الرأس ، وليث فيها نحو ستة اشهر ثم عاد الى فرنسه واحضر معه ابن ملك تلك الارض ، وقد لقي ترحيباً وحفاوة من اهلها . وهذه الارض المجهولة ليست سوى استراليا او هولاندة الجديدة كما سميت من قبل . كذلك فان جان بارماتيه البحر هو واخوه راثل على مركب ساقريانس في الثاني من شهر نيسان لعام ١٥٢٩ من ميناء دياب متجهين نحو ارخيل المحيط الهندي ولم يترل الا في ماداغاسقار للاستقاء* ثم تابع رحلته ووصل في التاسع والعشرين من شهر تشرين الاول من نفس العام الى نيوقوا في جزيرة سومطره .

فلا يستطيع احد من الامم الاوروبية والحالة هذه - باستثناء البرتغال - ان ينازع الافرنسيين اولية السبق الى الرحلات في المحيط الهندي . فلانكايون لم يصلوا الى تلك الاعالي عام ١٥٩١ وقد دار لابناستر قبطان المركب بنيلوب احد مراكب الرحلة الانكليزية هذه في شهر مايس عام ١٥٩٢ حول رأس قومورين . والهولنديون لم يتركوا هذه البحار الا عام ١٥٩٥ بقيادة فورتيل هارنان .

كان من شأن تنفيذ هذه الخطة القضاء على البندقيين قضاءً مبرماً كما كان من شأنه ان يقضي على التجار العرب والمصريين الذين كانوا الى ذلك الوقت الوسطاء الوحيدين بين الشرق والغرب .

وقد حاول الامراء العرب ان يدافعوا عن مصالحهم المهددة بعزم ومضاء ، ففتح عن هذا ان تمكن البرتغاليون من ضبط مسقط وجزيرة سوقطرا في سنة ١٥٠٦ ومن فرض الجزية على سلطان هرمز في سنة ١٥٠٧ .

وقد هدد سلطان مصر بتحريض البندقيين البابا وملك البرتغال بقتل جميع النصارى وحرق القبر المقدس وتخريب المقامات المباركة في الارض المقدسة اذا استمر البرتغاليون في خطتهم ، فلم يجد هذا التهديد نفعاً ، وحينئذ هب البندقيون المصريون جميع ما يلزم لصنع اسطول وتسييره في البحر الاحمر . غير ان هذا الاسطول لم يعم ان اييد في المعركة التي وقعت بينه وبين اسطول فرانسوا دالميدا في ربوع عام ١٥٠٩ ، ثم ضرب البرتغاليون الحصار على معابر البحر الاحمر وخليج البصرة ، غير انهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على عدن ، ولا من الدخول الى البحر الاحمر بسبب الرياح المخالفة ، وقد احتل البحارة الذين هم تحت قيادة ابو قروق (البوكر) سوقوطرا عام ١٥١٣ وهرمز عام ١٥١٥ (١) ، وقد كانت غوا في ذلك الحين

(١) يقال انه كان لابي قروق خطتان كبيرتان اولاهما بناها على ما رآه من احتمال نجاح البندقيين عاجلاً او آجلاً في تحويل مجرى تجارة الهند الى طريق الاسكندرية ومن تعريضهم البرابرة ومساعدتهم ايام على البرتغاليين ، فالتجه نحو امبراطور الحبشة يخوفه من جيرانه الاقوياء ويعرضه على تغيير مجرى النيل بفتح قناة ينصب منها في البحر قبل دخوله الاراضي المصرية ليكون بذلك في مأمن من خطر اولئك الجيران ، وحينئذ لا يبقى امكان لنقل السلع الهندية من البحر الاحمر الى الاسكندرية ، ويبقى البرتغاليون قابضين على زمام التجارة وحدهم بسبب سيطرتهم على معابر المحيط الهندي .

اما الخطة الثانية فهي تجييز ثلاثمائة فارس وتسييرهم من هرمز التي لا تبعد عن بلاد العرب الا نحو سبعين فرسخاً - الى مكة لنهب قبر محمد وتخريبه ، وهذه الخطة بالاضافة الى ما سوف يعود عليه منها من ثروة عظيمة فاتحا تستهدف ابطال الحج وقطع التجارة الفاخرة بين

مركز الامبراطورية البرتغالية الهندية . وحوالي عام ١٥٣٠ م سوزاتا واديس
بالبصرة وقد تمكن اسطفان دوغاما وجن واسترو بعد مدة غير طويلة اي عام ١٥٤١ م
عبور البحر الاحمر والتقدم فيه الى منتهاه الشمالي ، وان لم يستطيعا الاستيلاء على
السويس .

ومن النقاط الجديرة بالذكر ما قام به البرتغاليون من محاولات في سبيل وصل
امبراطوريتهم الاسيوية بوطنهم الالم برأ بوسائط المراسلة السريعة كما كان الامر في
الازمنة المتقدمة . فقد سبروا الى هرمز عام ١٥٢٨ انطونيو ترينجي برسائل مهمة الى
ملك البرتغال عن طريق بادية الشام ، ولقد جاء هذا الساعي الى البصرة ثم اجتاز
البادية ووصل الى طرابلس الشام . ومنها ابحر الى لشبونة . وقد قام برحلته هذه على
الجمال مستعيناً ببوصلة كانت معه وبديل عربي استصعبه .

— ١١ —

لم تدم الامبراطورية الواسعة التي انشأها البرتغاليون في آسيا لهم طويلاً . لأنها لم
تكن متناسبة مع ما كان يملكه الوطن الالم من وسائل ومنايع . ثم ضاع استقلالهم
في هذا الوطن ايضاً حينما ضمت اسبانيا البرتغال اليها عام ١٥٨٠ . ومنذئذ اخذت تجارة
المحيط الهندي تنتقل تدريجاً الى ايدي الهولانديين ، وقد وجه هؤلاء اكبر همهم الى
بلاد الهند وخاصة ابيدوسيا .

على انه لم يمض طويل وقت حتى اخذ الانكليز والافرنسيون ينافسون منشآت
الهولانديين التجارية في خليج البصرة ، ولم يلبث ان صار هذا مبدء التنافس الذي
قام بين فرنسا وانكلترا على الطرق التجارية للشرق الادنى .
ولقد كان من المقدر لهذا التنافس ان يطول ويشدد ، وهذا ما سوف نستعرضه
في الفصول الآتية .

الهند وبلاد العرب بسببه وحصر منابع الثروة والغنى في الامة البرتغالية .
المؤلف .
ولسنا ندري هل المؤلف ينقل المزعوم على علانه او انه هو الذي يعال هذه التعليقات
والنتائج ، وان تكن الاخرى ففيها ما فيها من دلالة على الجهل الفاضح . . العرب

الفصل الثاني

بدء التنافس بين فرنسا وإنكلترا

ان وزراء جلالتهم يجب ان لا ينسوا في اي وقت المبدأ
الناظم للسياسة الانكليزية ، وهو مبدأ المدير وان الشيء
الوحيد الذي يمكن ان يثير خوف إنكلترا في هذه
الدنيا هو رؤية فرنسا دولة ذات مستعمرات بحرية وتجارية
من خطاب النورده شاتام في كانون الاول لعام ١٧٦٣

الامتيازات وتجارة الشرق الادنى - شركات الهند الشرقية الكبرى - تجارة الهند - امتداد
نظر فرنسا الى الطرق التجارية في البحر الاحمر وخليج البصرة - المعاهدات مع امراء مصر -
خطورة الاتصال السريع بالهند لدى إنكلترا - حملة نابليون .

— ١ —

كان اكتشاف طريق رأس الرجاء سبباً في ابعاد سلع الهند واندوسيا عن البحر
الاحمر وخليج البصرة . غير ان غلات ايران وآسيا وسلعها ظلت ترد الى تركيا بواسطة
القوافل البرية .

ولقد اهتم فرانسوا الاول لنيل نصيب كبير لفرنسا في تجارة الشرق ، فعهد الى
جان دو لاكوريست بالقيام بالمفاوضات والمسااعي مع السلطان سليمان القانوني عام ١٥٣٥
للحصول على اول امتياز نالته فرنسا في الدولة العثمانية ، وقد حالف النجاح المفاوضات
الافرنسي فوطد لنا هذا الامتياز والامتيازات الاخرى التي حصل عليها عامي ١٥٤٣ و
١٥٥٤ كتمتمة للاول حق التفوق والرجحان في موانئ الشرق الادنى على جميع
الاجانب باستثناء البندقيين ، حتي انه لم يكن لاي سفينة اجنبية ان تزور احدى هذه

الموانيء الا تحت الراية الافرنسية . وقد سارع تجار مرسيليا الى اقامة المحلات التجارية في حلب واسكندرون وطرابلس الشام وعكا وحيفا ومصر والتوطن فيها للاستمتاع بفوائد هذه الامتيازات ✕

على ان الانكليز لم يلبثوا ان دخلوا البحر الابيض ، وان انشأوا قنصلية لهم في الاستانة ، ولم يمض طويل وقت حتي حصل الفصل الانكليزي من الباب العالي على امتيازات في اراضي الدولة وكان ذلك عام ١٥٥٩ ، وقد كانت في النطاق التجاري مشابهة للامتيازات الافرنسية ، غير انه اشترط على السفن الانكليزية ان تقوم برحلاتها البحرية تحت الراية الافرنسية . وقد كان هذا الشرط من الاسباب القديمة للتنافس الافرنسي — الانكليزي ؛ وصار اكبر عم الانكليز ان يتفلسفوا منه ، ومنذ اواخر القرن السادس عشر اخذوا يملونه ؛ ثم لم يعم النفوذ الانكليزي ان اخذ يزداد في الاستانة على حساب النفوذ الافرنسي . وكان السبب لذلك ما وقع من الفتور في الصلات السياسية بين تركية وفرنسة في عهد لويس الثالث عشر والسنين الاولى من عهد لويس الرابع عشر .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فانه كان من نتائج تأسيس الشركة الانكليزية للشرق الادني ان اخذ نشاط انكليز التجارة يتسع ويزداد في موانئ هذا الشرق . وكانت الملكة الیصابات هي التي انشأت هذه الشركة سنة ١٥٨١ ، فصار جيراننا يزاحموننا مزاحمة شديدة في حلب وطرابلس ، وأن تركوا لنا الميدان في صيدا وعكا ويافا .

وفي عام ١٦١٢ حصلت هولاندا على امتيازات في الدولة العثمانية ، فسارعت حينئذ الى انشاء شركة الشرق . وقد تعاونت هذه الشركة مع الشركة الانكليزية على النضال ضد القرصنة ، واخذتا تسيران مراكبهما بين ليفورن وازمير في قوافل محمية .

وقد انعدم تقريباً خطر البندقين كزاحين في هذا الدور . فهم فضلا عن انهم لم يبق لهم ذلك التحكم السابق في الموقف فان نشاطهم التجاري خار وانحط بسرعة بعد الهزيمة التي ازلها بهم لويس الثاني عشر في أغناديل عام ١٥٠٩ .

— ٢ —

وبعد أن ضمت إسبانيا البرتغال اليها في عام ١٥٨٠ انتقلت التجارة بين أوروبا وآسيا عن طريق رأس الرجاء والمحيط الهندي إلى الشركات الاستعمارية الكبرى الهولندية والانكليزية والفرنسية .

والشركة « الهولندية الهندية الشرقية » انشئت سنة ١٦٠٢ ، واهتمت أكثر ما يكون بأندونيسيا حيث أقامت فيها منشآت تجارية واسعة ، ولم تر سفنها في خليج البصرة إلا عام ١٦٢٣ ، حيث نالت من سلطان إيران اذنًا بفتح وكالة لها في هرمز ، وقد نقلت هذه الوكالة بعد زمن قصير إلى بندر عباس ثم ذهب في تاريخ ١٦٥٢ وتاريخ ١٦٦٦ سفراء هولنديون إلى أصفهان ونالوا امتيازات تجارية كبرى ولم تلبث التجارة الهولندية أن تركزت في خليج البصرة وخاصة في البصرة وجزيرة قاروا وبندر دليم وبندر ربيع وقون .

وقد دبت الفيرة في التجار الانكليز من نجاح البرتغاليين فرحلوا في القرن السادس عشر إلى الهند بطريق خليج البصرة ، وكان من نتائج رحلات كل من توماس اسطفانس ، وجون نيوبري ، ورااف فيتس ، وويليام ليدس ، وجس ستورى أن انشأت المملكة اليمصبات الشركة الهندية الشرقية عام ١٦٠٠ .

ولقد زار شاربينغ قائد السفينة الانكليزية اسنسيون لأول مرة في ذلك العهد ثم مخا واغضب بزيارته باشا صنعاء غضباً عظيماً حتى شكاه إلى الباب العالي . وفي عام ١٦١٠ جاء السير هنري ميدلتون إلى عدن وأقام فيها بعض الوقت ثم مر بمخا أيضاً وبعد قليل اتجهت أنظار الانكليز إلى إيران ، واستطاعوا أن يعقدوا عام ١٦١٧ ولأول مرة مع سلطانها معاهدة تجارية ، وأن يؤسسوا في أصفهان مركزاً تجارياً ، ثم انشأوا عام ١٦١٩ مركزاً آخر في جاسك الواقعة في فم خليج البصرة (١) ؛ وبعد ثلاث سنين تعاونوا مع الإيرانيين على طرد البرتغاليين من هرمز . وقد انشأوا في هذا الدور مركزاً جديداً في بندر عباس ، ثم انشأوا مركزاً في البصرة عام ١٧٣٨ ومركزاً آخر في بوشير عام ١٧٦٣ .

أما نحن الافرنسيين فقد تأخرنا في هذا المضمار بسبب الحروب التي اشتبكنا فيها

(١) هي في الساحل الإيراني قرب مضيق هرمز .

وعلى الرغم من مساعي هنري الرابع سنة ١٦٠٤ ورشيليو سنة ١٦٤٢ فإن الشركة
الافرنسية الشرقية الهندية لم تتأسس الا سنة ١٦٦٤ ، ولم تستقر في الهند الا بعد
اربع سنين من هذا التاريخ ، وفي السنة التالية لاستقرارها عبرت ثلاث من سفنها
خليج البصرة ، ووصلت الى ثغره الكبير .

ولقد لفت الرهبان الكبوشيون والمبشرون الكرمليون الموجودون في بغداد
انظار فرنسة في مبادئ القرن السابع عشر ، فلم يعض وقت طويل حتي هب
لهؤلاء ان يوطدوا اقدامهم في اصفهان وهرمز والبصرة نتيجة لاتفاق تم بين لويس
الثالث عشر وشاه ايران ، وكان ذلك في سنتي ١٦٠٨ ، ١٦١٢ ، ١٦٢٣ ، بل لقد
فكر ريشيليو في تفويض هؤلاء الرهبان ببذل المساعي واجراء المفاوضات في استملاك
هرمز لحساب الدولة ، غير انه عدل عن ذلك اكتفاء بالمراسلات الودية التي جرت
بين لويس الثالث عشر والشاه .

ولقد انشأ جولبرت مع بلاط الشاه صلات حسنة استمرت طويلا ، وارسلت الشركة
الهندية الشرقية الافرنسية عام ١٦٦٤ اي عام انشائها بعثة الى طهران بطريق حلب ،
كما ان كثيراً من السياح الافرنسيين زاروا ايران في النصف الثاني من عهد لويس
الثالث عشر ، فخص بالذكر منهم جان دوتيفنون وشاردين وماوارنيه وبيكه وجان
فابرو وميشيل وبول لوقاس ، وكان للبعثات التبشيرية الافرنسية خدمات جلي انتفع بها
مواطنونا كثيراً ، ومما يستحق التخصيص بالذكر خدمات البعثة الكرملية في
البصرة ، وقد شغل رئيسها من سنة ١٦٧٧ الى سنة ١٧٤٣ وظيفة القنصل الافرنسي
بصفة رسمية .

ومن ناحية اخرى فإن شاه ايران اوفد بعثة سياسية الى بلاط فرساي ، وانشأ
قنصلية ايرانية في مارسيليا ، وعينت فرنسة قنصلا لها في اصفهان . وكان من آثار هذه
الصلات والمظاهر الودية ان نالت شركتنا الهندية امتيازات عظيمة النفع ، وان عقدت
بين الشركة وايران في سنتي ١٧٠٨ و ١٧١٥ معاهدات تجارية رابحة .

ولقد انطلقت الصلات الحسنة التي توطدت بيننا وبين ايران بالرجال جيراننا
الانكليز غير ان الزحف الافغاني عام ١٧٢٢ لم يبق مجالاً للقلق وما يترتب عليه ،

لان الاوربيين جميعاً اضطروا الى ترك اصفهان والنجف الى بندر عباس ، وقد وحّد الحادّث بين مصالح الافرنسيين والانكليز الى حين .

— ٣ —

وقد شمل التزاحم التجاري بين انكلترا وفرنسة اليمن ايضاً فيما شمل . فقد ظهر فيها منبع رُوة جديدة بالتّساع تجارة البن فيها . ولقد اخذ الناس في مصر وسورية وسائر انحاء تركيا في العصر السادس عشر يستعملون القهوة ، ولم تلبث اوروبا ان حذت حذوهم منذ سنة ١٦٥٠ . وقد كانت تجارة البن من اجل ذلك رابحة جداً . فصارت مجال تزاحم شديد بين الافرنسيين والانكليز والهولانديين .

وقد كانت سفن الشركات الهولاندية والانكليزية تشحن البن رأساً من موانئ بلاد العربية السعيدة وخاصة من مخا وتأتي به الى اوروبا عن طريق رأس الرجاء ، في حين كان تجار مرسيليا في الاسكندرية يتناولونه بواسطة القوافل ، وكانت ارباحهم فيه زهيدة بسبب تعدد الايدي المتوسطة . وقد كان الافرنسيون يبذلون جهدهم في سحب جميع محصول البن الى الاسكندرية وحصره في ايديهم ، بينما كان اولئك يعملون كل ما في وسعهم في اخذه من موانئ اليمن ؛ ومنع تسرب اي شيء منه الى البحر الابيض .

وقد انشأ اصحاب السفن في سان مالو شركة للتجارة بالبن عن طريق رأس الرجاء للتخلص من الرسوم الجمركية الباهظة التي كانت تنقضاها مصر ، وقامت سفن هذه الشركة بقيادة القبطان بيريفيل في تاريخ ١٧٠٨ — ١٧١٠ برحلتها الاولى الى عدن ومخا ، وفي السنين التالية جاءت بعثة مؤلفة من بعض دكاترة مؤسساتنا الهندية برئاسة الدكتور غريلوريه الى مأرب ، وذهبت الى زيارة امام اليمن ، وقامت بمساع انتهت الى عقد معاهدة تجارية بيننا وبين والي مخا ، وقد اخل العرب بشروط هذه المعاهدة ولم يرعوها فسيرت شركة سن مالو عام ١٧٣٧ بعثة عسكرية بقيادة غاردجازه للتشكيل بهم ، وكان من نتيجة ذلك ان اضطر الامام الى توقيع معاهدة جديدة اصبح لنا بها حق الاتجار في انحاء اليمن بعد ان كان محصوراً في مخا .

على ان التزاحم على تجارة البن لم يستمر طويلا بين انكلترا وفرنسة . فقد اهتمت كلتاها لزراعته في مستعمراتها ، وما ان بدت تبشير نجاح هذه الزراعة حتى فتر ذلك التزاحم .

— ٤ —

لم يكن جولبرت وهو يضع نظام شركة الهند الشرقية يمني نفسه بأمال كبيرة في مزاحمة ناجحة ومؤثرة للانكليز والهولانديين من طريق رأس الرجاء ، لانه كان مدركا لما كانت عليه شركاتهم من قوة ، وما كان لها من تشكيلات واسعة ، ثم ما كانت قد اكتسبته من خبرة التقدم . وقد حدا هذا به الى التفكير في تحويل تجارة آسيا الى طريق مصر والبحر الابيض لمصلحة فرنسة ، وانتزاع احتكارها من ايدي اولئك وكانت خطته تقوم على اساس مفاوضة الباب العالي واخذ موافقته على فتح ميناء السويس للتجارة ، حيث كانت محرومة بالكلية على الاوروبيين بسبب قربها من المدن الاسلامية المقدسة ، والخطوة ان تشحن سفن شركتنا الهندية سلع آسيا وغلاتها الى هذا الميناء ثم تنقل منها الى الاسكندرية بواسطة القوافل ، ومن ثم تشحن على سفن شركة افرنسية اخرى اسمها شركة الشرق ايضا ، وتورد الى جميع انحاء اوروبا بطريق البحر الابيض غير ان خطة جولبرت هذه لم تقتن بنجاح رغم المساعي المتواصلة التي قام بها كل من سفيرينا لاهاي وانتله ونوانثيل في سنتي ١٦٦٥ و ١٦٧٦ في الاستانة . ولقد اعاد سنيلاي الكرة بواسطة جيراردن فذهب سعيه سدى كذلك . وحينئذ خطر ببال الوزير الافرنسي فكرة فتح قناة السويس كما فكر بونشارترين في مشروع اقامة ميناء حبشي على البحر الاحمر بدلا من ميناء السويس على اساس وصله بالاسكندرية بطريق النيل ، وارسل لهذا المقصد بونوادوميليه الى القاهرة ولونوار دوروله الى النجاشي . ونما فكر فيه حينئذ فتح مصر ايضا . فقد اكد ليمتز في مذكرة قدمها الى لويس الرابع عشر وظلت سرا امدأ طويلا ان من شأن الاستيلاء على مصر ان ييسر النقل السريع بيننا وبين الانحاء الاسيوية الغنية ، وان يوحد تجارة الهند مع تجارة فرنسة ، وان يفتح لكبار قوادنا الطريق الى فتوحات

عظمى قد تحيي ذكرى فتوحات الاسكندر وتشابهها .
ولقد حرص رجال لويس الخامس عشر في اوائل عهده على الاستمرار على الجدد الذي كان يبذله وزراء لويس الرابع عشر في سبيل تبسط فرنسا في الشرق الادنى .
وكانت جهود ماري العظيمة في عهد سفارته اللامع في الاستانة — وقد امتد من سنة ١٧٢٨ الى ١٧٤١ — موجهة بنوع خاص الى ذلك الهدف الذي كان رئيسيا في سياستنا الشرقية . وقد استطاع هذا السفير في سنة (١٧٤٠) ان يحدد ويوطد امتيازاتنا السابقة .

وبعد توقيع معاهدة ١٧٦٣ التي سجلت نكبتنا الهندية حاول دوق دوبراسلين ان يعود الى خطة جوليبرت وان يأخذ بثأر فرنسا من انكلترا . ولما كان مقتنعا بأن جواب الباب العالي على طلب فتح قناة السويس والبحر الاحمر لن يكون الا رفضا فقد وجه انظاره الى خليج البصرة وبادية الشام ، حيث تراءى له ان الظروف قد تكون ملائمة حيث كان السكون قد عاد الى العراق بعد ان انتهت الحرب التركية الايرانية . وقد نتج عن هذه المحاولة ان نال بطريرك بغداد موافقة الباشا على سياستنا الجديدة ، واعطيت التعليمات اللازمة الى تبرو دوبرديان فنصلنا في حلب . ومع كل هذا فقد باء هذا المشروع بالخيبة ايضا لأن العرفة التجارية في مرسيليا اكدت بان نفقة نقل السلع من طريق البصرة وحلب باهظة جداً . وحينئذ حول الدوق انظاره ثانية الى البحر الاحمر ، ولكنه اصطدم هنا ولأول مرة بالنفوذ الانكليزي . وممنئذ صارت مصر موضوع تشاد وتزاحم رئيسي بين فرنسا وانكلترا في سياسة الشرق الادنى وظلت محتفظة بهذه الصفة .

— ٥ —

ولم يكن لمصر الى ذلك الوقت في السياسة الانكليزية الا مركز ثانوي ، حتى انه لم يكن لانكلترا فئصل فيها الى سنة ١٧٥٦ . ذلك لان خطط جوليبرت واخلافه ظلت سرية فلم يطرأ على جيراننا وراء المائش قلق ووسواس ، وكان جل اعتمادهم من ناحية اخرى على ما كان لشركتهم الهندية من احتكار حيث كانوا يقومون بنقلاتهم التجارية والعسكرية والبريدية عن طريق المحيطات فحسب .

ولقد انكشفت خططنا ومطامعنا في مصر بسبب مذكرات بوناردو ميليه التي نشرها
الاب ستريه سنة ١٧٣٥ فنبهت بعض الاستعماريين الانكليز حيث ادر كوا حينئذ خطورة
مركز مصر بالنسبة لطريق الهند ، وقدروا ما يمكن ان يحدق بالتجارة الانكليزية
من اخطار اذا ما صار لفرنسة نفوذ وسيطرة على برزخ السويس ، واقتنعوا بوجوب
الاستعجال والتقدم على فرنسا في السياسة المصرية ، وكان من رأيهم ان تسارع
حكومة لندن الى عقد اتفاقات مع امراء مصر مباشرة وتصديقها من حكومة الاستانة .
ولقد قام جيمس بروسي عام ١٧٧٣ برحلة الى مصر فلفت نظر رجال الشركة
الهندية الانكليزية الى ما يمكن ان يعود على انكثرة من فوائد من فتح قناة السويس
وقد عقد هو نفسه اتفاقاً مؤقتاً مع الامير ابي الذهب وثق ووسع بمعاودة رسمية
وقعت بين الامير علي بك من جانب ووالي بنغاله من جانب آخر في ٧ مارس ١٧٧٥
وكان ما تضمنته هذه المعاهدة تخفيض الرسوم الجمركية التي تتقاضاها مصر في
السويس من السلع الهندية واعفاء الغلات المصرية المصدرة الى انكثرة من الرسوم
وتسهيل النقل التجاري بين الطور اي السويس والقاهرة وحمايته . وقد استقر بعد
ذلك جورج بلديون احد عمال الشركة الهندية الانكليزية في مصر للاشراف على
الشؤون التجارية الهندية — الانكليزية . وصار هذا منذئذ بطل النفوذ البريطاني في
مصر وعدو فرنسا للدود .

على ان حكومة لندن وادارة شركة الهند لم تتسرعوا في الاستجابة الى مقترحات
بروسي ووارن هاستينغز وبلديون وآرائهم . كما ان السير ايسلي سفير بريطانيا في
الاستانة ايضاً لم يرتج اليها خشية معارضة الباب العالي وشريف مكة ، ولم يلبث ان
صدرت فرامانات سلطانية من الاستانة ، واوامر قاطعة من لندن بمنع السفن الانكليزية
من الاتجار بين جدة والسويس .

ولقد كانت الامبراطورية العثمانية في هذا الدور في الرمق الاخير من التدهور
والانحطاط . وكانت الحرب الروسية ١٧٦٨ — ١٧٧٤ من جهة وثورة الضاهر (١)

(١) الضاهر زعيم فلسطين كان في الناصرة وعلي بك هو احد امراء المالك الذي كان
صاحب الكرامة والسيطرة في مصر وقد اتفقا وتضامنا في الثورة ضد الدولة بسيل ساخ قطري
الشام ومصر واستقلهما .
المعرب

والامير علي بك من جهة اخرى بمثابة نذر باقتراب دقات حياتها الاخيرة . ولم يسع
فرنسة بطبيعة الحال ان تقف غير آبهة لما كان من احتمال تقسيمها القريب بين دولتي
روسية والنمسا ، وكان عليها ان تختار بين الاسراع في امداد الدولة ودعمها او الاشتراك
في تقسيمها ، وكان من الملحوظ في الحالة الثانية ان تكون سورية ومصر حصّة
فرنسة . وبسبيل ذلك عهد الى البارون دونوت في تاريخ ١٧٧٤ بالقيام برحلة ظاهرها
تفتيش القنصليات الافرنسية في الشرق الادني وباطنها درس وسائل امكانيات فتح مصر
او النزول الى سواحل سورية والاستقرار فيها . وحينما عاد من الرحلة قدم مخططاً
مفصلاً لمرافأ بيروت كما أكد امكان نجاح غزوة عسكرية على الاسكندرية على شرط
ان تكون جزيرة كريد قاعدة للحركة . غير ان الحرب الاميركية حولت انظارنا
الى اتجاه آخر .

وعقب معاهدة فرساي ٢٠ كانون ثاني ١٧٨٣ وجه المارشال دوغاستري نظرة
ثانية الى خطط جولبرت التي صارت خططاً تقليدية لفرنسة . وقد رأى ان لا يرجع
في بادىء الامر الى الباب العالي لنيل موافقته ؛ وان يدخل في مفاوضات مباشرة
مع امراء مصر . ولقد نجح الشفاليه دوتروكيه الذي اوفده سفيرنا في الاستانة الى
مصر في عقد معاهدة مع الامراء في تاريخ ١٠ كانون ثاني لعام ١٧٨٥ ضمنت لنا
التسهيلات والفوائد التي ضمنتها المعاهدة الانكليزية المعقودة عام ١٧٧٥ والتي اشرنا اليها من قبل .
على ان فرنسة لم تنتفع بهذه المعاهدة قط بسبب خصومة انكلتره ودسائسها وعدم
موافقة السلطان عليها ، واعتراض شركة الهند وتردد قصر فرساي وتلكؤه .

— ٦ —

ومنذ الحرب الاميركية طرأ على سياسة انكلتره الشرقية تبدل كبير ، فقد اثبتت
الاحداث المختلفة لحكومة لندن بصورة قاطعة وجوب الاتصال السريع بين الهند وانكلترا .
على ان هذه الفكرة ليست جديدة . فقد وردت على البرتغاليين منذ القرن الرابع
عشر حينما سيطروا على هرمز . كما اننا فكرنا فيها نحن ايضاً وبحسنها بواسطة بعثاتنا
التبشيرية التي كانت في العراق وايران . كذلك فقد فكر الانكليز فيها منذ بدء

التزاع بيننا وبينهم على الهند؛ غير ان التعصب الاسلامي الذي كان من نتيجته جعل قسم من البحر الاحمر مقفولا في وجه الاوروبيين جعل بريطانيا توجه انظارها وجهودها الى خليج البصرة بنوع خاص .

وقد عبر ضابطان من ضباط الشركة الهندية وهما بلستيد واليوت في سنة ١٧٥٠ الصحراء بين البصرة وحلب بطريقين مختلفتين احدهما الصحراء الكبرى وثانيتهما الصحراء الصغرى . ولما عادا اقترحا انشاء رحلة بريدية منتظمة . وكان وارن هاستينغس والي بنغالة قد عقد في سنة ١٧٧٥ مع امراء مصر معاهدته التي كفلت مرور البريد الانكليزي بحرية من الارض المصرية : فاعتبر هذا حلا للسألة واكتفي به . غير ان عدم رعاية المعاهدة وتنفيذها كما ينبغي جعل حكومة انكلترة وشركة الهند تعودان الى المسئلة من جديد . وقد تحول السيرايرون في سنتي ١٧٨٠ و ١٧٨١ بين البحر الاحمر وخليج البصرة وجاس طرقها ، ولما عاد قرر رجحان طريق البحر الاحمر ، واكد خاصة رجحان ميناء القصير على ميناء السويس ودعا اليه .

ولقد نشر جيمس جابر سنة ١٧٨٤ كتابا ضمنه حكاية عبوره بادية الشام سنة ١٧٧٨ ، وانحى فيه باللائمة على التهاون في أمر معاهدة سنة ١٧٧٥ ، واكد هو الآخر رجحان طريق البحر الاحمر على طريق خليج البصرة وضرورتها لانكلترة للاتصال السريع بينها وبين الهند . وقد ذكر في كتابه باحداث وقعت في ظروف الحرب الاميركية تصح ان تكون درساً فقال ان بلديون استطاع في بدء هذه الحرب وبفضل طريق البحر الاحمر ان يصدر اوامره الى والي بنغاله بالهجوم على بوند يشيري قبل ان يأخذ الافرنسيون خبر نشوبها ، في حين انه حينما عقدت معاهدة فرساي في تاريخ ٢٠ كانون الثاني لعام ١٧٨٣ لم يكن البريد يسير بين اوربا والهند في هذه الطريق فلم يصل الكتاب الرسمي الذي يحمل خبر انتهاء الحرب الذي ارسل في مركب سار في طريق رأس الرجاء الا في شهر تموز ، وانه وقع بين ١٣ و ٢٥ حزيران معركة ذهب فيها ١٨٠٠ انكليزي كانت دماؤهم تحقن ونكبتهم تنفادى لو وصل خبر عقد الصلح الى الفريقين المتقاتلين قبل ذلك .

ومن السهل بعد هذا تخمين ما طرأ على الرأي العام الانكليزي من القلق الشديد

في عام ١٧٨٦ حينما سمع بما كان من نجاح الافرنسيين في عقد معاهدة سنة ١٧٨٥ مع المصريين . فقررت حكومة لندن إعادة تأسيس قنصليتها في القاهرة فوراً ، وعينت بلديون خصم فرنسة المعهود ، واكدت عليه وجوب فتح طريق البحر الاحمر لمواصلات الهند مها كلفه الأمر . وكانت الخطة ان يدخل الممثل الانكليزي في اقرب وقت ممكن في المفاوضات مع امراء مصر لاجل عقد معاهدة ، وان يكون بنوع خاص حاضرا دون نشاط الافرنسيين ومساعدتهم المتنوعة في مصر .

وفي نفس الوقت اخذ الانكليز يفكرون في خطة لنقل البريد تقوم على اساس قيام سفنهم برحلاتها بين البندقية والاسكندرية من جهة وبين الهند والسويس من جهة أخرى ، وان تكون الطريق التي يسار فيها في ارض مصر طريق الاسكندرية — القاهرة والسويس . وكان من الخطة الى جانب هذا ان ترسل نسخ ثانية من الرسائل بطريق غزة فالطور فجده ، وان تمر السفن الانكليزية بها في عودتها من السويس . اما البريد من الجانب الهندي فيوجه مباشرة الى السويس . على ان ترسل نسخه الثانية الى القصير ، ومن هنا الى الاسكندرية بطريق النيل . وقد هيأت حكومة لندن ما يلزم لتأسيس هذا الاتصال البريدي بين لندن والهند لطيلة سنة كاملة .

على ان الحالة في مصر لم تبقى في هذا الطرف على ما كانت عليه ، فقد سير الباب العالي قبطان باشا الى مصر لاختاد الثورة التي اوقد نارها الامراء واعادة الامن الى نصابه ، وبسبب ذلك لم يستطع بلديون تنفيذ التعليمات التي تلقاها من حكومته ، فاقترض الامر ايجاد طريقة اخرى لتأمين البريد بين انكلترا والهند . وقد سار توماس هوفيل سنة ١٧٨٨ في طريق جديدة الى العراق من الاناضول ، وفي السنة التالية سار المقدم تيلور من حلب الى البصرة معقبا جناح الفرات الايمن ، ولما وصل الى بنغاله قدم لرؤسائه تقريرا مفصلا اقترح فيه بعد المقايسة بين طرق البحر الاحمر وخليج البصرة انشاء رحلة بريدية منتظمة في البحر الاحمر ، وضبط جزيرة كريد او جزيرة قبرص من قبل انكلترا ، مع ترجيحه كريد من الوجهة الجغرافية ، وكان من رأيه ان تكون بريطانيا حاکمة على طريق الفرات وطريق السويس في آن واحد . وفي عام ١٧٩٤ تمكن جورج بلديون من الحصول على توقيع الامراء على المعاهدة

التي اهتم لها اعظم اهتمام ولاحقها بثبات وعناد طيلة السنين الكثيرة غير انها جاءت متأخرة جداً ، لان حكومة لندن كانت نفضت يدها من خطة الاتصال عن هذه الطريق بسبب الاضطرابات والمشاكل المستمرة في مصر ، وكان لانقطاع الصلات السياسية بين فرنسا وبريطانية اثر ما في هذا ايضاً .

— ٧ —

على ان المصالح الافرنسية قد تضررت هي الاخرى كثيراً في وادي النيل في هذا الدور . فقد كان صدى ثورة ١٨٧٩ هنا قويا جدا ايضاً ، حتى ان قنصلنا في القاهرة شارل ماغالون ومواطنينا اضطروا الى الالتجاء الى الاسكندرية سنة ١٧٩٥ بسبب ما كان ينالهم من الاذى والعدوان المستمر ، ولم ينجح دوباتينفيل الذي اوفد للسعي لدى الامراء في ضمان حقوقنا في مهمته ، كما ان الباب العالي كان عاجزا عن تنفيذ اوامره واسماع كلمته للامراء ، فلم يبق امامنا الا توطيد حقوقنا وضمان مصالحنا بوسائلنا الخاصة . ومن أجل هذا فان فكرة تسيير حملة عسكرية لم تلبث ان لقت رواجاً ، كانت المعلومات التي تضمنها كتابا دولي وسافاري عن مصر قد انتشرت بين الناس ، ولما كنا في حالة حرب من جديد مع انكلترا فقد كان فتح مصر عملاً معقولاً ومحتملاً ...

ولقد غيرت الاحداث خطة الملوك التقليدية ، ولم يعد البحث يجري في نطاق تحويل تجارة آسيا الى البحر الابيض لمصلحتنا فحسب ، بل صار امر مصر بالنسبة اليها وقبل كل شيء تهيتها قاعدة حربية لتحف ننزل به ضربة قاصمة على انكلترا في اعم مراكز عظمتها ومنابع حياتها ونضطرها الى الصلح . وكان ان تلقى نابليون بونابارت في ١٢ نيسان سنة ١٧٩٨ امر حكومة الديركتوار بطرد الانكليز من جميع اماكنهم في الشرق ، وتدمير مراكزهم التجارية في البحر الاحمر وقطع برزخ السويس وادخال البحر الاحمر في حكم وسيطرة الجمهورية حصراً ، واصلاح حالة مصر والمصريين بكل ما يدخل في يده من الوسائل .

وقد غادر بونابارت طولون بتاريخ ١٩ مايس واستولى على مالطه في ١٣ حزيران ، ودخل الافرنسيون القاهرة في تاريخ ٢٢ تموز بعد خمسمائة عام مرت على الاخفاق الذي مني به سان لويس امام المنصورة .

الفصل الثالث

خطط فرنسة للاستيلاء على الهند في عهدي الثورة والامبراطورية

ان جيشاً مؤلفاً من خمسين الف روسي وافرني
حتى او غساي اذ انجبه نحو آسيا عن طريق الاستانة
يجعل انكلترا ترتجف رعباً بمجرد وصوله الى الفرات
ويحملها على الركوع خاضعة امام الفارة الاوروية .
من رسالة من نابليون الى الاسكندر

من رسائل ٢ شباط ١٨٠٨

اهمية هذا القسم - مذكرة نائبان لمجلس الديركتوار - خطة بونابرت - هجوم الانكليز
المضاد - الحملة الافرنسية الروسية في عام ١٨٠١ - خطة عام ١٨٠٥ - دفاع الهند - قلق
انكلترة من مطامع روسيا - الأسس الرئيسية لمستقبل السياسة الانكليزية في الشرق الادنى .

— ١ —

جرت انكلترا الى تاريخ ١٧٩٨ على اعتبار امر الدفاع عن مؤسساتها في الهند
مسألة بحرية منوطة بمبدأ سيطرتها على البحار، وقد اغتنمت فرصة الحرب ضد فرنسا
الثورية فسارعت الى الاستيلاء على احسن مركز يخص الهولانديين في المحيطات وهو
مستعمرتهم في رأس الرجاء .

غير ان خطط نابليون المختلفة التي تصورها للاستيلاء على الهند سواء حينما كان
قائداً ام حينما صار قنصلاً ثم امبراطوراً اظهرت لحكومة لندن ما يمكن ان يكون
لمصر او آسيا الغربية من خطورة جغرافية عسكرية، وقلبت ما كان عندها للسيطرة
البحرية وحدها من اعتبار رأساً على عقب . وقد كان خطر الروس بعد سقوط
الامبراطورية الافرنسية من دواعي بلوغ قلقها حده الاقصى ، وحملها على المبادرة الى

اعادة النظر في سياستها في الشرق جميعه والتفكير فيما يجب عمله للوقوف في وجه هذه الاخطار .

وقبل ان نستعرض مسائل الشرق الادنى الكبرى العسكرية والاقتصادية والدينية يحسن بنا ان نستعرض بإيجاز الخطط المتنوعة المتعاقبة التي وضعت في عهدي الثورة الامبراطورية للاستيلاء على الهند ، والتي كانت عاملا مهما في تلك المسائل وخطط انكلترا فيها .

— ٢ —

كانت خطة اتخاذ مصر قاعدة للحركات ، وتسيير حملة على الهند قائمة على اساس ما كان بيننا وبين قيمو صاحب حاكم ميسور من صداقة . وقد خلف هذا الحاكم اياه حيدر علي في سنة ١٧٨٢ واسدى الينا مساعدات قيمة ابان الحرب الاميركية . واوفد بعثة سياسية الى لويس السادس عشر سنة ١٧٨٨ وبدا منه حقد عظيم على انكلترا ، واعتبر من اجل ذلك حليفاً نافعا لنا . وقد كان امكان تقوية جيش هذا الحاكم بمن في خدمة امراء الهند من المتطوعين الافرنسيين مما زاد التحالف معه قيمة وخطورة .

ولقد لفت قنصلنا في مصر شارل غالون نظر تاليران الى هذه النقاط ، وبين له فوائدها بقوة وحماة . قال هذا اليها بكل قلبه ، ولما استلم وزارة الخارجية قدم مذكرة الى مجلس الديركتوار في ١٢ شباط ١٧٩٨ بهذا الموضوع . وقد اشار في تقريره الى ما تشغله انكلترا من ساحة واسعة ومركز عظيم في الهند في حين ان حاميتها لا تزيد عن خمسة عشر او عشرين ألفاً معظمهم من السود ، واكد ان فرنسا اذا امدت تيمو صاحب بخمسة عشر ألفاً يضيفهم الى قوته فان تلك الحامية لن تستطيع مقاومة ولا وقوفاً .

وكان مما تصوره تاليران ان تبحر حملتنا من ميناء السويس على مراكب تأتي من جزر فرانس ورينيون ، او على المراكب التي تشحن البن من اليمن وجده الى السويس ، وعلى كل حال فقد بين ضرورة وصول الحملة الى مصر وبحارها قبل هبوب الرياح الموسمية المخائفة ، والاسراع في الحركة حتى لا يبقى للانكليز وقت

للحيلولة دون تنفيذ الخطة .

— ٣ —

ولقد كان بونابرت يفكر منذ زمن بعيد في موضوع حملة مثل هذه ايضاً (١) . غير انه اقنع الحكومة الافرنسية قبل مغادرته طولون بخطة جديدة تختلف كل الاختلاف عن خطة نابليون . وقد قال لحكومة الديركتوار انه اذا كان جيش الاسكندر لاقى صعاباً ومشاق عظمى في عودته من الهند بطريق كدروس فانما كان ذلك بسبب عدم تهيئته ما لا بد منه من الوسائل لهذه الطريق ، وكان من رأي بونابرت انه اذا قام جيش من مصر على الجمال فانه يصل الى البصرة في ثلاثين او اربعين يوماً ، ويستطيع ان يصل من البصرة الى حدود مكران في اربعين يوماً اخرى ، وستكون مدينة شيراز في طريقه حيث يكون في الامكان اتمام عدد الجيش من مقاطعة كرمان الفنية قبل عبور الصحراء الى الاندوس ، وهكذا يمكن ان يصل الجيش الذي يقوم من مصر في تشرين الاول الى المحل المقصود في شهر مارس ، ويكون حينئذ عند السيخ والمهرايين الذين هم مستقلون ورجال حروب ، ومستعدون للانضواء تحت الراية الافرنسية ، وكان من الخطة ان تتألف الحملة الافرنسية من ثلاثين الفاً على ان يتسع ملاكها لستين الفاً ، وكان يرى من الممكن اخذ ثلاثين الفاً من مصر نصفهم من سود سنار او دارفور ونصفهم الاخر من اليونانيين والاقباط والسوريين وفتيان المماليك والمغاربة ومسلمي مصر العليا ، وهؤلاء معتادون حياة الصحراء ومتحملون للحرارة مشددة ، كذلك كان يرى من السهل اخذ عشرة الاف فرس والف وخمسمائة بغل وخمسين الف جمل وما تدعو الحاجة اليه من قرب وطحين وغير ذلك من مصر نفسها . وقد حسب بونابرت حساب الوقت اللازم للاستعداد فحسب ان الخمسة عشر شهراً الاولى بين سنة ١٧٩٨ وتشرين الاول من سنة ١٧٩٩ كافية لاعادة الامن والسكينة الى مصر ، وجمع وتهيئة ما يلزم من جنود ودواب وجمال

(١) لقد طلب بونابرت حينما كان في ايطاليا من مكتبة ميلان جميع الكتب المتصلة بمصر وسورية والبحر الاحمر وخليج البصرة . وحينما اعاد هذه الكتب بعد عقد الصلح رويت تعليقات واشارات على هوامش جميع الفصول المتصلة بخطه في مصر والهند . المؤلف

ومؤن وعماد ، وكان يأمل ان تتألف حملته من اربعين الف جندي ومائة وعشرين مدفعاً ، وان تتحرك في خريف ١٧٩٩ او اوائل سنة ١٨٠٠ .
وقد تقرر من جهة اخرى ان ترسل الحكومة الى جزيرة فرانس في تشرين الاول او الثاني لعام ١٧٩٨ ثلاثة آلاف جندي افرنسي مع كمية من المؤن والعتاد ، ويضاف الى هذا العدد ثلاثة آلاف آخرون من المستعمرات نصفهم من البيض ونصفهم من السود . وهذه القوة تقسم الى ثلاثة اقسام وترسل متعاقبة الى موانئ سواحل مكران وتنشيء فيها المخازن والمستودعات ، وتتناول الحملة القادمة منها حاجتها حينما تمر بهذه المنطقة .

كذلك مما تقرر انه حينما يعين تاريخ السفر نهائياً نحو الاندوس يقوم من ميناء براس اسطول قوي يحمل خمسة الاف جندي مع حاجته من العتاد والمؤن ، فيتصل بالجيش الذي يكون في سواحل ايران . ويساعده في ضبط موقع بري صالح مثل سورات او بومباي او غوا ، ثم ينقسم الى مفارز صغيرة تقوم بمهمة الحفارة المتحركة في السواحل التي تمتد بين مصب نهر الاندوس وحدود الصين .
ولقد كان النجاح الذي لقيته الحملة في مبادئ حركاتها مما قوى الامل في تحقيق هذه الخطة بسهولة ، غير انه لم ينقض طويل وقت حتى جرت الرياح بما اضعف هذا الامل ، فلم تصل القافلة الثانية المنتظرة من فرنسا الى الاسكندرية ، وحطم الانكليز اسطولنا في ابى قير ، وحرصوا الباب العالي وهددوه حتى اعلن الحرب وسير جيوشه علينا .

وقد خشي بونابارت من عواقب الحرب في الارض المصرية ووقوع مصر في قبضة الزاحفين ، فقرر ان يتفادى هذا بالمبادرة والزحف بدل الانتظار والدفاع . وكانت خطته ان يعبر الصحراء ، وان يسحق جيش العدو قبل تمكنه من جمع امره ، وان يستولي بعد ذلك على جميع مستودعاته ، وان يسيطر على مواقعه المهمة مثل العريش وغزه ويافا وعكا ، وان يسلح نصارى سورية وان يثير الدروز والموارنة ، وان يسير بعد هذا وفقاً لما يكون من احداث وظروف ، وكان يأمل ان يحمل سقوط عكا امراء المماليك في مصر ومشايخ العرب ، وانصار عائلة الظاهر على الانضمام اليه ، وان

تم له السيطرة على دمشق وحلب في شهر حزيران وتحتل ثلاثه طوروس بعد ذلك وان يكون تحت أمرته حينئذ ستة وعشرون الف افرنسي ، وستة آلاف فارس من المماليك والعرب والمصريين وثمانية عشر الف سوري ، هذا في حين يظل دوسيوكس في مصر على رأس قوة مؤلفة من عشرين الفا نصفهم افرنسيون ونصفهم من السود مستعداً لاُمداده حين الحاجة . وكان يظن انه يمثل هذه الخطة يضطر الباب العالي الى الصلح ويحمّله على الموافقة على تسير الحملة الهندية ، فيصل اذا ساعده الحظ باربعين الف محارب الى الهند في شهر مارس من سنة ١٨٠٠ بالرغم من النكبة التي حلت باسطوله . ولقد كان بينه وبين شاه ايران تفاهم ، حيث وعد هذا بعدم معارضة مرور الجيش الافرنسي بشيراز ومكران .

وقد طلب من شريف مكة وأمام مسقط ان يؤمنوا له الاتصال بتيمو صاحب ، كما كان يحمل من جهة اخرى كتباً من حكومة الديركتوار وتاليران لأتم الامراء في الهند ، ولملك سيلان ولحاكم طانغادور .

على ان اخفاق الهجوم على عكا ، وموت تيمو صاحب في مايس عام ١٧٩٩ ، وما كان من احداث في فرنسا عصفت بخطة نابليون هذه .

— ٤ —

ولقد هاجت افكار الانكليزي العامة من مغادره الاسطول طولون وضبطه مالطه هياجاً شديداً ، وعلى الاقل هذا ما ينبغي ان يكون قد وقع اذا ما امعنا النظر في المذكرات التي نشرها المستشرق السير ايليس ورن في ذلك العهد .

ومع ان هذا الكاتب الانكليزي قد اعترف بان نجاح الحملة الافرنسية يقضي على تجارة بريطانيا في الهند قضاء مبرماً فانه قرر ان الحملة مقضي عليها بالاخفاق . وقد بين اسباب ذلك حيث قال وهو يستعرض الطرق المختلفة التي كان من المحتمل ان يسير فيها بونابارت « ان طريق البحر الاحمر لا يمكن ان يكون اميناً ، لان ازال عسكر في مصر صعب جداً اولا ولان على الافرنسيين ان يحسبوا حساب الاسطول الانكليزي الذي لا يسد من ان يكون قد جعل مضيق باب المندب وطريقه تحت حصره وتطويقه ثانياً . وقد يكون ازال عسكر في الاسكندرونة هو الممكن ، غير

انه يقتضي حينئذ السير الى خليج البصرة او التوغل في طرق العراق وايران والافغان الموحشة . وكلنا الطريقين غير مأمونتين ايضاً . فالاسطول الانكليزي سيكون مطوقاً لخليج البصرة ، ولن يتمكن بونابارت في حال من الحصول على قوارب كافية لنقل حملته الى بغداد والبصرة . ونجاح الاسكندر الكبير في محاولة مماثلة انما تيسر بسبب عمران طريق سورية وحضارة ندمر اذ ذاك . وكراسوس الروماني الذي قاد الفرق الرومانية بين النهرين لم يلبث ان غلب وقتل من قبل البارسيين قبل وصوله الى بلاد ايران . على انه على فرض النجاح في الوصول الى الاندوس فان هناك ثلاثمائة وخمسين فرسخاً يجب قطعها قبل الوصول الى ميسور والالتقاء بتيبو صاحب . وبعد ان انتشر خبر ظفر نلسون في ابي قبر اذاع ضابط من ضباط شركة الهند رسالة بدون توقيع احتوت خريطته للطرق التي كان يمكن ان ينتفع بها بونابارت ونقض فيها اقوال ورن وتفاؤله ، واكد ان ظفر ابي قبر ليس فيه الا ضمان وهمي ، وان بريطانيا اذا لم تسارع حالا الى اتخاذ التدابير الشديدة الوافية ستفقد حتماً المع جوهره في تاجها . وقد قال هذا الضابط ان الافرنسيين قد اتخذوا من دون ريب الاحتياطات اللازمة ، وان اساطيلهم التي لها من جزيرة سوقوطرا سند قوي تتمكن من التغلب على مراكب الحفارة الانكليزية ، ونبه بالاضافة الى هذا على ان لبونابارت حلفاء اقوياء مثل تيبو صاحب ، وزمون صحاح ملك كابول وشاه ايران الماس علي خان .

ولقد قررت حكومة لندن استناداً الى ما رأته من مظاهره الرأي العام القوية وهياجه ان تبذل جهودها في الحيلولة دون تنفيذ خطط بونابارت فارسلت انكلترا ممدداً الى بنغاله ورأس الرجاء لمساعدة الحملة التي ترسل مباشرة الى مصر بطريق البحر الابيض المتوسط ، واوفدت معتمدين سياسيين الى اليمن والحجاز لتحريك القبائل البدوية ضد الافرنسيين ؛ وكان من اثر ذلك ان أبحرت قوات عربية من ينبع وجده الى القصير والتحققت بقوات مراد بك التي كانت تحارب دوسيكس في مصر العليا ، ولكن هذا انتصر انتصاراً تاماً على جميع هذه القوات في سمرود في ٢٢ كانون الثاني لعام ١٧٩٩ . وقد تبدل الموقف بعد مغادرة بونابارت القطر المصري وقتل كبيره ؛ فقد ظلت

القوات الافرنسية بقيادة قائد عاجز هو الجنرال مينو ، وضيق عليها الحناق من قبل الجيش التركي الذي زحف من سورية الى مصر من جانب ومن قبل قوات غرومبي وهوسقينسون التي نزلت من البحر الى الاسكندرية من جانب ثان ، والساكر الهندية التي نزلت الى القصير بقيادة الاميرال بلانكث من جانب ثالث . فلم يسع تلك القوات التي لم تتلق مساعدة ما من اي جهة الا ترك مصر فغادرتها في ايلول عام ١٨٠١ بعد ما كان منها من البطولة الحارقة .

— ٥ —

وبينا كانت قواتنا تناضل على ضفاف النيل نضال اليائس نال بونابارات الذي وصل الى منصب القنصل الاول موافقة قيصر الروس بولس الاول على الاشتراك في حملة ضد الهند .

ولقد عرفنا الخطوط الرئيسية لخطه هذه الحملة من كتاب طبعه فوهمان عام ١٨٤٠ . فقد استصوب بونابارات خطى الجنرال غاستري لعام ١٧٨٧ والبرنس دوتاسون لعام ١٧٩١ ففكر بالزحف على الممتلكات الانكليزية في الهند بطريق بحر الخزر واوكوس القديمة . وكان من هذه الخطه ان يبصر جيش روسي مؤلف من خمسة وثلاثين الفا من استراخان بالمراكب وينزل الى استر اباد ، وهناك يكون في انتظاره جيش افرنسي بفرز من قوات الرين مؤلف كذلك من خمسة وثلاثين الفا حيث يعبر هذا الجيش نهر الطونه بمراكب نمساوية ، ويسير في البحر الاسود على مراكب روسية ، وينزل تاغانروغ ويقصد منها استر اباد بطريق بيساتي — اسبيلانكيا وتزاريتزين . وتكون استر اباد مركزاً عاماً لمعسكر الجيوش المتحالفة ، ومركزاً للاتصالات والمناقلات كذلك ويؤسس فيها مستودعات وقواعد حربية .

وقد طلب من الشاه اذن بالمرور باراضي ايران (١) وكان من الخطه المقترحة من القيصر ان يسير الجنرال ماسيوا الذي تجتمع تحت قيادته القرات الافرنسية والروسية في الطريق

(١) لا ندري اذا كان القنصل الاول على علم بما كان يجري في هذا الوقت من مفاوضات بين شاه ايران وبين السر جون مالكوم بشأن عقد معاهدة ايرانية انكليزية . المؤلف

التي سار فيها قبل زمن قصير نادر شاه حينما زحف نحو بحر الخزر ، فيمر بمشهد
ففرار فقندهار ، ويصل الى الشاطئ الايمن لنهر الاندوس . وقد ضمن ان يصل
الجيش الافرنسي الذي يتحرك ضفاف الزين في شهر مايس الى الهند في اواخر
شهر ايلول ، وقد اتفق على تهيئة جيش روسي آخر مؤلف من اربعين الفا
من القسازاق في اورانبورغ ليسيروا نحو الاندوس الاعلى بطريق آمودريا وخيوة
وبخارا وكابل وبشاور ، ويبقى دائم الصلة بالجيش اناحفة من استر آباد ، وعلى
تهيئة روسيا لما يحتاج اليه الجيش من مؤن ودواب ، وقد تعهدت فرنسا بعشرة
ملايين فرنك لشراء الخيول وتهيئة الوسائل اللازمة لعبور الصحراء ، وتعهد القيصر
من جانبه بالضغط على الباب العالي لفعل المضايق في وجه الانكليز .
وهكذا اتفق على الحطة بجميع تفصيلاتها بل ان الروس بدأوا بتطبيقها سراً .
غير ان القيصر قتل في هذه الاثناء اي بتاريخ ٢٤ مارس لسنة ١٨٠١ ، ولم يلبث
اسكندر الاول الذي خلفه ان حول اتجاه سياسته واخذ يتقرب الى الانكليز .

— ٦ —

ان جلاء عسكرينا عن مصر اوقف الانكليز في موقف صعب . فانكلترة لم تستطع
ان تحصل على مساعدة السلطان واذنه الا على شرط اعادة مصر الى حكمه . في حين
ان خطورة هذا القطر اخذت تزداد كقاعدة عسكرية جغرافية لمقاومة ما يمكن ان
تعرض له الهند من حملات وزخوف . ولقد فكرت انكلترة منذ ذلك الوقت في
الحلول محلنا ، والسيطرة بصورة قطعية على الاسكندرية والسويس والقصر ، اي على
المواقع التي تتحكم في طريق البحر الاحمر القديمة . ومن اجل هذا اخذت تعهد
امراء مصر ضد الباب العالي آمنة ان لا يعارض هؤلاء احتلالها مصر .

ولقد احبطت المادة الثانية من معاهدة اميان (١) التي وقعت في ٢٧ مارس لسنة
١٨٠٢ هذه الامال باعترافها بتمام ملك الدولة العثمانية ، فلم يسع الانكليز الا الجلاء
عن مصر في سنة ١٨٠٣ غير انه لم يمض زمن طويل حتى ظهر للعيان ان معاهدة

(١) معاهدة بين انكلترة وفرنسا .

اميان لم تكن الا هدنة ، ولم يتردد نابليون في فهم ذلك ، فاخذ يستعد لقطع الصلات ثانية بينه وبين انكلترا ، وعهد الى الجزال سياستيانى بمهمة في الشرق الادنى ظاهرها تجاري ، وحقيقتها درس امكان استيلاء القوات الافرنسية ثانية على سورية ومصر . ولقد ارسل نابليون وكان اصبح امبراطوراً في سنة ١٨٠٣ الجزال دي جان من جهة اخرى الى جزيرة فرانس لتهيئة ما يلزم لحركة اخراج على سواحل الهند . وكان في النية ان تكون هذه الحركة مرتبطة بحركة جيش افرنسي يتحرك من السواحل الشرقية للبحر الابيض برآ . وقد كان لما يقتضي لتنفيذ هذه الخطة ان يكون تضامن مع الاتراك والايروانيين ، ولم يكن هذا ليتم الا بمساع سياسية شاقة . فلما نشبت الحرب ثانية بين انكلترا وفرنسة فكر الامبراطور بخطة اخرى لفتح الهند تقوم على اساس بحري بحت . وقد اوضح هذه الخطة فيما كتبه في جزيرة القديسة هيلانة . وذلك ان يتحرك ثلاثة اساطيل من تغور فرول وبراست وروشفورد نحو جزيرة فرانس تحمل ستة عشر الف جندي ، وهناك تأخذ ما تحتاج اليه من مؤن وتملا ما في ملاكها من فراغ ثم تتجه نحو سواحل الهند ، وحينما تصل الاساطيل الى النقطة المعينة تنزل القوات منها ثم تعود فوراً الى اماكنها الاولى حتى تنجو من الاساطيل الانكليزية ، وهناك يظهر من الجيش الافرنسي المعزول والذي يكون في قيادة قائد باوع ما اعتاد ان يظهر في كل مكان . ولقد عوقت احداث القارة الاوروبية هذه الخطة ايضاً .

على ان الانكليز لم يتهاونوا في امرهم فانزلوا في كانون الثاني لعام ١٨٠٦ عشرة آلاف جندي الى رأس الرجاء ، واعطي الأمر للاميرال دوفورث بعبور الدردنيل باسطوله في شباط سنة ١٨٠٧ لتهديد الباب العالي وتخويله . غير ان سفيرنا في الاستانة وكان اذ ذاك الجزال سياستيانى اخذ على عاتقه حالا امر الدفاع عن العاصمة العثمانية ، فاضطر الاسطول الانكليزي الى ان يعود ادراجه الى بحر ايجه . وقد نزلت قوات الجزال فارسر في ١٧ مارس لسنة ١٨٠٧ الى الاسكندرية كعمل انتقامي لهذا الاخفاق ، غير انها تعرضت لهجوم مضاد شديد قام به الجيش المصري بقيادة الباشا الجديد محمد علي في جوار رشيد ، ومنيت بنحسار فادحة ، واضطرت الى التراجع

نحو الاسكندرية ومنها عادت الى مراكبها . وكان ذلك في ١٤ ايلول لسنة ١٨٠٧ .

— ٧ —

وبينما كانت هذه الاحداث تجري تحقق الاتفاق الافرنسي — الايراني . فقد زحف الروس على كرجستان احدى مقاطعات ايران عام ١٨٠٣ ، فلستنجدت هذه بانكثرة واشترطت انكثرة شروطاً ثقيلة لقاء مساعدتها ، مثل اعطائها جميع المواثيق القائمة على بحر الخزر ، وحق انشاء قلعة في بندر بوشر ، واحتلالها جزيرة قارغ في خليج البصرة . وحينئذ عرض الشاه الاتفاق على نابليون وكان ذلك في كانون الاول من

عام ١٨٠٤ .

وقبل ان يجيب الامبراطور على الطلب بالانحساب ارسل في اوائل عام ١٨٠٥ شخصين الى ايران هما روميو وجورج ، فذهبا في طريقين مختلفين ، حيث سار الاول بطريق حلب فالموصل فهمدان ووصل الى طهران بسهولة ما ، ولكنه لم يلبث ان توفي فيها . اما جورج فقد سار بطريق طبريز وبازيد وتوريس ولم يصل الى طهران الا في حزيران عام ١٨٠٦ ، لأن الاتراك لم يرتاحوا الى نشؤ صلات ودية بين الافرنسيين والاييرانيين اعدائهم . ولم يمكث في طهران الا زمناً قصيراً جداً لانه مرض فعاد الى باريس . ولقد حمل معه استغانة جديدة وقوية من الشاه الى الامبراطور فلم يشأ نابليون ان يضيع الفرصة التي جرت اليه اذيلها ، لا سيما وقد استقى مؤخراً من القنصل الفرنسي جوانين ومن ضابط الاستحكام بونتام ومن دو لابلائش معلومات مشجعة عن احوال ايران ، فقرر الاتفاق مع شاهها حاسبا ان العساكر الايرانية يمكن ان تكون الجناح الايمن الاخير لجيوشه .

ولقد كان مما تتصوره نظويق الروس من الناحية الاوروبية بعد اخضاعهم لأمره واضطرارهم الى السير معه الى آسيا من انكثرة . وكان مما يقتضي لتنفيذ هذه الخطوة الحصول على رضا الترك وتوطيد الصلح بينهم وبين ايران التي كانت تطالب بالعراق ، والتوفيق بين روسيا وايران اللتين كانتا في نزاع على كرجستان . ولاجل ذلك بدأ بمفاوضات مع الترك من جهة ومع الايرانيين من جهة اخرى في ربيع عام ١٨٠٧ في قصر فينكستين في جوار استرود ، حيث قام معسكر الامبراطور ، ولم يود السفير التركي

ان يقيد نفسه بأي تعهد باتفاق وتواذ بين حكومته وايران ؛ وحينئذ تفاهم
الامبراطور مع مندوب ايران منفرداً على ما يقتضي ؛ وكان ذلك في غيبة تاليران
الذي لم يكن يستصوب هذه السياسة .

وقد تعهدت فرنسا في المعاهدة الايرانية المؤرخة في ٤ مايس من سنة ١٨٠٧
بضمان ملك الدولة الايرانية كله بما في ذلك كرجستان ، وباجبار روسيا على الجلاء
عن هذه المقاطعة ، وبارسال ضباط اختصاصيين ومدافع وبنادق الى الحكومة الايرانية
وتعهد الشاه من جانبه باعلان الحرب فوراً على انكلترة ، وبطرده جميع رعاياها من
اراضي ايران طرداً تلاماً ونهائياً ، وبالتفاهم مع الافغانيين والمهراتيين وسائر الامم
المجاورة ، والزحف على الممتلكات الانكليزية في الهند ، والاذن بمرور جميع القوى
الافرنسية من اراضي ايران بحرية وسهولة .

وقد اوفد نابليون بعثة برئاسة الجنرال غاردان الى طهران لتعجيل تنفيذ شروط
المعاهدة ؛ وكان مما حمله الامبراطور للجنرال ، مهمة تحريك روح العداء والعدوان في
كرجستان ضد الروس ، وبذل الجهد في ايجاد تفاهم وعقد اتفاق عسكري بين ايران
وتركيا ، وتسليح المراكب في بحر الخزر ، ودرس الطرق المؤدية الى الاندوس ،
وانشاء الصلات الودية مع المهراتيين من ناحية ومع الوهابيين في نجد من ناحية
اخرى (١) .

ولقد عدل توقيع معاهدة تيليسيت ، وقيام الصلح بين الافرنسيين والروس هذه
التعليقات بعض الشيء بعد قليل ؛ حيث تلقى الجنرال غاردان اثناء مروره بالاستانة امراً
ببذل الجهد في سبيل تفاهم ايراني وروسي ، وتوجيه كل المساعي والنشاط الى وسائل
الحرب ضد انكلترة .

وقد وصلت البعثة الافرنسية الى طهران في ٤ كانون الاول من عام ١٨٠٧ ،
وسارع الشاه الى تصديق معاهدة فينكستين ، ووقع ملحقاً تحلى فيه لفرنسة عن

(١) كان نابليون يعتبر مسألة الوهابيين خاصة مسألة هامة . وقد طلب من مندوبيه في
الشرق الادنى في سنة ١٨٠٣ معلومات عنهم . وقد نشرت المونيتور في ٣١ تشرين الاول من
١٨٠٦ دراسة مستندة الى الوثائق عن هذا المذهب .

جزيرة قارغ في خليج البصرة بصورة بانه ، وقد كان على مر كمين حربيين افرنسيين ان يسلما للشاه في بندربوشير عشرين الف بندقية .

وعين الامبراطور للجنرال غاردان اربعة اشهر لاتمام مهمته . فاهتم ضباط البعثة للاسراع في درس افضل الوسائل لتنسيق الجيش الايراني وفتح الهند (١) ؛ وكان ما فكر فيه رئيس البعثة ضبط قبرص قبل كل شيء حتى تكون قاعدة للحركات العسكرية حيث كان من المتصور ازالة العساكر الى اسكندرونة وتسييرها نحو البيرة (بيرة جك) ؛ وهنا ينقسم الجيش الى قسمين فيمر احدهما بالفرات ويتجه شمالا الى اورفه وماردين ويتقوى بالقوى النسطورية قبل ان يسير نحو السلطانية وقزون ؛ وحينما يصل الى طهران يختلط بالقوى الايرانية التي يكون ضباطنا قد مرئوها على الاصول الاوربية ثم يزحف الى همدان بطريق مشهد . اما القسم الثاني فيدير ما يحتاج اليه من قوارب ويتجه جنوباً في نهر الفرات الى اتجاه بغداد ، ثم يحول اتجاهه شرقاً نحو كرمنشاه واصفهان فيلتقي مع القسم الاول في هرات حيث يقوم فيها المعسكر العام . وفي حال التفاهم مع الروس فان القوى الروسية التي تشترك في الحملة تلتقي بجيوشنا في هذا المعسكر . اما الزحف على الهند فيكون اما عن طريق كابول وبشاور او طن طريق قندهار . ويظهر هذا الزحف البري عملية الاخراج البحري الى شمال بومباي التي يكون الجنرال دي جان قد هيا وسائلها في جزيرة فرانس ، ويكون الجيش مؤلفاً من اربعين او خمسين الف افرنسي ومن نحو ثلاثين او اربعين الف ايراني وهندي ادخلوا في ملاكمه .

ومما فكر فيه اقامة حاميات منزلية على طول الطريق ؛ بحيث اذا وجدت قوى انكليزية ذات شأن في البحر الابيض وصعبت او عرقلت عملية الاخراج الى اسكندرونة أمكن بهذه الحاميات تسهيل مرور الجيش من الاناضول الى حلب . كذلك فكر بالاضافة الى هذا في طريق البحر الاسود وطربزون بحيث يمكن امرار الجيش الفرنسي من هنا الى ارضروم فتوريس .

(١) انشا افرنسيون مصناً للمدافع ليتفادوا صعوبة نقل المدافع بطريق الاناضول . المؤلف

ولم تسمح الاحداث بتنفيذ هذه الخطط ايضاً . لاننا لم نستطع ان نتفاهم بوجه ما مع روسية على تقسيم الشرق . فقد رضي نابليون بأن يصبح البحر الاسود بحيرة روسية غير انه كان يحرص على الاحتفاظ بمضيق الدردنيل في يده ، ويستهدف جعل البحر الابيض افراسياً . وقد وافق القيصر اسكندر من جانبه على ترك قبرص وازمير وسائر موافى الاناضول وسورية ومصر لنا غير انه لم يرض بالتخلي عن السيطرة التامة على المضائق . وهكذا رأى نابليون خطته القائمة على اساس التفاهم مع الروس تارة ومع ايران وتركية تارة تنهدم أثر واحدة .

ولما احتلت العساكر الروسية كرجستان في تشرين الثاني من عام ١٨٠٩ طاب الشاء من الجزال غاردان المعونة الموعودة . ولم يكن في استطاعة هذا ان يتصل بالامبراطور بطريقة سريعة وكان هذا مما يؤسف له جداً . لأن الانكليز كانوا اذ ذاك يدبرون في جميع انحاء ايران دعاية كيدية قوية لا سيما وقد كان لهم فيها انصار كثيرون . وكان مندوبهم السياسيان هارفورد جون ومالكولم يتصدان الفرصة المناسبة للحلول محل البعثة الافرنسية (١) . فلما سقط في يد الشاء ورأى آماله في فرنسة تخيب هذه الحبيبة الشديدة لم ير مناصاً من قبول طلبات الانكليز وكان ذلك في شباط عام ١٨٠٩ ، وحينئذ سارع الجزال غاردان وافراد بعثته الى الانسحاب من ايران دون انتظار تعليمات من الامبراطور . وقد كانوا مضطرين الى العودة بطريق تفليس وروسية لأن الاراضي التركية كانت مقفولة في وجوهم بسبب كون الباب العالي اذ ذاك حليفاً لبريطانية ، وقد انقطعت الصلات السياسية بينه وبين فرنسه تبعاً لانقطاعها بين هذه وحليفته .

وهكذا غدا نفوذ الانكليز حراً في ايران من دون مزاحم يقوى ويتسع كما يشاء .

(١) كان مالكولم يقيم في بندر عباس والسير هارفورد وجون في بندر بوشير ؛ وكانت المراكب البحرية الانكليزية والعساكر الهندية الانكليزية مستعدة لمظاهرتها في كل آن .
المؤلف

ولم يكن لنا فيها اي ممثل منذئذ الى تاريخ ١٨٣٩ ؛ حيث قررت حكومة لويس فيليب ايفاد الكونت سرساي مفوضاً فوق العادة .

— ٨ —

على ان اخفاق بعثة غاردان في ايران واستيلاء الانكليز سنة ١٨١٠ على جزيرة فرانس لم يجعل الافرنسيين يتخلون عن كل أمل لهم في فتح الهند ، لان نابليون لم يكن قد تحلى بعد عن خيال الهيمنة على الشرق . وليس من ريب في انه في خطته ضد روسيا كان يتعقب في قرارة نفسه السير وراء هذا الخيال وتحقيقه . وبدل على هذا ما قاله الموسيو دوناربون قبيل حركته نحو روسيا حيث قال له :

« ان هذه الطريق الطويلة هي طريق الهند ؛ ولقد قطع الاسكندر الكبير في سبيل الوصول الى ضفاف الغانج طريقاً اطول من طريق موسكو ؛ ويبدو انه يجب ان ندور من طرف اوربا الاقصى الى آسيا حتى نرغم انكلترا ونقهرها . وانكم لتعرفون ما آل اليه امر بعثتي الجزالين غاردان وجوبرت حيث لم يأتيا بشمرة ذات شأن . ولكن في حقيبي الخرائط والمعلومات الوافية عن الطرق والاقوام التي تقع على طريق الهند الانكليزية من اربوان فتفليس فما بعد . وهل تظنون انه في الامكان ان يزحف جيش افرنسي عظيم تظاهره قوات كبيرة معاونة من تفليس الى الغانج ، وهل لا تظنون ان نخزة برأس سيف فرنسة تكفي لهدم البناء الانكليزي الهندي وهو ليس الا سوقاً تجارية كبيرة . . . »

— ٩ —

ونرى من المفيد الآن وقد اوضحنا بايجاز الخطط الافرنسية ان نستعرض بايجاز ايضاً أهم ما بذلته حكومة الهند من جهود ، وما اتخذته من تدابير دفاعية ، واحد أثر واحد ، في سبيل احباط تلك الخطط .

ان خبر نجاح حملة بونابارت في سنة ١٧٩٨ أثار اضطراب الموظفين الانكليز وبعث في نفوسهم شديد القلق . حتى ان الحبر الذي وصل اليهم في نفس الطرف بظفر نيلسون في ابي قير الذي حملة ضابط من ضباط نلسون بطريق بادية الشام لم يسكن هذا

القلق . ولقد كان موقف تيبو صاحب مما يزيد في قلقهم ، حيث عرفوا في برهة وجيزة ان هذا الأمير طلب معونة ضدّهم من جزيرة فرانس ، وكانوا يرون في اهتمامه المتزايد للقساح خطراً راهناً ، كما كانوا يعرفون ما بينه وبين حاكم كابول زمون صحاح من صلات وثيقة . ولما ارسل ويلسون وكيلهم السياسي في غنّا كتاباً يذكر لهم فيه خبر كتاب ارسله بونابارت الى تيبو صاحب بتاريخ ٢٥ كانون الثاني من سنة ١٧٩٩ يعلمه فيه بقرب حركته من القاهرة على رأس جيش جرار لا يغلب الى ميسري ، واتحاده مع قواء لم يبق لديهم اي شك في ان ما يبدو من نشاط تيبو واستعداده متصل بالحملة المصرية . ولقد كان موقف الانكليز في هذه الاثناء حرجاً جدياً ، لان كثيراً من الفصائل الافرنسية المتطوعة ظلت في خدمة امراء الهند ، وفي حالة تجمعها تؤلف جيشاً قد يبلغ الستين ألفاً . وهذا الجيش المدرب على الطريقة الاوروبية كاف لهزيمة القوى الانكليزية المعدة لحماية الممتلكات الهندية هزيمة ساحنة فكان من شأن هذا ان يزيد من قلقهم وهمهم بطبيعة الحال .

على ان من حسن حظ الانكليز انه كان بين امراء الهند المحليين خلافات كبيرة ، كما ان زعماء القوات الفرنسية انقسموا الى صفتين متعارضتين صف انصار الملكية وصف انصار الثورة ، واخذ النزاع يشتد بينهما ويستشري بحيث لم يكن من الممكن قيام اتحاد وتضامن لا بين هؤلاء ولا بين اولئك .

ولقد عرف اللورد ويسلي كيف ينتفع بهذه الاختلافات . ولما تخلى عن منصبه كوال عام سنة ١٨٠٥ كانت بلاد الهند قد غدت مقفولة تماماً في وجه الافرنسيين كما كانت الممتلكات الانكليزية قد اتسعت اتساعاً عظيماً ، وكانت الفصائل الافرنسية المتطوعة قد سرحت وجردت من السلاح ، وبعض الاشخاص القادرون على التدبير والتشكيل شذر مذر ، وكانت الدول الهندية الرئيسية قد مزقت واضعفت او ضمت الى الممتلكات الانكليزية .

ولم يقتصر جهد ويسلي على داخل حدود الهند بل حول انظاره الى الانحاء البعيدة ايضاً ، فدير امر تطويق هومز ومضيق باب المندب بلا توان من قبل اسطول الاميرال راينسر ومراكب الشركة الهندية ، فاحتلت بريم سنة ١٧٩٩ وسوقوطرا

سنة ١٨٠١ ، وأوفد الى مسقط (١) مندوب انكليزي لعقد معاهدة صداقة وصلات ودية مع سلطان عمان. واتخذت التدابير لكسب شيخ الكويت .

ومن جهة اخرى ارسل السير جون مالكولم الى ايران سنة ١٨٠٠ ليزاحم بعثة العالم الطبيعي الافرنسي اوليفيه . فاستطاع ان يعقد مع الشاه معاهدة عام ١٨٠١ التي قضت بمنع الافرنسيين من الاقامة في ايران بل وفي سواحل خليج البصرة وجزره ايضاً . ثم ارسل الانكليز سنة ١٨٠٣ مندوباً سياسياً الى البصرة لمراقبة وادي الفرات وانشاء الصلات مع زعماء العرب فيما بين النهرين لاحتياط خطط بونابارت القائمة على اساس عبور بادية الشام .

ولقد اهتم كل من كورنواليس وبالو وخاصة اللورد مينتو الذين تولوا منصب والي الهند بعد اللورد ويسلي واحداً اثر واحد في سني ١٨٠٥ — ١٨١٣ لتوطيد الحكم الانكليزي في الهند وتقوية دعائمه ؛ بل وشموا باهتمامهم ما وراء الحدود من قاليم ايضاً ؛ فوطدوا نفوذ انكلترا في بلاد السيخ والافغان والسند وايران وفي بلاد العرب القائمة على خليج البصرة ، ولقد ذهب افنديستون في مارس عام ١٨٠٦ بعثة خاصة الى كابول ونال من حاكمها الشاه سودجان عهداً بمنع مرور الجيوش الافرنسية المحتمل زحفها من الاراضي الافغانية ، واخذ في آب من نفس السنة توقيع حكام بلاد السند والسيخ على عهد مماثل .

ولقد جعلت مغادرة بعثة غاردان لايران الجو خالياً للمندوبين الانكليز ، فتمكنوا من اخذ موافقة الايرانيين على معاهدة جديدة تعهد فيها الشاه بمنع مرور اي جيش اوروبي يحاول الزحف الى الهند ؛ وكفلت بريطانيا مقابل ذلك استقلال ايران .

(١) ان امام مسقط قد استمر في صلاته الحسنة بفرنسة بعد حملة بونابارت ايضا حتى انه كان يطلب بعض الضباط الافرنسيين لتدريب جيشه . غير ان موقفه تغير بالنسبة اليها بعد معاهدة اميان فامتنع عن الاعتراف بالفصل الذي اوفدناه قائل ان له في المحيط الهندي مراكب كثيرة ، وانه اذا ما وجد لديه وكيل افرنسي فان هذا يحمل الانكليز على ضبط مراكبه حيث يعتبرونه حليفا لفرنسة ، واذا اعلن الانكليز عليه الحرب فانه يعجز عن مقاومتهم ، ثم قال ان الفصل الاول اذا كان يعده بالمظاهرة والموت فانه مستعد لقبول الوكلاء الافرنسيين في مختلف انحاء بلاده . . .

وبينا كانت هذه المساعي جارية استطاع كل من الضباط الانكليز غرانت وقريسي وبوتينغر ان يختبروا ويدرسوا جميع طرق بلوجستان الحربية ، وان يعقدوا اتفاقات صداقة مع مختلف زعماء هذه البلاد . وكان البحارة الانكليز ينشطون من جانبهم في تطهير خليج البصرة مما كان يملؤه من القراصنة الذين لم يكادوا يحصون كثرة . وبعد اتفاق عقده الانكليز مع سلطان عمان سنة ١٨١٠ جاءت حملة انكليزية — هندية فدمرت معصم القراصنة الرئيسي في راس الحيمة ، وحرقت نحو خمسين من مراكبهم وقد وصل نشاط المندوبين الانكليز في هذه الاونة الى جزيرة العرب وبداية الشام ايضاً ، وكان هدفهم قفل الباب في وجه أي مندوب افرنسي يحاول الاتصال بالقبائل العربية ، ونيل موافقتها وعيها على التضامن مع حركة زحف افرنسية .

— ١٠ —

ولم يذهب سقوط نابليون قلق الانكليز على ممتلكاتهم في الهند نهائياً . فان الحرب الايرانية — الروسية الجديدة والفوائد التي ضمنتها معاهدة كاستان للروس جعلت انكلترا ترى ان الخطر الروسي قد احتل مكان الخطر الافرنسي .

ولقد اوضح ويليام تورن وجون ماكدونالد هذا الخطر ونوها به في الكتاب الذي اصدره عام ١٨١٨ ؛ وقد كان موضوع هذا الكتاب درس احتمالات غزو الهند من قبل دولة اوربية ما . ومع ان السكتيين قالوا ان احتمال سير ونجاح حملة بطريق البحر الاحمر وخليج البصرة خيالي بعيد التحقيق لما يقتضيه هذا من السيطرة التامة القاطعة مقدما على العراق ومقاطعات ايران الجنوبية بالاضافة الى البصرة وسورية ، فقد سلما باحتمال سير ونجاح حملة تزحف بطريق ايران وافغان الشمالية ؛ وقالوا في خاتمة بحثهم ان جيشاً ايرانياً مدرباً بقيادة ضباط اوربيين بارعين هو اشد الاخطار التي يمكن ان نواجهها في سهول الهند . وان هذا داخل في حيز الاحتمال والتنفيذ . وانه اذا كان الاستيلاء على الهند من قبل دولة اوربية ليس لها طريق بحري امين لا يعود الا بأقل الفوائد فان السياسة الروسية قد ترى ان الهند منبع رئيسي من منابع عظمتنا وسلطاننا وان من المفيد انتزاعها من ايدينا .

ويسهل الآن استناداً الى ما استعرضناه من خطط لغزو الهند ان نستخرج الاسس

الرئيسية التي قامت عليها السياسة الانكليزية في الشرق الادنى في القرن التاسع عشر .
 فقد رسمت انكلترة التي وقعت تحت تأثير الخوف من حركة زحف وغزو تأتي من
 طريق سورية او بحر الخزر وطريق او كسوس أبعاد فرنسا عن مصر وسورية وبلاد
 العرب ، واقضاء ورسية عن البحر الابيض وايران والافغان ، وجعل جميع المعابر
 المؤدية الى المحيط الهندي والشرق الاقصى من البحر الاحمر وخليج البصرة تحت
 رقابتها واشراقها . لا سيما وقد وطدت اقدامها في رأس الرجاء وجزر مورس وسيدل ،
 وبعبارة اخرى رسمت السيطرة على الطرق المختلفة التي تصل الى الهند بركة كانت او
 بحرية ، واقضاء كل دولة مزاحمة عن خليج البصرة بكل قوة وحزم ، وجعل هذا
 الخليج بحيرة انكليزية تستطيع ان تسير منه الى شط العرب كل وقت وبكل سرعة
 حملة انكليزية هندية تضرب من الورا اي عدو تحدته نفسه بالسير بطريق الفرات الى
 الاندوس . وسنستعرض في الابواب التالية مظاهر هذه السياسة المختلفة وما ولدته
 بين الدول من تنافس وتزاحم في الشرق الادنى .

الفصل الرابع

التشاد الافرنسي — الانكليزي في القرن التاسع عشر

•
الا تكون فرنسا قريرة العين بقيام دولة جديدة
في سورية ومصر تكون هي موجدتها وحليفة طبيعية
لها ، وان لفرنسا في الجزائر وصاية فـا الذي ينبغي
بينكم وبين حليفتكم مصر ، لا شيء تقريباً .
ولن تلبث تونس وطرابلس البايستان وسائر سواحل
افريقيا والقسم المعتمد من القدس الى خليج
الاسكندرونة ان تدخل في نفوذكم وسيطرتكم
المطابقة . وهذا ليس مما يوافقنا .

من رسالة اللورد بالمرستون الى رئيس الوزارة الافرنسية
الموسيو غوزيوت في ٦ مارس ١٨٤٠ .

•
الصداقة الافرنسية المصرية — طرق التجارة في الشرق الادنى — مذبحه سورية — فتح
قناة السويس — الاحتلال الانكليزي لمصر — مسألة الشيخ سعيد — شؤون مسقط — الاتفاق
الافرنسي الانكليزي عام ١٩٠٤ .

— ١ —

بعد سنة ١٨١٥ اتجهت سياسة فرنسا الى التفاهم مع انكلترة . غير انه لم يمر
وقت طويل حتى رأينا انفسنا في حالة خلاف وتشاد معها بسبب مصر وسورية .
ومع ان محمد علي حارب ضدنا في ابي قير سنة ١٧٩٩ فانه لم يقصر منذ بدء
حكمه في اظهار ميوله الودية نحونا . وقد استعان بكثير من الافرنسيين عسكريين

ومدنيين في تنظيم امور مصر وانهاضها (١) .

ولقد قوبلت هذه الميول والجهود بالثناء والادتياح وجميل العطف من الحكومة
الافرنسية والرأي العام الافرنسي على السواء . اما بريطانيا فقد كانت تنظر الى
الباشا كعذر حقيقي لها ، وتراه هو المسؤول عما منيت به مساعيها في سبيل ترسيخ
اقدامها على ضفاف النيل بعد جلاء القوات الافرنسية عنها من اخفاق . حيث اقتصر
في اول امره على الامير محمد الالفى نصير انكسرة المخلص ، ثم حال دون نجاح اخراج
القوة الانكليزية الى الاسكندرية سنة ١٨٠٧ . فلم يستطع جيراننا الانكليز ان ينسوا
ما اوقعه فيهم من هزيمة ، وما كان من تشبهره لرؤوس المئات من جنودهم في ميدان
الازبكية ، ومن تطويفه بالاسرى الانكليز في الشوارع يتلقون هتافات الشعب
التحقيرية .

ولما اصاب محمد علي ما اصاب من توفيق ونجاح وبسطة نفوذ في السنين التالية
في البحر الاحمر وبلاد العرب والسودان اشتد شعور العداء فيهم نحوه ، وازداد شدة
حينما اقترح علينا في سنتي ١٨٢٧ و ١٨٢٩ ارسال حملة ضد الجزائر ووصل عداؤهم له
الاوج حينما تقرر في معاهدة كوتاهيه في ٥ مايس ١٨٣٣ ترك ولايات ارضه وسورية
له ، حيث رأوا بعين القلق والغضب الشديد ان طريق السويس والفرات تصبى في
يد صديق لفرنسة ، فقرروا من جهة وجوب كسر نفوذه ومن جهة اخرى عولوا
على التأثير منا لنجاحنا في الاستيلاء على الجزائر وفي ميدان السياسة الشرقية .

ولقد بدأ أثر العداء الانكليزي لنا في الميدان الاقتصادي اولا ، فاحتجوا
بالاحتكارات التي احدثت في مصر وتضررهم منها ، وعقدوا مع الحكومة العثمانية في
شهر تموز سنة ١٨٣٨ معاهدة ضمنوا فيها لانفسهم حرية تجارية واسعة في بلاد
الامبراطورية العثمانية وقضوا على تلك الاحتكارات .

(١) يحسن ان نذكر من هؤلاء خاصة الملازم سيوى الذي كان يقود الجيش المصري في

حرب تريب عام ١٨٣٩ .

وقد اغتنموا فرصة الخلاف التركي المصري الذي انتهى الى موقعة نزيب (١) وهزيمة الجنود العثمانية فاستغلوها ضد محمد علي وبالتالي ضد نصيرته فرنسا . ولم تكن لدينا المعلومات الوافية عن مطامع الدول كما اننا لم نكن نعرف حقيقة قوة الباشا وموقفه ، فساقنا جهلنا الى تعصيده ومظاهرتة في مطالبه ظانين ان في استطاعته الدفاع عن الاراضي التي استولى عليها ، وعدم تمكن احد من انتزاعها من يده ، في حين لم تكن قوته ونفوذه في الواقع في الدرجة التي يصح الاعتماد عليها . ولقد نجح اللورد بالمستون بحركة سياسية بارعة وسريعة في ان يجمع حول انكلترة كلا من روسيا وبروسيا والنمسا ، فاجتمع مندوبو الدول الاربعة في لندن ، ووقعوا عهداً بتاريسخ ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ (٢) بحل الخلاف دون ترك فرصة لتدخل فرنسا .

وقد ووفق في هذا العهد على استعمال العنف والقوة مع الباشا اذا ما اقتضى الامر وتقرر ارسال اسطول حليف بقيادة الاميرال ناير الى بيروت وآخر بقيادة الاميرال ستوبفورد الى الاسكندرية ، ووصل الاسطولان فعلا الى الثغرين بعد شهر واحد من المعاهدة .

وفي هذه الاثناء دس ريشارد وود الانكليزي اصابه في لبنان فأنار فيه ثورة ضد الاحتلال المصري فلم يلبث امل الموسيوتيه في مقاومة القوى المصرية أن خاب ، حيث لم يبد منها الا مقاومة ضعيفة جدا ، ثم تلاحقت الاحداث واحداً اثر واحد

(١) هذه الموقعة وقعت بعد انسحاب ابراهيم باشا من كوتاهيه بناء على مساعي الدول واندازها وتزيب كانت من اعمال حلب وهي قرب الفرات .

(٢) هذا العهد كان نتيجة لثورة محمد علي وزحف جيوشه بقيادة ابنه ابراهيم الى الشام فالاناضول ووصله الى كوتاهيه . ومما يذكر ان السلطان وحكومته قد اعترام الملم فاستغاثوا بروسية ، واغتنمت هذه الفرصة فسارعت الى بخذته وعقدت معه معاهدة دفاعية ترف بمعاودة خنكار اسكله سي « ميناء السلطان » فاقلق هذا بال انكلترة لان الدولة العثمانية بهذا العهد اوشكت ان تكون محمية روسية ، فدعت دول النمسا وبروسية وروسية الى مؤتمر في لندن لبحث الموقف . وفي هذا الاجتماع تقرر انذار محمد علي بسحب قواته من الاناضول مقابل منحه ولاية مصر وراثية وولايات الشام واضنه طيلة حياته وهددوه بمساعدة الدولة ضده . وهكذا نقلت بريطانيا المسألة المصرية الى الساحة الدولية .
المغرب

وبسرعة عظيمة ، فأعلن في الاستانة بتاريخ ١٤ ايلول عزل الباشا واحتلت القوى الخليفة بيروت وصيدا وصور وطرابلس وسقطت عكا بتاريخ ٣١ تشرين الثاني في يد الاميرال ستوفورد ، فما كان من لويس فيليب الا ان تراجع امام خطر اتحاد جميع الدول ضدنا فاستقال في ٨ تشرين اول وخلفه في رئاسة الوزراء غوزوت سفيرنا في لندن ، ووجه هذا اهتمامه الى ادخال فرنسا في المجلس الاوروبي ، ولم يسع محمد علي الا قبول شروط السلطان قبلها بتاريخ ١٠ حزيران سنة ١٨٤١ وكانت تقضي ان تترك مصر لمحمد علي واولاده من بعده ، وان يتخلى عن كل مطلب ودعوى له في آسيا . والعت معاهدة ١٥ تموز ١٨٤٠ ووقعت فرنسا مع سائر الدول بتاريخ ١٣ تموز سنة ١٨٤١ معاهدة المضائق التي قضت باقفال الدردنيل والبوسفور في وجه جميع الاساطيل الحربية الاوروبية .

وبما لا ريب فيه اننا خرجنا من هذه الازمة ضعفاء الهيبة ؛ مجروحي الكرامة ، ولكننا على كل حال كان لنا ان نرتاح الى كل ما يمكن ان يكون لمحمد علي في مصر من قوة ونفوذ ؛ لانه كان في ذلك ضمان لدوام نفوذنا فيها . ومع ان انكلترا قد نجحت في صرفنا عن سوريا والفرات . وفي انصاء روسية عن المضائق ، فانها ارتكبت من دون ريب خطأ في ما كان منها من موقف عدائي نحو والي مصر على ما قرره الكاتب الانكليزي السير فالنتين شرويل . فقد جاء في كتاب اصدره روجر لابليل عن المسألة المصرية مستنداً الى وثائق كثيرة أن ذلك الانكليزي الذي كتب كتاباً جمع فيه معنومات قيمة عن ما جرى من احداث لام الحكومة الانكليزية ، وتساءل عما اذا لم يكن اجدى على بريطانيا ان يتصرف بالمرستون مع محمد علي تصرفاً حكيماً ليناً ، وان يلتزم جانبه . ومن الحق ان انكلترا لو مثلت دور المحامي الظاهر لمحمد علي في سورية ومصر وبلاد العرب والسودان ، ووقفت منه موقف المؤيد اكثر مما فعلت فرنسا واثارت في نفسه الحرص بأسلوب سياسي بارع ، لاطمأنت على طريق الهند ، واقامت أمنها على قاعدة اقوى ، ولكان في امكانها منذئذ ان تنشيء الامبراطورية العربية — الانكليزية التي حاولت بعد هذا الظرف بنصف قرن وما تزال تحاول خلفها .

وحينما كان الميسو غوزوت يشترك في مذكرات معاهدة المضائق حاول ان يتفاهم مع الحكومة الانكليزية على مسألة طرق التجارة في الشرق الادنى . وهي المسألة التي كانت أهم مواضع واسباب التشاد والتزاحم بين الافرنسيين والانكليز . وقد ابلغ سفيرنا في لندن اللورد بالمستون بتاريخ ١٣ كانون الثاني من سنة ١٨٤١ مذكورة شفوية قال فيها : ان حرية طريق السويس - البحر الابيض - البحر الاحمر وطريق البحر الابيض - سورية - الفرات - البصرة التجارية وجعلها في نطاق الجياد مسألة مهمة لجميع اوروبا ، ولما كانت الصلات بين اوروبا وآسيا آخذة بالازدياد بسرعة عظيمة فان اقرار مبدأ كهذا ممكن الان من جهة ومفيد جداً من جهة اخرى ؛ وقد لا تسنح فرصة اخرى له . وقد اعاد الميسو غوزوت الكلام في هذه النقطة بعد بضعة اسابيع ايضاً ، حيث جاء في رسالة بعث بها الى القائم باعمال سفارتنا في لندن أن اقرار حرية الانتفاع من الطرق التي بين اوروبا وآسيا سواء كانت طريق برزخ السويس والبحر الاحمر او سورية والفرات وخليج البصرة لجميع الدول والائتم الاوروبية دون ان يكون لأي منها امتياز خاص يصح ان يكون سبب تفاهم وطيد الاركان .

ولم يتأخر جواب انكلترا كثيراً . فقد اجاب اللورد بالمستون الميسو غوزوت في تاريخ ٢١ شباط ١٨٤١ قائلاً : ان اقرار حق انتفاع الدول الاوروبية من طرق النقل الكبرى بين اوروبا وآسيا بحرية — مها كانت صيغة العهد الذي يتفق عليه — لن يتلقى الا حركة انكليزية اريد بها ضمان مصلحة انكلترا الخاصة . في حين ان من اعم ما وجه الى السياسة البريطانية منذ ١٥ تموز ١٨٤٠ من مؤاخذات وانتقادات انها ارادت اغتنام فرصة المسألة المصرية لحصر طرق النقل في يدها . وماذا يفيد جعل هذا مبدأ شاملاً لجميع الدول في حين أنه ليس هناك دولة اخرى لها امبراطورية في الهند ؟ انه سيقال في حالة اقرار ذلك وموافقنا عليه ان انكلترا قد ابدت زهداً كاذباً لتخدع به الحلفاء ، وان هذا سيقال خاصة في فرنسا وليس في ايندينا امتياز رسمي ، ولسنا نسعى وراء الحصول على مثل ذلك ؛ والافضل ان يكون كل حراً

في طلب ما يريد والحصول عليه حسبما تساعده قابليته للسعي ؛ وهذا ليس مما يمكن ان يكون موضوعا لشروط تصاغ في معاهدة . . ولم يلح الموسيو غوزوت بعد هذا فظلت المسألة حيث هي .

على انه كان لدى انكلترا في هذا الوقت اسباب مهمة تدعو طلب عدم الدخول في مفاوضات مماثلة ، حيث كانت منهمكة في النظر في خطط النقل السريع الذي اقترحتها الضابطان واغهورن وفرانيس شيسي . وقد ملح بالمرستون في قوله « قابلية الشخص للسعي » الى هذا . فان جيراننا عبر المائس لم ينوا منذ الحملة المصرية الافرنسية في تهينة وسائل النقل السريع بين انكلترا والهند . ولقد عرضت حكومة بومباي على الحكومة التركية مرتين في سني ١٨٢٣ و ١٨٢٦ اقتراحا بتشغيل رحلة نقل بحرية تجارية بين الهند والسويس ولم تحصل على موافقتها . وقد حاول واغهورن بناء على ذلك ان يثبت ان سلوك طريق مصر الى الهند حتى بالوسائل القديمة يعود بوفر عظيم فاستأذن بارسال نسخ ثانية من الرسائل التي ترسل بطريق رأس الرجاء على ان يتحمل النفقات ، واستخدم الوسائل الثقيلة المعتادة ، وسار في طريق الاسكندرية — السويس الصحراوية ، واحرز سبق في اقبال الرسائل . وبناء على هذه التجربة جاء في سنة ١٨٣٠ من بومباي الى السويس مراكب تجارية لأول مرة ، ولما لم يروا محمد علي مرتاحاً الى هذا اضطروا الى درس طريقة النقل النهري في الفرات ، وبعد ثلاث رحلات خلال سني ١٨٢٨ — ١٨٣٢ بين طرق البحر الاحمر ، وما بين النهرين تمكن الضابط الثاني فرانيس شيسي من الوصول الى نتيجة تختلف عما وصل اليه الاول وايد اختيار طريق خليج البصرة . ولقد اجريت تجارب قياسية بين الطرق حتى امكن الوصول الى هذه النتيجة . غير ان هذه التجارب لم تكن مشجعة لكثرة النفقات من جهة وصعوبة نقل ما يقتضي من الفحم عن طريق رأس الرجاء من جهة اخرى . والطريق التي رؤي انها الفضلى نوعا ما بالنسبة للمستقبل بعد هذه التجارب هي السكة الحديدية والسفينة التجارية معاً في آن واحد . وقد اقترحها شيسي سنة ١٨٣٧ بعد دراسة مديدة وعميقة فام بها لمعرفة قابلية الملاحة في الفرات واقترحه قام على اساس انشاء خط حديدي يبتدىء من السويدية الواقعة بين اللاذقية

واسكندرونة وينتهي بمسكنه القائمة على الفرات ماراً بحلب ، وتأسيس رحلة نقل نهري بين مسكنة والبصرة آنما لهذا المشروع .

فالانكليز كانوا على أهبة الشروع في تنفيذ اقتراح شيسي حينما اقترح المسيو غوزوت على اللورد بالمستون الاتفاق على حياض طرق السويس وخليج البصرة وحريتها . وكانت المراكب التي ارسلت قطعاً مرفقة من انكلترا الى بغداد توشك ان تبدأ بسيرها وسفرها في نهر الفرات ، وقد انشأت شركة البنسينسول والشرق من ناحية ثانية في تاريخ ١٨٤٠ رحلة نقل بحري بين الهند والسويس ، وكانت حكومة لندن تفكر في انشاء خط حديدي بين الاسكندرية والسويس بطريق القاهرة ، وتأمل ان تنال امتياز هذا الخط فتتعطل به خطة فرنسة في فتح قناة السويس .

وهكذا يبدو واضحاً ان اللورد بالمستون لم يكن يسمح لأي دولة اوروبية اخرى وخاصة لفرنسة بادعاء اي حق في طرق النقل الكبرى الواقعة بين اوروبا وامبراطورية الهند ، ولم يقصر في جوابه في التنبيه على ان انكلترا هي وحدها صاحبة هذه الامبراطورية .

— ٣ —

وفي سنة ١٨٥٤ نشبت حرب القرم . وقد ادخلت معاهدة باريس المؤرخة في ٣٠ مارس ١٨٥٦ والتي انتهت بها تلك الحرب بعض التعديلات في الصلات بين تركيا والاول الاوروبية (١) فقد تكلفت كل من انكلترا والنمسا وفرنسة وبروسية وروسية

(١) تحالف في هذه الحرب كل من انكلترا وفرنسة وساردينيا (ايطاليا) والنمسة وبروسية مع الدولة العثمانية وكان النصر في جانب الحلفاء على روسية فعقدت هذه المعاهدة التي اعترف فيها بدخول الدولة العثمانية في ساحة الدول الاوروبية وبنمها بالحقوق الدولية العامة ، واستقلالها وقام ملكها واعتبار الاخلال بموادها اخلالاً بالمنافع الدولية العامة . وتهدت الدولة العثمانية فيها بحسن رعاية ومعاملة النصارى واحترام حقوقهم وحرية ائمتهم واثبت حكم عهد لندن ببقاء المضايق مسدودة في وجه جميع الاساطيل الحربية الاجنبية نافذاً ، وواجبت حل الخلاف الذي قد ينشأ بين احدى الدول والدولة العثمانية بواسطة الدول بصورة سلمية قبل الاحتكام الى القوة ومع ان الدولة العثمانية كانت حليفة ومتصرة فللمعاهدة تعتبر وثيقة خولت الدل الاوروبية حق التدخل في شؤونها .

وساردينية باستقلال الامبراطورية العثمانية . وكان هذا بمثابة اعتراف بان اية حركة من شأنها الاخلال بهذا الاستقلال تعتبر مغامرة لمصالح اوروبا . وقد تقرر وجوب طلب وساطة الدول الموقعة على المعاهدة في حالة قيام خلاف بين تركيا واحدى هذه الدول قبل الاحتكام الى القوة . وهذا يعني ان الدول ستتدخل دائماً في سياسة الامبراطورية العثمانية . ولم يمض وقت طويل حتى وقعت مذبححة سوريا فكانت الفرصة الاولى السريعة لتطبيق احكام معاهدة باريس .

ان السلطان سليم حينما انتزع سورية من ايدي المماليك عام ١٥١٦ اهتم كثيراً لنيل مساعدة امراء لبنان واصحاب الشأن فيه . وقد ابقاهم في حكمهم ولم يتعرض لحقوقهم وامتيازاتهم ، واكتفى بضريبة خفيفة فرضها عليهم . اما سائر اقسام سورية فقد قسمت الى ثلاثة اقسام او ولايات والحقت بالاستانة ؛ وعهد بادارتها الى موظفين من الترك . وقد استمرت الامتيازات والحقوق الممنوحة لامراء لبنان الى عام ١٨٤٠ حيث نجحت ازمة الشرق الادنى . وقد حاولت تركيا استناداً الى دول اوروبا باستثناء فرنسا اغتنام الفرصة ، وحرمان لبنان من امتيازاته ، وادخاله تحت سيطرتها المباشرة . فاعتقلت امير لبنان ونفقه ، وحاكت المكائد واثارت النزاع بين الدروز والموارنة ؛ واقنعت الدول رغم مخالفة فرنسا بقبديل الامير الشهابي وتقسيم لبنان الى حكومتين احدهما نصرانية في الشمال واحدها درزية في الجنوب ، وكان هذا التقسيم نواة حرب اهلية بين الدروز والموارنة بلغت اوجها في مذابح عام ١٨٦٠ .

وقد كان من فرنسا التي كانت حامية الموارنة في احدى الحملات الصليبية ان تدخلت في الامر منذ البدء وبكل حزم وعزم ؛ غير ان جرمتها هذه كانت تتعارض مع حركة انكلترة صديقة الدروز . ولقد اوقع الدروز في الموارنة عام ١٨٤٥ مذبححة بتحريض ضمني من القنصل الانكليزي روزر ، فوقفت حكومة لويس فيليب موقفاً شديداً ، وهددت الباب العالي باحتلال سورية ، فلم يكن بذلك وبفضل بعض التدابير التي اتخذتها تركيا اعادة السكينة موقفاً . غير ان الاعداء لم يسطلحوا فيما بينهم ؛ واخذ عمال الانكليز يصورون المسلمين ان فرنسا هي المسؤولة عما منح للنصارى من امتيازات سنة ١٨٥٦ لانها هي التي طالبت ذلك وقرضته بتدخلها . وقد انتهت هذه

التحريكات والمكائد الى مذبحه هائلة في ربيع عام ١٨٦٠ ، حيث استدى الدروز يشجعهم تحريض الموظفين العثمانيين وخاصة خورشيد باشا والي بيروت على الموارنة في كل مكان ؛ في ضواحي بيروت وصيدا وحاصبيا وزحلة وبشما ودير القمر واوغلوا فيهم ذبحاً حتى بلغ عدد الضحايا سبعة الاف في مدة قصيرة (١) وفي النصف الاول من شهر تموز حدثت اضطرابات اخري في دمشق لعبت فيها كذلك اصبح والي التركي احمد باشا فقتل اكثر من عشرة الاف نصراني (٢) ولم ينج باقيهم الا بتدخل الامير عبد القادر عدونا القديم . وقد كان المسلمون يبذون نحو الاروبيين من العداء بقدر عدائهم للنصارى المحليين ، ولقد قتل قنصل هولاندة ، وتمكن ممثلو الدول الاخرى من النجاة ولكن مساكنهم دمرت . وقنصل انكلترا المستر برانك هو الوحيد الذي كان في طمأنينة تامة ؛ يستطيع ان يتجول في المدينة حراً اثناء المذبحة برعاية اصدقائه المسلمين وحماتهم ، ولم يمس اي ملك لرعايا الانكليز كما لم تمتد يد بسوء للقنصلية البريطانية وما يدعو الى الحيرة ان المستر برانك كان يتهم رفاقه الذين كانوا يشعرون بالهياج ويتوقعون الاضطرابات ويوصون بالاحتياط بالوسوسة وكثرة التوهم . وكان والي احمد باشا هو الشخص الوحيد الذي سارع الى التنصل من اي ترتيب ضد النصارى ، وكان يعرف ان حكومة لندن ظهيرة له ، وقد ظهر صدق ذلك حيث وقف السير فرغوسون في ١٣ اغستوس سنة ١٨٦٥ في مجلس النواب يلصق التهمة بين هتاف الاعضاء وتصفيقهم بالنصارى مقرر ان تبعة ما وقع تعود اليهم .

وقد دعت فرنسا الدول الى مؤتمر وفقاً لمعاهدة باريس فاجتمع ممثلوها في تاريخ ٥ ايلول ١٨٦٠ ووقعوا عهداً بعدم استقلال اي واحدة منها هذه الفرصة . ثم قرروا

(١) الغالب ان الرقم مبالغ فيه كثيراً . وما نشر عن حادثة الستين ومقدماتها وسيروا من رسائل وبوميات لبعض مشاهديها وما كتب بعد ذلك من كتب مستندة الى الوثائق والحقائق يظهر ان هذه الحادثة كانت نتيجة التحريكات الاجنبية التي لم يكن ممثلو فرنسا بعينين عنها . وان هذه التحريكات هي التي اثارت النعرة الدينية بعد ان كانت سياسة لبنان قائمة على العصية الحزبية (قيسي ويحيى) وكان النصارى والدروز والسنيون جنباً الى جنب في هذه النعرة .

(٢) وهذا الرقم مبالغ فيه كثيراً

بالاتفاق مع السلطان القيام بمظاهرة ارهابية . واخذنا على عاتقنا الوكالة عن اوروبا ، فارسلنا حملة الى سوريا بقيادة الجنرال بوفورد مؤلفة من ستة آلاف جندي ، ونزلت الحملة الى البر وطوفت في انحاء لبنان ، ولكنها لم تجد فرصة للتدخل ، ولا للسفر الى الشام . ولقد تقرر ان تمتك الحملة في سورية ستة اشهر فقط ، ثم مددت المدة الى ٥ حزيران ١٨٦١ ، حيث نجحت انكلترا في دعوة قوتنا الى الانسحاب والعودة وكان الامن من ناحية اخرى قد عاد الى نصابه فعادت .

على ان العقوبات لم تكن كافية ، وقد تصرفت الحكومة العثمانية مع المسلمين بمحابة عظيمة ، واهتمت قبل كل شيء لعدم اغضاب الانكليز . ومع ذلك فقد رمي احمد باشا بالرصاص وسم خورشيد باشا في الاستانة .

وقد وضعت لجنة دولية اجتمعت في بيروت بتاريخ ٩ حزيران ١٨٦١ دستوراً جديداً للبنان ضمن استقلاله وحماية نصاراه حماية قوية . ولقد خالف اللورد دوفرين ممثل انكلترا في اللجنة كل اقتراح بتوسيع حدود الجبل ، وكان موقفه سبباً لرد طلب النصارى ضم سهول عكار والبقاع وثلث بيروت وطرابلس وصيدا الى لبنان وتخصيب آمالهم .

ومما يجدر ذكره من ناحية اخرى ان تدخلنا وموقفنا حفزا الدروز على ترك لبنان فترح منهم جماهير غفيرة الى جبل حوران ، وتمتعوا هناك فيما بعد بحماية مندوبي الانكليز ورعايتهم ، ولم يقصر هؤلاء في اي وقت في الدفاع عن حقوق الدروز ومطالبهم تجاه رجال الحكم العثماني . ولقد ساعدتم تدخلنا على نشر فكرة «فرنسة النصرانية العدوة» في اوساط المسلمين وترسيخها في اذهانهم .

— ٤ —

ولعل المناسبة تسمح بالاستطراد الى توضيح الدور الذي قام به عبد القادر في اثناء المذبحة . فمن المعلوم ان عبد القادر بعد ان حاربنا بكل شجاعة في الجزائر من عام ١٨٣٢ الى عام ١٨٤٧ استسلم بتاريخ ٢٣ كانون الاول من سنة ١٨٤٧ الى الجنرال موريسيه وطلب السماح له بالانتقال مع عائلته الى مصر او الجزائر . ومع ان الدوق دومال قبل هذا الطلب الا ان حكومة لويس فيليب لم تجد في نفسها القوة على مخالفة

الرأي العام الافرنسي الذي كان يطالب بمعاملة عدونا بالمثل ، فظل الامير بسبب ذلك معتقلا في طولون ثم في بو واخيراً في امبواس ، وهنا اخبره البرنس ريس اي لويس نابليون في تاريخ ١٦ تشرين الاول ١٨٥٢ انه قد اخلي سبيله من دون قيد ولا شرط . فربطت هذه المنحة النبيلة الزعيم الجزائري بنا الى الابد . ولقد كتب الى ولي نعمته الذي غدا بعد بضعة ايام نابليون الثالث السطور الآتية :

« اني اقسم بان لا اقوم بحركة من شأنها الاخلال بالثقة التي منحني اياها ، وان لا أدخل بعهدي هذا وان لا انسى في اي وقت اللطف الكريم الذي نلته » .

ثم سافر في ٢١ كانون الاول من السنة نفسها الى بورسه على ظهر مركب افرنسي ، واستأذن سنة ١٨٥٥ نابليون الثالث بالانتقال الى دمشق والاقامة فيها (١) ولقد وجد هنا جزائريين كثيرين ، وخاصة الخليفة ابن سالم ومن هاجر معه سنة ١٨٤٧ حينما استسلم عبد القادر لنا ، وبعد قليل التحق به آخرون ، وهكذا تجمع حوله نحو (١٢٠٠) مغربي مخلصين له كل الاخلاص . وقد اشترى في دمشق عام ١٨٥٧ في حى العمارة القريب من الجامع الاموي بضعة مساكن واخذ يقضي حياته معزلاً السياسة متفرغاً للعبادة وتربية اولاده ورعاية جماعته وتوطينهم في ما استأجره واشتراه من المزارع في جنوب الشام . ولم يمض الا قليل حتى صار للامير الذي اشتهر اسمه في الجهاد ، واتصل نسبه بالنبي (صلعم) نفوذ وحرمة عظيمتان في اوساط المسلمين . واخذ الشعب ينوه بورعه وتقواه وتبحره في العلم على الرغم من حشد العلماء له بسبب تفوقه في العلوم والمسائل القرآنية .

وحينما علم عبد القادر في مارس سنة ١٨٦٠ ان احمد باشا يدبر مكيدة للنصارى اخبر حالا قنصلنا المسيو لانوس بالامر . وهذا بدوره اخبر رفاقه القضاصل غير انهم وخاصة قنصل بريطانيا لم يلقوا للانذار سمعاً ، وفي ٩ تموز انفجرت الثورة فرفع

(١) عما يجدر التنويه به ما كان من الامير من روح التسامح الديني حيث طلب ان يشهد مراسم تلبس التاج للامبراطور في كنيسة نوتردام حينما كان في باريس . فادعش بطلبه الافكار الافرنسية العامة .

الامير على بيته الراية المثلثة الالوان وسارع الموسيو لانوس وقناصل روسية والولايات المتحدة واليونان الى الالتجاء اليه . ثم بذل جهده مع الجزائريين حتى اعاد الامن الى نصابه وانقذ حياة اثني عشر الف مسيحي . وقد منح نابليون الثالث عبد القادر وسام الشرف مكافأة على موقفه الجميل . واخذ الرأي العام الافرنسي يعلق عليه آمالا عظيمة . حتى ان الصحف اقترحت انشاء امبراطورية شرقية تضم سورية وما بين النهرين وجزيرة العرب يتولى هو امرها . ومع ان هذا المشروع لم يقترن بأي سعي او نتيجة فانه لم يخل من اثاره لقلق الانكليز ، وصاروا من ذلك الحين يحسبون حساب النفوذ العظيم الذي كسبه الزعيم الجزائري الكبير في سورية ، ويتصدون حركاته بانتباه عظيم ؛ وقد اتسعت مخاوفهم فشمكت اولاده واحفاده من بعده على اعتبار انهم يمثلون قضية فرنسية في الشرق الادنى . ولقد جهدت انكلترة عقب الحرب العالمية في اسقاط قيمة الامراء الجزائريين من العيون وترسمت ابعادهم عن سورية على اعتبار انهم قد يكونون عائقاً في طريق سياستها فيها . (١)

— ٥ —

كانت الخطة الافرنسية القديمة لحفر قناة السويس قد تركت موقفاً بعد جلاء عساكرنا عن مصر ؛ هذا بالإضافة الى خطأ حسابي وقع فيه المهندس لوثير اثار خوفاً من وجود فرق بين مستوى البحر الابيض ومستوى البحر الاحمر . غير ان مساعي واغهورن في سبيل ايجاد واسطة اتصال سريعة ومنتظمة بين الهند وبريطانية في طريق مصر جعلت بعضهم يعودون الى دراسة المشروع ثانية خلال سني ١٨٣٣ — ١٨٣٧ ؛ ثم أخذ فرديناند دى ليسبيس بفكر في حل المسألة ايضاً ، واخيراً صحح خطأ لوثير خلال سني ١٨٤١ — ١٨٤٧ من قبل لينان بك وستيفنسون ونكريلي وبوردالوس وظهر امكان نجاح المشروع .

غير ان محمد علي كان مخالفاً لفتح القناة ؛ بل لقد رفض طلب الانكليز لامتياز

(١) في فقرة الامير عبد القادر يبدو اسلوب الكاتب المستهجن الذي علقنا عليه واضحاً وعجيباً . . .

تمديد خط حديدي بين النيل والبحر الاحمر ، وقرر ابدال الموظفين الانكليز بموظفين مصريين في المحطات المنزلية القائمة في طريق الصحراء بين الاسكندرية والسويس ايضا . وهذا الموقف لم يتغير في عهد خلفه عباس مع ان انكلترة عدلت طلبها ، واخذت تسعى في تمديد خط حديدي بين الاسكندرية والقاهرة . فلما استلم الحكم سعيد باشا تغير الموقف ، وكان ان منح فرديناند دى ليسبيس بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني من سنة ١٨٥٤ امتيازاً بانشاء وإدارة شركة تضطلع بحفر قناة السويس ، ولم يتردد الحديوي الجديد الذي خلفه في اصدار مرسوم بتاريخ ٣ كانون الثاني من سنة ١٨٥٦ يؤيد مرسوم الامتياز الاول .

ولقد احدث هذا الامتياز ازمة حادة في الصلات الافرنسية الانكليزية ؛ في حين كان يظن ان من شأن الدم الانكليزي الافرنسي الذي امتزج في حرب القرم ، والذي لم يكن قد جف بعد ان ينتج اتحاداً وطيد الاركان بين فرنسا وانكلترة . ولكن جيراننا عبر المائس اغتاضوا جداً بما احرزناه من نجاح ، لا سيما وانهم لم يستطيعوا ان يفعلوا شيئاً في خطة شيسي التي عادوا اليها ثانية بنتيجة دراسة جديدة قام بها المهندس اندرو ، حيث اقترح ان يمتد الخط الحديدي المتصور تمديده بين السويدية ومسكنه الى خليج البصرة مخترقاً وادي الفرات ، ولقد كانوا مطمئنين كل الاطمئنان الى اجابة الباب العالي الى طلب امتياز هذا الخط بالايجاب ولكنهم ادرکوا ان هذا المشروع لن يكون الا مقابلة ضعيفة لفتح قناة السويس التي ستكون فرنسا صاحبة الحكم والنفوذ عليها بدون شك . ولقد كانت ثورة السباهيين في الهند بتاريخ ١٨٥٧ - ١٨٥٩ أكدت لهم شدة ضرورة طريق مستقيم يسيطرون عليها ، ويستطيعون بها تسيير القوى الى الهند بسرعة كافية ؛ فليس والحالة هذه محل لاستغراب المعارضة الشديدة التي اثارها مشروع دى ليسبيس في انكلترة والتي لم تخف شدتها يوماً خلال السنين الخمس عشرة التي استغرقها تنفيذ هذا المشروع فعلاً . ولقد كان في المشروع الافرنسي نقطة هامة كانت هي اكثر ما اثار غضب الانكليز ، فقد منح مرسوم الامتياز الشركة جميع الاراضي التي تستطيع ان تحييها ، وكان دى ليسبيس يأمل ان بشيء مشروع ري لستين الف هكتار من اراضي جسين القديمة الواقعة غربي القناة ، والتي كانت

شديدة الخصب في عهد التوراة . وما تصوره حفر اقنية يجري فيها اليها ماء النيل العذب ، وجذب بدو شبه جزيرة سيناء نحوها . ولقد دعا الامير عبد القادر الى مشاهدة عمليات الحفر عام ١٨٦٢ على امل توجيه انظار هؤلاء البدو وطمأنة قلوبهم ؛ حتى انه خصص للامير الفتي هكتار في اراضي بشر ابي بلح الواقعة جنوب منفيس . ولقد بدأ الامير يستغل ما له من حرمة وصيت في نفوس المسلمين في جذب البدو وتجميعهم حول مشروعات الشركة ، بل ولقد فكر في ارسال احد اولاده ليعيش بينهم ايضاً . فن السهل والحالة هذه تخمين شدة ما يمكن ان يشور في نفس اللورد بالمرستون من قلق حيث اخذ يرى من الان نشوء دولة صغيرة في منطقة السويس تحت الحماية الافرنسية تستطيع ان تقفل طريق الهند في وجه انكلترة . ولما لم يكن في امكان الوزير البريطاني تعطيل المشروع مباشرة فقد عمد الى اثارة جسد الحديوي وهو اجسه ، لاسيما وقد كان الحديوي في قلق من جراء ما صار لعبد القادر من صيت ونفوذ في الشرق العربي . وقد كان من تأثير التلقين الانكليزي ان طلب اسماعيل من دى ليبس العدول عن مشروعه ، فاستجاب هذا الى الطلب بتفاعم تام مع الامير عبد القادر وما يحذر ذكره ان الانكليز فكروا في وسيلة خاصة بهم لتأمين اتصالهم بالهند في حالة قفل قناة السويس في وجوههم ، ولمزاحة هذه القناة في الوقت ذاته ايضاً . وهذه هي مشروع فتح ترعة بين البحر الابيض والبحر الاحمر لتبتدىء من حيفا وتمر بمرج عامر فالغور الذي ينحط عن سطح البحر نحو ٣٩٣ متراً وتمتدج ببجيرة لوط ، وتنتهي الى البحر الاحمر عند العقبة .

وفي تاريخ ١٧ تشرين الثاني من سنة ١٨٦٩ افتتحت قناة السويس رسمياً على رغم كل ما بذله الانكليز من سعي ومعارضة . وهذا التاريخ في تجارة البحر الابيض هو تاريخ انقلاب حقيقي حقاً ؛ وقد تمكن التجار الافرنسيون منذئذ من الاستيلاء على قسم من تجارة آسيه ولم تعد سلعها منحصرة في لندن ولا تتصل الى اوروبا الا عن طريقها ؛ ولم تلبث انكلترة ان اندجحت في الامر الواقع ولم تبق جامدة نحوه ؛ فلقد اقتنعت بان طريق البحر الاحمر قد اصبحت طريق الهند الكبرى ثم اخذت تبذل جهودها في سبيل كسب حق ويد في ادارة شركة القناة بعد ثمانيتها اشد الممانعة

للاشتراك المالي في المشروع في اوله . ولقد واتها الفرصة في تشرين الثاني من سنة ١٨٧٥ حيث اشترت من الحديد الى (١٧٦٦٠٢) سهماً التي قدمتها الشركة هدية اليه (١) بمئة مليون جنيه فكسبت بذلك حقاً يكاد يقرب من حق فرنسا في ادارة الشركة . ونحن المسؤولون الوحيدون عن هذا الفوز الانكليزي ؛ فلقد راجعنا الحديد قبل غيرنا في امر ما هو في حاجة اليه من مال ؛ على ان وزراءنا لم يجرأوا على الدخول في اي تعهد قبل مراجعة البرلمان ؛ فاضاعوا فرصة جعل القناة افرنسية بحتة .

— ٦ —

وقد كان التبذير الجنوني الذي اندفع فيه اسماعيل هو السائق له الى بيع اسهمه ومع ذلك فان بيعها لم يفده الا تأخير الازمة الحادة التي كان فيها برهة وجيزة ولم تلبث مصر ان افلست في ٦ نيسان ١٨٧٦ .

ولقد كان هذا الحدث سبباً للتدخل الاوروبي ، فقررت دول اوروبا قيام لجنة اشراف وتنظيم افرنسية — انكليزية ، غير ان حزب عرابي الوطني عرقل نشاط اللجنة ثم تلاهت احداث مهمة من انسحاب اسماعيل الى نصب توفيق الى ثورة داخلية الى عدوان على الاوروبيين وقتلهم (٢) مما هباً للانكليز الفرصة ، فسارعوا الى اغتنامها حيث ضربوا الاسكندرية بالمدافع ثم ازلوا عسكرهم الى البر في ١١ تموز من سنة ١٨٨٢ ، وهزموا جيش عرابي في التل الكبير ودخلوا القاهرة .

ولقد كان من الواجب علينا ان نشترك في عملية الاحتلال ، ولكن حكومتنا تمسكت بمعهدا باحترام معاهدة باريس وانتظرت توكيل اوروبا لها حتى تتدخل ، ولم

(١) هذا خلاف الواقع وهو مفارقات المؤلف واسلوبه الذي علقنا عليه . والوثائق التاريخية المصرية تثبت ان مصر اشترت نصف اسم الشركة يوم انشائها بثلاثة ملايين ونصف جنيه وان مصر تنازلت عن املاك وتقدمت عمالا ودفعت تمويضات بلغت قيمتها ١٣٦٥ مليون جنيه علاوة على ثمن الاسم وان اسماعيل باعها باربعة ملايين ونصف جنيه .

المغرب نقلا عن مجلة مسامرات الحبيب المصرية العدد الثاني تاريخ ٢٢ يوليو ١٩٦٥

(٢) هذه نكأة ثبت زيف كبير فيها بالدراسات والمذكرات التاريخية المصرية . المغرب

يتسنى لها هذا فتركت الميدان خالياً للانكليز فسارعوا الى اشغاله ايضاً .
وبدلاً من ان يكون استنكافنا عن التدخل عاملاً في توطيد السلام فقد سبب
بعض الارتباكات ؛ حتى لقد كاد الامر يصل في سنة ١٨٩٨ الى اشتباك انكليزي
افرنسي . ولقد قال الموسيو دوفريبيجن « ان دول اوروپا لو تصرفت في مسألة
مصر صرفها الحكيم الموفق في المسألة السورية ، ولو انها انابت عنها فيها انكلترة
وفرنسة معاً لما حدث ما حدث من هذه الارتباكات ؛ ولكن الدول لم تستطع ان
تتفاهم فيما بينها وتقوم بحركة مشتركة ومنسجمة بل لقد وقفت المانيا موقفاً غامضاً
يبعث على الشك والحيرة حتى كأنها كانت ترغب في بقاء المسألة المصرية وسيلة
تضاد وسوء تفاهم دائمة بين انكلترة وفرنسة .

ومما يجدر ذكره ما تم سنة ١٨٨٨ بين حكومتي باريس ولندن من تفاهم حول مسألة
قناة السويس ؛ كان من نتيجته توقيع معاهدة دولية في الاستانة بتاريخ ٢٢ ايلول
من هذه السنة تنص على حياد القناة وحرية الانتفاع بها اثناء الحرب ؛ حيث منحت
المحاربين حق المرور منها ضمنى بعض القيود .

على ان الاحتلال الانكليزي لمصر ابقى هذه المعاهدة في حكم النظريات فقط ؛ ولا
سيما قد تقدمت انكلترة عند توقيع المعاهدة بقيد تحفظي حول تطبيق موادها وهو
وجوب رعاية الحالة الاستثنائية الناتجة عن الاحتلال الانكليزي الموقت ؟ وعدم
اخلال المعاهدة بحرية حركة الانكليز اثناء احتلال عسكرها مصر . ولقد كانت
المعاهدة ضرورية جداً لا لأن القناة هي قناة بحرية فقط بل لأن هذا الحياد الذي
نصت عليه كان مما لا يد منه ليس بالنسبة لمصر وقناتها بل وللبحر الاحمر وباب
المنذب اذا ما اريد الانتفاع به وجعله حقيقة راهنة (١) .

ولقد غدت سياستنا بعد هذه الاحداث قاصرة على طلب تعيين أجل لانتهاء الاحتلال
الانكليزي من آن لآخر . على اننا حاولنا في اواخر القرن التاسع عشر فتح

(١) ان دي ليس كان اقترح في سنة ١٨٥٦ اضافة شرط الى معاهدة باريس ينص على

المسألة المصرية بما كان من دخول بعض فصائلنا اراضي مصر من جهة النيل الاعلى . غير ان الاتفاقية الافرنسية الانكليزية التي وقعت بتاريخ ٢٦ مايس سنة ١٨٩٩ بعد حادثة فاشوده (١) اعترفت بسيطرة انكلترة على السودان المصري . اننا لم نحاول استرداد الانزاس واللورين باعلان حرب خاصة فن الطبيعي ان لا نحارب من أجل مصر !

— ٧ —

وكان مما لا مندوحة عنه ان يبدو اثر التشاد والمزاحمة على برزخ السويس بين انكلترا وفرنسه في البحر الاحمر وباب المندب . فلما استقر الانكليز في عدن سنة ١٨٣٩ اراد المسيو تير مقابلة هذه الحركة فأمر بانزال عساكر افرنسية الى رأس الشيخ سعيد الواقع امام يريم ، وقد استند في عمله هذا الى معاهدة عقدت في القرن الثامن عشر بين دولا بورونيه وزعماء قبائل الخميس ودرين حيث تخلى هؤلاء عن هذا الموقع لفرنسة ، وكان ذلك نتيجة لما قام بين فرنسة وانكلترة من تراحم على المواقع العسكرية الجغرافية في مدخل البحر الاحمر ورغبة كل منها في الاستيلاء عليها . على انه لما يكن لما كان من جهد افرنسي اذ ذاك نتيجة عملية ما . وقد كان والحالة هذه من الطبيعي ان يكون فتح قناة السويس عاملا في اشتداد تلك المزاحمة في تلك المناطق .

ولقد خطت انكلترة الخطوة الاولى سنة ١٨٥٤ بأخذها جزائر قرية ومرية من سلطان مسقط ؟ فارسل نابليون الثالث في سنة ١٨٥٧ اسطول الاميرال ماركيت ليمتجول في تلك الانحاء واجاب الانكليز على هذه المظاهرة باحتلالهم يريم في السنة التالية بصورة نهائية .

(١) فاشوده . وقع على النيل على بعد ٥٠ كيلومتر من جنوب الخرطوم ، جاء اليها من داخل افريقية ضابط افرنسي اسمه مارشان على رأس فصيلة افرنسية زنجية ، ورفع عليها العلم الافرنسي . وكان كشتنر يقود الحملة الانكليزية المصرية لاتحاد ثورة الدراويش في السودان ، فذهب على رأس قوة الى فاشوده وطلب ائزال العلم فأبى الضابط الافرنسي ذلك على الرغم من ضعف قوته ازاء قوة كشتنر واستعد للدفاع عن العلم المرفوع . ثم جرت اتصالات بين العاصمتين صدر الامر بنتيجتها الى مارشان بالانسحاب .
المعرب

وفي سنة ١٨٦٠ تخلى الرأس شعري لنا عن جزيرتي زوللا ودمسية في خليج اودوليس ، ولكننا لم نقم بأي حركة لاحتلالها والتصرف فيها . ولما سير الانكليز حملتهم عام ١٨٦٤ الى ماغدالا ضد النجاشي ثودوروس لم يترددوا في ازال عساكرهم الى زوللا استفادة من ذلك التقصير . على انهم تركوا خليج اودوليس بعد انتصار حملتهم ، واعترفوا بحقنا في تلك المنطقة .

وفي عام ١٨٦٢ اهتم الموسيو توفيل بصورة خاصة لتنفيذ خطة احتلال الشيخ سعيد والاستقرار فيها ، وحاول كذلك الاسقيلاء على اوبوق فقام بمفاوضات في سبيل ذلك مع زعماء ونقله انتهت الى نتيجة ايجابية نظريا بتاريخ ٢٠ مايس ١٨٦٢ حيث لم نخط خطوة عملية حينئذ الى الاحتلال وتثبيت التصرف الافرنسي ، وظل الامر كذلك الى عام ١٨٨٣ اي الى ان اغلق الانكليز في وجهنا عدنا بحجة الحياذ حينما نشب الخلاف بيننا وبين الصين .

وكذلك حدا فتح قناة السويس بريطانية الى تزييد اهتمامها للتبسط في انحاء جزيرة العرب الجنوبية وخاصة حضرموت ، ولقد اعترفت تركيا رسمياً بالسيطرة الانكليزية على هذا القسم عام ١٨٧٣ ثم عام ١٩٠٣ ، ونتيجة لذلك ادخلت بريطانية شيوخ وامراء هذه المنطقة في حمايتها واحدا بعد آخر . ونذكر خاصة ان سلطان قشين وسلطان ماكالا قد قبلوا بهذه الحماية في عامي ١٨٧٥ و ١٨٨٨ .

وفي سنة ١٨٦٨ باع على ناباط احد زعماء قبيلة درين جميع حقوقه في الشيخ سعيد لبازين رابود احد كبار تجار مارسيليا ، وعلى الرغم من احتجاج الباب العالي وضع مواطننا يده على المكان الذي اشتراه ، وصار في سنة ١٨٧٠ مستودع فحم للسفن الافرنسية . وقد اغتنمت بريطانية الفرصة فحملت سلطان لحج على التخلي عن اراض له ، ثم وسعت سيطرتها في منطقة عدن وبسطت يدها اخيرا على زبلع وبربره وسوقوطرا .

ولقد انصرفت نفس بازين رابود بعد حين عن الشيخ سعيد فعرض على الحكومة الافرنسية شراء حقوقه فيها ، فرفضت الحكومة هذا العرض . وقد اغتنمت تركية فرصة تردنا فحلت محلنا مطمئنة القلب بان لندن تترتاح الى هذه الحركة وتراها

في مصلحتها ، لأن الاتراك يعرفون ان الانكليز متحسبون من وجودنا في الشيخ سعيد ، حيث تكون قيمة بريم العسكرية صفرا اذا ما حصن ذلك الموقع تحصيناً قويا .

وقد بذلنا جهدنا في التبسط في منطقة ابوق لتعويض ما اضعناه ، فاستولى الموسيو لاغارد في ستي ١٨٨٤ و ١٨٨٥ على بعض المواقع من سلطاني غوبا وتاجورا ، واستولى سنة ١٨٨٥ على جيبوتي ، وكانت هذه ذات خطورة خاصة لانها مخرج تجاري لاقليم هرر الحبشي الغني . وقد استطاع لاغارد ان يعقد اتفاقا مع منليك نجاشي الحبشة سنة ١٨٩٧ وافق هذا فيها على ان تكون جيبوتي ثغر الحبشة الرسمي . وقد ساعد هذا الاتفاق على تأسيس الشركة الحبشية الافرنسية في عام ١٩٠٨ لخط حديد جيبوتي — اديس ابابا ، وبوشر في الحال في انشاء هذا الخط ، وكانت الانشاءات قد تقدمت تقدما كبيرا عندما نشبت الحرب العالمية .

ولقد كان استقرارنا في جيبوتي داعياً لاحتجاج انكلترة ، ثم عقدت معاهدة بين حكومتي باريس ولندن في ٨ شباط من سنة ١٨٨٨ نصت من جهة على ضمانه ملك ولاية هرر ، وثبتت من جهة اخرى الحدود بين الاراضي الافرنسية ومنطقتي زيلع وبربره اللتين احتلها الانكليز عندئذ عام ١٨٦٨ .

ولقد اخذت ايطاليا تقوم في هذه الاثناء بدور ناجح في سبيل الحلول في بلاد الحبشة وكان للتشجيع الانكليزي اثر في حركة ايطاليا ونجاحها ، فقد رأى الانكليز ان الحلول الطلياني يمكن ان يكون من جهة وسيلة من وسائل الضغط على انصار المهدي السوداني ، ومن جهة وسيلة لمزاومة نفوذنا في سواحل البحر الاحمر . وقد ثبتت الاتفاقات الثلاثة التي عقدت بين ايطالية وانكلترة في عامي ١٨٩١ و ١٨٩٤ الشروط التي تتخلى في نطاقها انكلترة عن حقوقها ومطالباتها في بلاد الحبشة . وقد انطوى الاتفاق الثالث منها على نقض صريح بعهد ضمان ملك ولاية هرر الذي نص عليه الاتفاق الافرنسي الانكليزي عام ١٨٨٨ ، مما حمل فرنسة على الاحتجاج والاعتراض على ان ما نزل في الطليان من النكبة في عدوه جعل احكام هذه الاتفاقات بعد قليل في حكم العدم .

— ٨ —

ولما كنا في حالة تشاد وتزاحم مع الانكليز على سواحل البحر الاحمر ومضيق باب المندب فقد كنا كذلك على عمان والمواقع الاخرى التي تقع على المحيط الهندي في خليج البصرة .

ولقد اقامت حكومة الهند معتمدا مقبلا لها في مسقط اثناء حملة نابليون على مصر كما ان نفوذ الانكليز اخذ يقوى لدى السلطان السيد سعيد نتيجة لما اسدته البحرية الانكليزية اليه من معونة وتشجيع تجاه الوهابيين ، وفي التشكيل بقراصنة ولصوص الحسا والبحرين وسائر تلك السواحل . على ان حكومتي انكلترة وفرنسة عقدتا اتفاقا فيما بينهما سنة ١٨٦٢ تعهدتا فيه باحترام استقلال كل من سلطان مسقط وسلطان زنجبار (١) وقد ايد الاتفاق الذي عقدناه عام ١٨٩٠ مع الانكليز والذي تخلينا به عن مطالبنا وحقوقنا في الزنجبار مقابل اعترافهم بحقوقنا في ماداغسكار استقلال سلطنة مسقط وعمان ولكن هذا لم يمنع الانكليز من بذل السعي والحصول بصورة خفية من سلطان مسقط على ارض يقيمون عليها مستودعا للفحم في مدينة عمان . وقد حدا هذا بالفرنسيين الى سلوك نفس الحطة والحصول سنة ١٨٨٨ على اذن باقامة مستودع للفحم في بندر السحت الواقعة على بضعة كيلو مترات من جنوب مسقط ومع ذلك فقد كان هذا مبعث توتر شديد بين الفرنسيين والانكليز ، وارسل والي الهند العالم الجديد اللورد كورزون في شباط سنة ١٨٩٩ المعتمد الانكليزي في بندر بوشير الى سلطان عمان يطلب منه استرداد الاذن الذي منحه لنا . ولقد وقعت هذه الحادثة عقب حادثة فاشودة بقليل فحدثت دوبا وهاعا في الاوساط السياسية . على ان الامر انتهى الى اتفاق اعترف فيه الفريقان بحق متساو لسكل من امتيها ، واعترف الانكليز بحقوقنا في انشاء مستودع للفحم مثلهم .

(١) ان اهتمام نابليون الثالث لمسط نشأ ايضا عن ما كان يربط اهالي الزاب في الجزائر

وتجدد الخلاف عام ١٩٠٢ ، حيث تشجع سلطان مسقط مما رآه من التشاد بين الافرنسيين والانكليز فاقدم على سلب حق القضاء من قنصلنا الذي كان يمارسه في محمياتنا ، واحيل الامر الى محكمة لاهاي التي ايدت حقنا سنة ١٩٠٥ مع بعض التحديد .

وقد نجحت مصاعب وخلافات كذلك في صدد تجارة السلاح . حيث اخذ الانكليز يتبرمون من هذه التجارة التي كانت منحصرة في الايدي الافرنسية ، ويشتكون من انها مما يشجع على التمرد والثورة في حدود الهند الغربية ؛ ولم تقبل نحن التخلي عن هذه التجارة الا بالغاء مثيلتها على سواحل فاس بالمقابلة . ومع ذلك فقد انتدب الاميرال سلاسل لمكافحة هذه التجارة ووفق على القضاء عليها في عمان سنة ١٩١٢ بعد ثلاث حملات قام بها سني ١٩٠٩ و ١٩١٠ و ١٩١١ . على ان لاتفاق الافرنسي الانكليزي عام ١٩٠٤ كان خفف كثيراً من حدة التشاد والتراحم بين الطرفين في افليم مسقط .

— ٩ —

ومؤخراً اخذت السياسة الالمانية التي كانت تنذر بخطرها يوما بعد يوم تقلق بال حكومتى لندن وباريس في آن واحد ؛ وساقتهما الى ادراك وجوب حل كل خلاف بين الانكليز والافرنسيين في اي مكان .

لم تكن فرنسا التي كسفت جهودها في شمال افريقيا تضمر نية فتح في الامبراطورية العثمانية ، ومع عزمها على الدفاع عن حقوقها في حالة تقسيم هذه الامبراطورية فانها لم تكن ترغب في تزييقها . وكانت تقدر انها لا تستفيد شيئاً من انحلالها ما دام في امكانها ادامة نفوذها فيها بحرية بواسطة بعثاتها التبشيرية والثقافية ، ولم تكن تريد شيئاً غير الاحتفاظ بما لها من حق الحماية الدينية ، وما خولتها اياه الامتيازات ، كما انها لم يكن لها من مطمع الا في حرية تجارية معقولة في الاقاليم الاسيوية التي تضمها هذه الامبراطورية . ثم انها من جهة اخرى ليس لها ان تستمر الى ما شاء الله في الاعتراض على ما لانسكترة في مصر من مصالح خاصة ، ولا سيما قد كان

اشترآكها في الاحتلال العسكري سنة ١٨٨٢ ميسوراً لها ومنوطاً برغبتها فلم يكن لها والحالة هذه الا قبول الامر الواقع والاعتراف به والرضاء عنه . غير انها كان لها الحق في الحصول على تعويض عادل عن ذلك بالتسليم بحريتها التامة في فاس وهذا ما تضمنه الاتفاق الافرنسي — الانكليزي في ٨ نيسان سنة ١٩٠٤ ، فكان خاتمة لذلك الدور الطويل الذي قضته فرنسا وانكلترة في حالة تشاد وخلاف وحالاً للمسألة المصرية بينهما . ولقد تعهدت بريطانيا فيه ان لا تغير في مصر شيئاً من الحالة الراهنة (الستاتيكيو) ، وتخلت فرنسا من جانبها عن طلب تعيين اجل لانتهاى الاحتلال الانكليزي فيها .



الفصل الخامس تبسط روسيا

ان بلاد الهند قارة احيط طرفان من اطرافها بالمحيط
وطرف ثالث بالجبال . ووراء هذا السور بلاد مترامية
الاطراف وليس لنا مطمح في احتلالها . ولكننا لا
نظيق ان ينفذ اليها عدو . ونظل قريبي المين اذا
كانت في ايدي اصدقاء وحلفاء . اما اذا حاول محاول
ان يقترب من اسوارنا بنية عداينة فانا نضطر الى
النضال والدفاع وهذا هو مفتاح سياستنا في بلاد العرب
وايران وافغان .

من خطاب للورد كوزون في ٣٠ مارس ١٩٠٤

الأسس الرئيسية للسياسة الروسية - مسألة المضايق - ارمينية - ايران - خليج البصرة -
تركستان وافغانستان - الاتفاق الروسي الانكليزي سنة ١٩٠٧ - مسألة الخط الحديدي الايراني -
المفاوضات الانكليزية الروسية في سنتي ١٩١٢ و ١٩١٤

— ١ —

لم تستطع روسيا بسبب الوضع الجغرافي ان تسير الدول الغربية في حركات
الحلول في آسيا عن طرق الشرق الادنى القديمة ورأس الرجاء ، ولكن هذا لا يعني
انها لم يكن لها مطمح ورغبة في الحلول والتبسط نحو البحر الابيض المتوسط وقلب
القارة الاسيوية وشواطئ المحيط الهندي ، او انها لم تسر وراء تحقيق هذا المطمح
والرغبة سيرا عملياً . فلقد بذل بطرس الاكبر جهوده خلال اربعين سنة (١٦٨٢ -
١٧٢٥) في سبيل طرد تركية من سواحل البحر الاسود الشمالية بسائق ذلك
المطمح ولو لم يحصل على نتيجة ، ولقد اهتم كذلك للانتفاع من طرق بحر الخزر في
تحويل تجارة آسيا التي كان يتنازعها دول الغرب وتزاحم عليها في البحر الاحمر والمحيط

الهندي الى بلاده . ولقد اشار مرة الى سلسلة من المعابر والطرق المؤدية الى جنوب بحر الحزر وقال لبعض ضباطه « هذه هي طرقنا الى الهند ، وان يستطيع احد في الدنيا ان يأخذها منا » . ولقد دس يده في النزاع الذي قام في ايران عام ١٧٢٣ وانزل جنوده الى استراخان وسيرهم منها الى طاغستان . ولم يمض وقت طويل حتى صار سيد الدربند وباكو وجيلان ومازنداران واسترآباد .

ومع ان هذه المناطق قد عادت الى ايران في سنتي ١٧٣٠ - ١٧٤٠ في عهد آنا ايواناتونا الا ان فتحها يمكن ان يعد خطوة عملية في سبيل التبسط الروسي نحو خليج البصرة والمحيط الهندي كما هو واضح .

ومنذ هذا العهد اخذت سياسة القياصرة الشرقية تستهدف ثلاثة اهداف رئيسية .
اولا - تمزيق الامبراطورية العثمانية للاستيلاء على ارث الباليولوجيين البيزنطيين الذي اعتبروا انفسهم اصحاب الحق فيه .

ثانياً - التزول الى خليج البصرة وشواطئ المحيط الهندي .

ثالثاً - تحويل تجارة ايران وهندستان وآسيا الوسطى الى روسيا .

وقد صارت هذه الاهداف الواسعة مبعث خلاف وتصادم مستمرين بين روسيا وانكلترا في القرن التاسع عشر لتعارضها مع المصالح البريطانية .

— ٢ —

ان الانكليز لم يدركوا لاول وهلة مدى خطورة ما كان في سنة ١٧٧١ من قدوم السفن الروسية من بحر البلطيق ودخولها الى البحر المتوسط . كما انهم لم يستشعروا بخطر كبير يحفزهم الى الاهتمام حينما مكنت معاهدات قينارجة عام ١٧٧١ واستانبول عام ١٧٨٤ وبارس عام ١٧٩٢ (١) الروس من توطيد اقدامهم في

(١) معاهدة قنارجة عقدت نتيجة للحرب الروسية العثمانية التي نشبت سنة ١٧٦٨ ودامت ست سنين واتصر فيها الروس ودمر الاسطول العثماني . وفي اثناء هذه الحرب اندلعت نار ثورة شيخ البلد وابي الذهب في مصر والشيخ ضاهر في فلسطين فساعدتهم الاسطول الروسي وانزل بعض الفصائل الى صيدا وبيروت وقد نال الروس بموجب المعاهدة حقوقاً كثيرة من جعلتها حق حماية الارثوذكس . وقد انساخت القرم بما عن الدولة العثمانية في ما انساخت . اما المعاهدتان الاخرتان فهما دوليتان . نالت روسيا بهما اعترافات دولية ببعض الحقوق والمراكز على شواطئ البحر الاسود .

سواحل البحر الاسود الشمالية في عهد كاترين الثانية . غير أنهم لم يلبثوا ان قلقوا واضطربوا وادركوا الخطر حينما رأوا ملاحى سيس اولوف يحتلون بيروت عام ١٧٧٣ وحينما لمسوا اليد الروسية تندس لتدبير بعض المكائد في مصر . كذلك فقد انزعجوا من وضع جزر ايونيين (١) تحت حماية القيصر نتيجة لمعاهدة اميان ولم تقبل حكومة لندن في أي وقت اشتراك الاساطيل الانكليزية الروسية في حركة ما ضد الاستانة لانها كانت تخشى ان يجر مثل ذلك الى توطيد قدم الروس في المجال البحري او بروزهم في الميدان الدولي بصورة قوية تجر لها اشكالات وتنافسات جديدة . ولما مكنتها الظروف عام ١٨١٤ من الحلول محل الروس في جزر ايونيين لم تضيع الفرصة لحظة ما ، لان موقع هذه الجزر يساعد سفنها على ترصد مكائد الروس والوصول بكل سرعة حين الاقتضاء الى مضيقي الدردنيل والبوسفور .

وبعد سنة ١٨١٥ اشتد قلق الانكليز ، لان الروس انشأوا اسطولاً في البحر الاسود بعد ان وطدوا اقدامهم في سواحله . ولم يكونوا يكتبون حرصهم على عبور اسطولهم المضائق وايجاد مخارج لغلات ولاياتهم الجنوبية في البحر الابيض ، ولا سيما بعد ان خولتهم معاهدة ادرنة (٢) عام ١٨٢٩ حق عبور المضائق ، وحينئذ اتخذت انكلترة لنفسها صفة الحامي الرسمي لتركية ، واخذت تقف في وجه مطامع القياصرة دون تستر . وقد اغتنمت فرصة مفاوضات اتفاقية المضائق عام ١٨٤١ (٣) ومعاهدة باريس عام ١٨٥٦ وعهد لندن عام ١٨٧١ (٤) فحملت الدول الاوربية على ابعاد روسية عن البحر المتوسط .

(١) مجموعة من جزر بحر ايجه .

(٢) هذه معاهدة اتفاق دفاعي عقدت بين الدولة العثمانية وروسية سمح فيها لروسية بعبور المضائق .

(٣) هذا الاتفاق عقد بين الدول الاوربية بما فيهم الدولة العثمانية وايد بقاء المضائق مسدودة في وجه الاساطيل الحربية باستثناء سفينة حربية صغيرة تنقل سفارة الدولة التابعة لها وترفع عليها وترسو في مياه الاستانة بمرسوم سلطاني خاص .

(٤) عدل هذا العهد بعض احكام اتفاقية عام ١٨٦١ حيث اعطى للدولة العثمانية حق السماح بمرور الاساطيل للدول المتحالفة معها من المضائق ايام السلم .

على ان معاهدة برلين (١) بخلفها دولتي بلغاريا ورومانيا قد ادخلت تعديلا جوهريا على مسألة المضائق ، حيث لم تبقى تركية وروسية وحدهما دولتي البحر الاسود ، وصار لرومانيا وبلغاريا مصالح فيه ايضا قد تكون مضادة لمصالح روسيا . ولم يمض طويل وقت حتى صارت هذه المسألة مسألة دولية ولا نحل الا دوليا .

وبعد هذا لم تحاول روسية ادعاء اي حق رسمي على الاستانة ، وصارت تكتفي بطلب استمرار الحالة الراهنة في الاراضي العثمانية . وركزت رغبتها في حق مرور اسطولها الحربي وسفنها التجارية من المضائق في كل وقت . ولقد جعلت روسية هذه الرغبة موضوع بحث في سنتي ١٩٠٨ و ١٩١٢ ، وقوبل عرضها بالاجمال مقابل ملائمة من كل جانب ؛ غير انه لم يقع تغيير ما في الموقف الى ان انفجرت الحرب العالمية . وحيث مدقت اسلكتة — وكان ذلك في تشرين الثاني سنة ١٨١٤ وبدون مشاورتنا وموافقتنا — حق روسية في التصرف في الاستانة والمضائق واذاقت ذلك متراجعة في هذا تراجعا عجيبا عن سياستها التقليدية .

على ان الروس لم يكونوا يرغبون في الوصول الى البحر الابيض عن طريق الاستانة فحسب بل وعن طريق الاناضول ايضا . ولقد منحتهم معاهدة ادرنة القسم الممتد من انابا الى بوطي من سواحل البحر الاسود . ومنحتهم معاهدة اياستفانوس (٢)

(١) عقدت هذه المعاهدة سنة ١٨٧٨ للنظر في معاهدة اياستفانوس وقد ادخلت اليها بعض التعديلات .

(٢) عقدت هذه المعاهدة نتيجة للحرب الروسية العثمانية التي نشبت سنة ١٨٧٧ - ١٨٩٣ والتي انتهت فيها روسية . والموقع في ضواحي الاستانة وقد اعترفت الدولة العثمانية فيها باستقلال الغرم ورومانيا والجبل الاسود خائيا وبنشوء امارة بلغارية واسعة تابعة بالاسم لها كما تنازلت بموجبها عن الفارس واردهان والباطوم وباريزيد في ارضروم وتمهدت باجراء اصلاحات في ولايات الارمن تحت اشراف روسية . وقد قلقت بريطانيا من العواقب وسعت لدى الدول الموقفة على معاهدة باريس بحجة ان معاهدة اياستفانوس قد اخلت بتلك المعاهدة فاجتمع ممثلو الدول في برلين سنة ١٨٧٨ واعادوا النظر فيها ووضعوا معاهدة جديدة بدلها عدلت كثيرا من احكامها . ومن جملة ذلك نصيب حدود بلغاريا وابقاء باريزيد في ملك الدولة العثمانية وسلب اختصاص روسية بالاشراف على اصلاحات الولايات الارمنية وجعل ذلك لدول معاهدة باريس جميعها .

اردهان وقارص وبازيد من ولاية ارضروم لولا مؤتمر برلين ، ولو تم هذا لسيطروا على جميع ارمينية . ولاصبح في امسكانهم التقدم من طريق ملاطية اوديار بكر حتى يصلوا الى اسكندرونة .

غير ان انكلترة كانت يقظة فأنارت قلق اوروبا من عواقب معاهدة اياستفانوس ، وتمكنت من الغائها تقريبا في مؤتمر برلين واقامة معاهدة برلين مقامها . بل لقد تمكنت من عقد معاهدة سرية مع الباب العالي بتاريخ ٤ حزيران ١٨٧٨ بين فترتي المعاهدتين تعهدت فيها بالدفاع عن اراضي الامبراطورية العثمانية في آسيا الصغرى ، وحصلت مقابل ذلك على جزيرة قبرص وهي جزيرة عظيمة الخطورة من الوجهة العسكرية الجغرافية ، وصار في امكان انكلترة بها جعل طريق الفرات تحت ترصدها والتحكم في خليج اسكندرونة وقفل طريق فلسطين في وجه روسية ، حيث ظل ممثلو القيصر بالرغم من احكام معاهدة باريس يدعون حماية الارثوذكس فيها . ولقد استخلصت انكلترة ايضاً وعداً من الدولة العثمانية يجعل اصلاحات الولايات الارمنية تحت اشرافها ، على انها رضىت باشتراك الدول الاوروبية في هذا ، لان المهم لديها ان لا تدع الميدان لروسية وحدها في ارمينية .

وقد قرر مؤتمر برلين بناء على اقتراح انكلترة ان تكون باكو تقرأ حرراً ، وان لا يقيم الروس فيه اي تحصينات . ونقيد ان هذا الشرط لم يمنع القيصر اسكندر الثالث من اقامة منشآت عسكرية عديدة في اطراف هذه المدينة .

— ٣ —

ولقد انتهى النزاع الروسي الايراني الذي اشرنا اليه في سياق الكلام عن بعثة غاردان بمعاهدة كلستان عام ١٨١٣ التي سلم الشاه فيها بحق الروس في التصرف في كرجستان وطاغستان وشيروان ومنغريلية وابخترانية واثاسية وغوريسه ، كما اعترف بحقهم في الملاحة في بحر الخزر ، بل وقد وقع عهد بين الطرفين بتحالف دفاعي وهجومي ايضاً . غير ان قيمة هذا الاتفاق قد نقصت كثيراً بعد تصديق المعاهدة المعقودة بين ايران وانكلترة سنة ١٨١٤ على اثر انسحاب غاردان . ولقد نصت هذه

المعاهدة على توسيط انكلترة في كل نزاع تكون ايران فيه طرفا . وهكذا غدت ايران محصورة بين روسية وانكلترة ، وصار لكل منها مجال لتهديدها وجذبها وخذعها ونهبها وسلبها .

وفي سنة ١٨٢٨ نشبت حرب بين روسية وايران انتهت بمعاهدة «تركمان شاي» ؛ وقد نالت روسية بها اريفان وناهشيوان وجبل ازاراط وبلاد الارمن الممتدة الى ساحل اراس ؛ ومنذئذ اقامت كل من انكلترة وروسية تمثلا في طهران ثم وقعتا فيما بينهما سنة ١٨٣٤ اتفاقا ضمنتا فيه استقلال ايران ليخف بينها التزاحم والتصادم .

على ان هذا ايضا لم يمنع روسية من بث الدسائس والتحريك في جميع الاراضي الايرانية وتحريض الايرانيين احيانا على العدوان على بلاد الافغان . ولقد حال الانكليز مرتين دون استيلاء الايرانيين على هرات ، وكانت الاولى باحتلالهم بندربوشير وجزيرة قارغ سنة ١٨٣٣ ، والثانية بقصفهم بندربوشير وبندر عباس من البحر سنة ١٨٥٥ . وقد تمكنت روسية بعد سنة ١٨٧٨ من تأليف قوة من (٥٠٠٠) قازاقي ايراني وتدريبها وجعلها تحت اشرافها ، ووطدت بذلك نفوذها في طهران على اساس مكين .

— ٤ —

وبينا كانت روسية تسير قدما في سياسة السيطرة والتحكم في ايران كانت بريطانيا تسرع الخطى في سبيل جعل خليج البصرة بحيرة انكليزية ؛ حيث سيرت في سنتي ١٨١٩ و ١٨٢١ حملات تفكيلية ضد اصول رأس الخيمة ، وقام الملازم ماك كلور في هذه الاثناء برحلات فنية عديدة في انحاء الخليج ، وساعد البحارة الانكليز سلطان عمان في غزو بعض سواحل ايران والاستيلاء عليها ، واجريت خلال سنتي ١٨٣٦ — ١٨٣٨ استكشافات على طول خط القرن . وفي سنة ١٨٤٠ وطد الانكليز اقدامهم في جزيرة قارغ وخليج هرمز والبصرة . ونقيد هنا ان هذه الاحتلالات كانت عابرة وموقته ؛ لان الاقليم لم يكن مساعداً على دوامها . على ان المعاهدات التي كانت تتجدد وتتوثق آتيا بعد آخر من جهة اخرى قد ضمنت استتباب النفوذ الانكليزي على السواحل التي كان يعث فيها اللصوص ،

وخضوعها لحماية بريطانية . وقد اخضع الانكليز البحرين لسلطانهم سنة ١٨٧٠ كما تعاقدوا سرّاً سنة ١٨٩٩ مع كل من شيخي الكويت والمحمرة انماا لسلسلة هذه الحلقات .

وهكذا استطاعت بريطانية في اواخر القرن التاسع ان تبسط النفوذ والسيطرة على خليج البصرة من الوجة العسكرية ومن الوجة السياسية . وان يكون لها في كل من مسقط والكويت والبحرين وبندر عباس وبندر بوشهر معتمد انكليزي هندي يرعى المصالح الانكليزية في هذه الارزاء . وقد كان نفوذ هؤلاء يستند الى اسطول قوي بالاضافة الى حماية انكليزية قوية مستقرة في القاسط الواقعة في مدخل الخليج . وكان يبدو من خلال الموقف ان طريق الهند قد سد نهائياً في وجه الروس .

غير ان المانية في هذه الآونة اخذت تندس بين روسية وانكلترة في الشرق الادنى وكان من المقدر ان لا يمضي وقت طويل حتى تثير ضجة ، وتتقدم بمطالب ودعاوى هي الاخرى في خليج البصرة ويران .

— ٥ —

وقد كان مما فكر فيه بطرس الاكبر تحويل تجارة الهند الى روسية عن طريق تركستان . وقد سيرت روسية حملتين على خيوة واحدة بعد اخرى فمنيتهما بالهزيمة . ولم تتمكن بعثات الروس التبشيرية والسياسية من الوصول الى خيوة وبخارى الا بعد عام ١٨١٩ على ان روسية هنا عام ١٨٣٩ منيت بهزيمة ثالثة فانشأت بعدها خط خفارة من القازاق بين نوا والكساندرويك وبحر آرال ضمن لها بعض الاستقرار حيناً من الدهر .

وقد افلقت حركات الروس ومساعيهم بال الانكليز منذ البدء ففكروا هم ايضاً في توسيع نفوذهم حتى يشمل تركستان . واخذ بعض ضباطهم في جيش الهند يحوسون خلال بخارى وخيوة منذ سنة ١٨٢٤ ؛ غير ان فاجعة قتل الكولونيل ستوددارت اولا عام ١٨٣٨ ثم قتل الكابتن قوللين عام ١٨٤٢ ثانياً ، — وقد قتلوا بامر امير بخارى — جعلتهم يكفون عن محاولاتهم ، وحفزتهم الى السعي

في التفاهم مع روسية على حياد امارات تركستان ؛ حيث وقع عهد سري بذلك بين حكومتى لندن وبطرسبرج .

على ان هذا العهد لم يعمر الا لمدة قصيرة جداً ؛ لأن استمرار حركات القيرغيز وزخوفهم وغزواتهم كان يعطل الاتصال بين روسية وسيبيرية . فقررت روسية في سنة ١٨٦٥ ان تفتتح تركستان بحملة تدور من الناحية الشرقية من بحر آرال ، واخذت في تطبيق الخطة فوراً . فم لها في نفس السنة الاستيلاء على طشقند وبعد بضعة اسابيع من سقوط هذه المدينة سقطت مدينة خوجاند في ايديهم ، وفي سنة ١٨٦٨ دخل الجنرال قوفان سمرقند ، واصبح امير بخارى وانياً تابعاً للقيصر ، وفي سنة ١٨٧٣ آتم الروس احتلال اقليم خيوه ، وجاء الدور في سنة ١٨٨٠ الى واحات التركان فسيطروا عليها واخيراً استولوا عام ١٨٨٤ على مرو الموقع الحربي المتحكم في مدخل بلاد الافغان .

ولقد اقلق ما اصابه الروس من نجاح وتوفيق بال انكسرت اشد القلق ، لانيها ما زالت تحت تأثير خطر خطط نابوليون لغزو الهند بطريق بحر الحزر . وقد كانت اهتمت منذ زمن بعيد لادخال امير الافغان في نطاق سياستها ونفوذها لتوفي ذلك الخطر متظاهرة بتأييده ازاء مطامع ايران وعدوانها . ولكنها لم تنجح في ما ارادت لأن الافغانيين حرصوا على استقلالهم اشد الحرص ، وقاوموا محاولة دمجهم في سياسة ونفوذ حكومة الهند الانكليزية اشد مقاومة ، حتى انهم وقفوا مواقف عنيفة من البعثات الانكليزية في سبيل ذلك وهزموها هزائم منكرة اكثر من مرة .

ومع ان ما قام من حركات في الاقاليم التركية عام ١٨٧٢ قد خفف حدة التشاد الانكليزي الروسي قليلاً فإنه لم يلبث ان عاد الى شدته بعد احتلال الروس لمرو ، ثم بلغت الشدة اوجها حينما انشأ الروس عام ١٨٨٨ الخط الحديدي عبر الحزر ، حيث كانت له خطورة عظيمة من الوجهة الحربية . وقد احتل الروس في هذا الدور من التشاد الحاد شترال ، وحصنوا جميع معابر جبل هندوكوش ، وقوا وسائل الدفاع عن منطقة كيتة (في اقليم بلوچستان) الخطيرة الشأن .

ولقد كان هذا التشاد بين لندن وبطرسبرج في هذه الساحة سبباً لتحمل الفريقين

نفقات عظيمة ولتعطيل قسم من جيشها ، في حين كانت روسية التي منيت بالهزيمة في الحرب اليابانية عام ١٩٠٥ وخرجت ضعيفة مهينة منها في حاجة الى عهد سلم طويل تضمند فيه جراحها ، وكانت تعرف في نفس الوقت ان المعاهدة المعقودة بين اليابان وبريطانية قد ضمنت مساعدة الاولى للثانية في الدفاع عن حدود الهند الشمالية الغربية ، وفي حين كانت انكلترة من جانبها تستشعر القلق من محاولات التقدم الالماني نحو خليج البصرة وتستسيغ بعض التضحيات في سبيل اهون الشرور .

وهكذا بدت الظروف ملائمة لتقارب روسي — انكليزي . وكانت فرنسا من جانبها راغبة كل الرغبة في مصالحة حليفها روسية مع صديقها الجديدة انكلترة ، فقامت بدور الوسيط وانتهت هذه الوساطة الى نتيجة سعيدة حيث امكن عقد المعاهدة الروسية — الانكليزية في ٣٠ اغسطس من سنة ١٩٠٧ .

ولقد صرحت انكلترة في هذه المعاهدة بان لا مطمع لها في تركستان ، وأكدت روسية بالمقابلة بانها لا تضم نية فتح ما نجاء الهند . واعترفت الدولتان من جديد باستقلال ايران وتنام ملكها ، ولكنها اتفقتا على تعيين مناطق نفوذ فيها لكل منهما ، وعين القسم الشمالي منطقة نفوذ لروسية ، والجنوبي بما في ذلك خليج البصرة منطقة نفوذ لانكلترة . واتفق الطرفان على ترك شقة حياد بين منطقتي النفوذ ، وتعهد كل منهما بعدم ممانعة حصول رعايا الاخر على امتيازات في المنطقة الحياضية ، وبحيث الحالة اذا ما حدث ما يحمل على الممانعة والاعتراض بنية طيبة . وأكد الانكليز احترامهم للحالة الراهنة في الافغان وعدم استخدام نفوذهم في هذه البلاد ضد المصالح الروسية ، وسلم الروس مقابل ذلك بان هذه البلاد داخلية في مجال بريطانية وخارجية عن مجال روسية . وقد صرح في مادة خاصة من المعاهدة بان انكلترة ذات مصالح خاصة في خليج البصرة .

— ٦ —

على ان الاتفاق المذكور رغم شموله لم يحل دون نشوء خلاف روسي — انكليزي فقد ظلت مسألة المضايق معلقة كما ان مسألة الخط الحديدي عبر ايران لم تحل ايضاً . وكان هذا الخط من المسائل التي يصعب حلها حلاً ودياً ، لما بين وجهتي نظر لندون

وبطرسبرج من تضاد شديد حوله .

وفي سنة ١٨٥٦ تأسست شركة انكليزية لمد خط حديدي يربط انكلترا بالهند ، وكان من المتصور ان يمر الخط من فينا واستانبول والاناضول ووادي الفرات وسواحل بلاد ايران . ولقد عارض اللورد بالمستون هذا المشروع معارضة شديدة لان من شأنه ان يهدد سلامة الهند . وحملت هذه المعارضة حكومات لندن على معارضة كل الخطط التي قدمت فيما بعد وكانت تمت الى ذلك المشروع بسبب . وقد وقع عهد بين انكلترا وروسية عام ١٨٨٥ تعهد فيه الطرفان بعدم القيام باي حركة في سبيل انشاء هذا الخط الى سنة ١٩٠٠ ، بل وتعهدا بمعارضة كل طلب امتياز تمثل هذا الخط يقدمه اشخاص من رعايا دولة اخري ايضاً . وقد مدد امس هذا العهد عام ١٨٩٩ عشر سنين اخرى .

على انه مما يجب قيده ان خطورة هذا الخط كانت تبدو في هذا الدور ضعيفة جداً ، وكان اللورد كوزون يصرح بانه عملية خاسرة من الوجهة التجارية . وفي سنة ١٩٠٠ وضع المهندس الروسي بيتش مشروعا جذابا يقوم على اساس خط حديدي يربط مدينة الكساندروبول ببندر عباس عن طريق تبريز وطهران واصفهان وشيراز ، ومد فرع له من طهران الى مشهد . غير ان الانشقاق الروسي الانكليزي عام ١٩٠٧ نص على تعليق هذا المشروع ايضاً الى مذاكرات تجري في المستقبل .

ولما انتهى اجل المعاهدتين المعقودتين في سنتي ١٨٨٥ و ١٨٩٩ في سنة ١٩١٠ كانت المسألة واقفة حيث كانت . وحينئذ تأسست شركة غايتها انشاء خط حديدي ذي صبغة دولية بين القفقاس وبلوجستان . وقد قبلت هذه الشركة مشروعاً وضعه الكولونيل يات يتبدى الخط وفقه من رستاو وباكو ويعقب شواطئ بحر الخزر الى رشت ثم ينتهي الى كرمان بطريق قزوين وطهران ويزد . وكانت نقطة الانتهاء محل تردد بين نوجي ولاسكانا وكاراشي ؛ وكان مد فرع بين طهران ومشهد مما تضمنه المشروع .

غير ان كلا من حكومتى روسية وانكلترا لم تبديا رغبة قوية في تعضيد وتنفيذ

هذا المشروع . فالروس كانوا يقولون انه لن يكون منه الا اغراق روسية بالسلمع الانكليزية في حين كان الانكليز يرون ان لا أمان فيه الا اذا مر بمنطقة نفوذهم ، وكان طريقه بندر عباس وكاسك وجبار وكاراشي وشواطيء خليج البصرة ؛ وان اي طريق اخرى له ستضطرهم الى زيادة قواتهم في الهند . ولهذا وذلك لم تتفق الحكومتان على رأي قاطع في شأن هذا الخط في هذا الدور ايضاً .

وقد كان هذا في الطرف الذي اشتد فيه طلب المانية وسعيها في سبيل الحصول على مركز ونفوذ في الشرق الادنى اسوة بغيرها ، وقد كان ان اجتمع فيه القيصر نيقولا الثاني والامبراطور غليوم الثاني في بوتسدام ، وكان ذلك في ١٩ اغسطس من سنة ١٩١١ وان تم تفاهم بين العاهلين على بعض الامور في هذا الشرق ، حيث اعترف الامبراطور بحرية وتصرف روسية في منطقة النفوذ الابرايية — الروسية ووافق القيصر مقابل ذلك على مد خط حديدي برأس مال الماني روسي يربط كرمشاه بخانقين ويمر بطهران وهمدان ويرتبط في خانقين بخط بغداد الحديدي الالماني .

وقد حرك هذا التفاهم ما كان ساكناً من التشاد بين روسية وانكلترة حول الخط الحديدي عبر ايران بل واعادته الى شدته الاولى . وحينما حصل الروس عام ١٩١٣ على امتياز خط غولغا — تبريز من حكومة ايران سعى الانكليز وحصلوا بالمقابلة منها على حق الرجحان في انشاء خط المحمرة — اهواز — شوستر — ديزفول — خرم آباد ، وكان امتداد هذا الخط نحو همدان مما ادخل في البحث . وحصلوا كذلك على امتياز فرعين يربطان بندر عباس بشيراز وبكرمان . وقد استهدفوا بهذا الحيلولة دون احتمال تمديد الالمان خطاً الى منطقة الحيات الابرايية في المستقبل .

— ٧ —

ان الاتفاق الروسي الانكليزي عام ١٩٠٧ لم يكن في الحقيقة الا مسكناً مؤقتاً للتشاد بين روسية وانكلترة ، وقد كانت انكلترة تأخذ على روسية احتلالها الفعلي لمنطقة نفوذها الشمالية وتصرفاتها المفرطة فيها ، في حين كانت روسية تشتكي من وضع

انكلترة يدها على ساحة نفط قارون الواقعة في المنطقة الحيادية . وكان الفريقان في نفس الوقت قلقين من جراء بقاء هذه المنطقة هدفاً مكشوفاً لمساعي ومحاولات الالمان في سبيل التبسط . وكانت الممانية تذيع وتصرح بانها لا تعترف بالاتفاق الروسي الانكليزي لعام ١٩٠٧ الذي لم تشترك فيه ، وبضاف الى هذا كله مسألة الخط الحديدي عبر ايران الشائكة وسيلة لحلاف مستمر بين لندن وبطرسبرج .

وقد جعلت هذه الظروف اعادة النظر في الاتفاق القائم بين الفريقين لتعديله وتوثيقه ضرورة لا مناص منها . ولقد جرت مفاوضات من اجل ذلك اثناء زيارة سazanov انكلترة في صيف عام ١٩١٢ بينه وبين ادوارد غراي في بلتيمور ، ولكنها لم تقترن بنتيجة ، وظل الامر واقفاً عند هذا الى صيف سنة ١٩١٤ ، حيث اعلن وزير الخارجية البريطانية في ٢٩ حزيران ١٩١٤ في مجلس العموم ان مفاوضات تجري الان بين روسية وبريطانية . وقد اوقف نشوب الحرب العالمية بعد زمن قصير هذه المفاوضات مؤقتاً ثم وصلت في اثنائها الى نتيجة ايجابية بالاتفاق الذي تم بين روسية وبريطانية وفرنسة على شؤون المضائق والاستانة والافاضول .

ولقد ذكر بوانسكاره في مذكراته انه قام بدور الوسيط بين روسية وانكلترة للتوفيق بين وجهتي نظرها في رحلته الاخيرة الى روسية . ويستفاد من هذه المذكرات انه تحدث يوم الثلاثاء ٢١ تموز سنة ١٩١٤ مع القيصر نيقولا الثاني في شأن الصلات الروسية والانكليزية وشكاوي انكلترة من تصرفات قناصل الروس المناقضة لاتفاق عام ١٩٠٧ ، وان القيصر اعترف بكل اخلاص بصحة هذه الشكاوي ، واكد بأنه اتخذ الاجراءات اللازمة لمنع تكرار اسبابها المؤسفة ، وبما جاء في المذكرات انه قد امكن التوفيق بين روسية وانكلترة في ما لم تتفق عليه الدولتان قبلا من نقاط مشروع الخط الحديدي عبر ايران ، ولم يبق الا نقطة الانتهاء في خليج البصرة التي كانت اشد نقاط الحلاف تعقيداً ، وان القيصر قد قال في صدد ذلك ان هذه المسألة يمكن ان تحل في ما بعد ، وان المهم الان ان لا تثار مسألة من شأنها الاخلال بحسن الصلات بين روسية وانكلترة .

الفصل السادس

التبسط الجرماني

ان الاناضول هو المكان الوحيد الذي لم تسطر عليه دولة من الدول الكبرى ، في حين انه بلاد يمكن ان تستعمر وتستثمر . فاذا لم تضع المانية فرصة الاستيلاء عليه قبل ان يند اليه ايدي الفاراق فانها تكون قد نالت اكبر نصيب في قسمة الدنيا .

الدكتور سينغر سنة ١٨٨٦

مبادئ النفوذ الالماني في الشرق الادنى - السير نحو الشرق - خط حديد بغداد - المصالح الروسية - المصالح الافرنسية - المصالح الانكليزية - حادثة الكويت - خط حديد حيفا - مسألة طابا - دناش الالمان في خليج البصرة وفي ايران - المانية والاتفاق الثلاثي .

- ١ -

ان مبدأ النفوذ الالماني في الاستانة يرجع الى عهد فردريك الثاني غير ان هذا النفوذ لم يبرز قويا واضحا الا في عام ١٨٣٥ ، وفي ظروف النزاع الذي نشب بين محمد علي والسلطان محمود ، حيث طلب هذا من فردريك غليوم الثالث ملك بروسية ضباطاً لتدريب جيشه وتنظيمه ، وكان الكابيتين مولتسكه - الذي صار مارشالا - ضمن بعثة الضباط الالمان . ولقد نظم الجيش العثماني وآتي بالعجائب ، وقام برحلات استكشافية على ضفاف الفرات ، وشهد حرب تريب عام ١٨٣٩ التي خسرها الاتراك على الرغم من تدخله ونصائحه لقائد الجيش حافظ باشا وكان ما اقترحه مولتسكه على بروسية الاستيلاء على فلسطين .

ولقد ازداد نفوذ الالمان في الشرق الادنى بعد سنة ١٨٧٠ كثيراً وبنتيجة ذلك توطن المستعمرون الزراعيون النازحون من المانيا في يافا وحيفا والقدس .

على ان الذي نفخ في سياسة الالمان الشرقية اقوى الروح واشد النشاط هو مؤتمر برلين ١٨٧٨ ، فقد لاحظت المانية اثناء مذاكرات هذا المؤتمر شدة حرص انكلترة على ابعاد الروس عن الاستانة ، فاستغلت ذلك احسن استغلال ، وكان من نتيجة ان تركت حكومة لندن الميدان لالمانية ، فلم تضع هذه الفرصة ، ولم تلبث تلك ان رأت انه قد فات الوقت الذي تستطيع فيه اغلاق باب آسيا في وجهها .

وقد انتشر النفوذ الالمانى في الامبراطورية العثمانية بسرعة عظيمة ، وساعد على هذا ما قام في الازدهان من وهم بان حكومة برلين لا تسعى وراء منفعة خاصة . والواقع ان ما تظاهرت به المانية من الزهد كان مضاداً على طول الخط لما كان يبدو من فرنسة وانكلترة من حرص على الاسقيلاء على مصر وتونس . وقد استغل السفيران الالمانيان هاتزفليد ورودتيز هذه المظاهر المتضادة استغلالاً ماهراً ، فلاء دوائر الدولة العثمانية تدريجاً بالموظفين الروسيين ، ونظمت البعثات العسكرية التي كان يرأسها الجنرال فون درغولتز الجيش العثماني ودربته ، كما ان المانية سلحته ببنادق الماوزر ومدافع كروب .

وفي سنة ١٨٨٩ زار غليوم الثاني الاستانة زيارة رسمية ، وكانت هذه الزيارة الظاهرة البارزة للتفاهم التركي — الالمانى . وقد زار الامبراطور تركية مرة اخرى وكان ذلك بعد مذبحه الارمن في عام ١٨٩٨ ، وطاف في فلسطين وسورية طوافاً طنائاً . وكان مما حاوله ان يشمل بحمايته كاثوليك الالمان في الارض المقدسة — مع انهم كانوا تحت حماية فرنسة الدينية — فضلاً عن اعلان حمايته للبروتستانتية ، ولم يكتف بهذا ، فقد زار دمشق بعد القدس وسط مظاهر الابهة وهنا وجه خطاباً خطيراً للمسلمين قال فيه :

ان صاحب الجلالة السلطان ، والثلاثمائة مليون مسلم الذي يدينون بخلافته يستطيعون ان يتأكدوا من ان امبراطور الالمان صديق مخلص لهم .

— ٢ —

وقد وعد عبد الحميد غليوم الثاني كمقابلة لهذه المظاهرة الودية بامتياز خط حديد بغداد في المستقبل ؛ وهكذا اخذ مبدءاً « الى الشرق » الذي تقوم عليه فكرة التبسط الجرمانى يجد مجال نشاط فسيح ، وأخذ الالمان يستعدون للجولان فيه بكل ما فيهم من قوة .

وهذا المبدأ يرتكز على نظرية سياسية المانية ملخصها ان المانية بلاد تنجب اطفالاً كثيرين وتنتج سلعاً عظيمة ، وهي في حاجة الى مخرج لنفوسها وصناعاتها المتزايدة ، وحاجتها الى المستعمرات لا تقل عن حاجة غيرها من الدول الاوروبية الكبرى ان لم تزد ، ولقد تأخرت عن شهود تقسيم افريقية واستعمارها ، فعلمها ان تتجه نحو آسيا على امل ان تجد فيها اقاليم تجعل منها ما يماثل امبراطورية انكلترة الهندية . ومما يدخل في البرنامج الالمانى هذا اراضي كليكية وما بين النهرين ، فهذه الاقاليم يمكن ان تكون من احسن البلاد لسكنى المهاجرين الالمان ، وانتشاء مستعمرات زراعية لهم فيها ، كما يمكن ان تكون مجالاً لانتشار الثقافة الالمانية وسوقاً ومخرجاً للمصنوعات الالمانية ، ومما يدخل فيه ايضاً انشاء شبكة واسعة من الخطوط الحديدية تخترق الاناضول وتنتهي من جهة بشواطىء البحر الابيض ومن جهة بخليج البصرة ؛ فستملك مقادير عظيمة من المصنوعات الحديدية الالمانية ، وتوزع مقادير كبيرة من المصنوعات الالمانية الاخرى . ولاخراج هذا البرنامج العظيم الى حيز الفعل يقتضي ان يكون لالمانية نفوذ في اوربا الوسطى والبلقان ، حيث تقيم عليها معابر تربط امبراطوريتها الشرقية الجديدة بعاصمتها . وقد اشركت المانية من اجل ذلك دولة النمسا والمجر في نشاطها ومساعدتها وكان مما تصورته ان تدفع هذه الى سلاتيك .

وقد ادركت المانية ان عليها في سبيل تحقيق هذا البرنامج ان تبذل كل جهد في اكتساب محبة الامم البلقانية اولاً ، وان تظهر بمظهر الحامي الرسمي للامبراطورية العثمانية ثانياً ، وكان من مدى ذلك ايضاً تشجيع فكرة الجامعة الاسلامية ، وتنظيم المجلس العثمانى وتدريبه ، وتلقين الدولة العثمانية بحاجتها الى شبكة حديدية ناعدها

على الحشد العام والنقل العسكري السريع حين الاقتضاء ، ومعاونة السلطان في تحكيم امبراطوريته وتدعيم كيانه .

ونقيد انه لم يكن في برنامج التبسط الجرمانى صدم المصالح الافرنسية والانكليزية التي صارت راسخة مع الزمن مواجهة وجهره ، وانه لم يكن ينطوي على جعل البلاد العثمانية مستعمرة المانية ، وكل ما كان يذكر بصورة رسمية هو قصد تحويل تلك السهول العظيمة التي كانت من اخصب بقاع الارض ثم اعملت وجفت الى منابع ثروة فياضة لينتفع بها الناس جميعاً . ولكن مما لا شك فيه ان الامبراطور حينما يتم المشروع مكبير — اي حينما ينتشر المستعمرون الالمان في فيافي الاناضول والعراق ويتوطنون ويصل الخط الحديدي الى خليج البصرة — سيقف ويدعى انه هو الحاكم الاعلى للامبراطورية العثمانية ، كما انه سيتقدم بمطالب ودعاو في آسية الوسطى ايضاً .

— ٣ —

ولقد خطا برنامج التبسط الجرمانى في فجر القرن العشرين خطوات كبيرة في سبيل التنفيذ فائشاً فون بريس مدير بنك دوتش الالمانى عام ١٨٨٨ لحساب تركية خط حديد حيدر باشا — ازميت الحديدي (١) ثم حصل على امتياز خط آخر يربط ازميت بانقرة ، وعلى وعد بامتياز خط ثالث يربط هذا الخط ببغداد عن طريق سيواس ودياربكر والموصل . وفي السنة التالية اتحد دوتش بنك مع بنك وورتمبرغيس في ستوتارد واسسا شركة الخطوط الحديدية الاناضولية العثمانية وكان رأس مال الشركة المائياً ، وعهد بانشاء الخطوط الى شركة المانية اخرى تأسست في فرانكفورت اسمها « شركة انشاء خطوط حديد الاناضول » .

ولقد وصل الخط الحديدي عام ١٨٩٣ الى انقرة ، وفي ١٣ شباط من هذه السنة حصلت الشركة على امتياز خطي اسكيشر — قونية ، وانقرة — قيصري ، وكان امتياز الخط الثاني يتضمن وعدا بامتياز خط يمتد الى سيواس فدياربكر ببغداد ،

(١) كان امتياز هذا الخط في عهد دوتش بنك الالمانى ثم بيع لشركة انكليزية ثم اشتراه جماعة من الاتراك خلال سنتي ١٨٧١ - ١٨٧٣

وقد ترك خط قيصري بعد قليل . غير ان الخط الاول قد تم حيث وصل الى قونية في آخر سنة ١٨٩٥ .

وهكذا انشئت شبكة حديد الاناضول باموال وعدد وادارة المانية ، وكان هذا النشاط مصادفاً للدهور الذي بدأ الامبراطور الالماني يهتم فيه اهتماماً خاصاً لبرنامج التبسط الجرماني في الشرق الادنى . ولقد كان نتيجة لهذا الاهتمام ان عقد الباب العالي في ٢٧ تشرين الثاني من عام ١٨٩٩ وبعد زيارة الامبراطور الثانية للاستانة مع الدكتور رسميس مدير شركة خطوط حديد الاناضول ، عقدا تضمن وعداً باعطاء الشركة امتيازاً بخط حديدي يمتد من قونية الى خليج البصرة . وكانت الشركة قد نالت قبل هذا التاريخ ببيعة اشهر امتيازاً بانشاء مرفأ حيدر باشا ومخازن استيعادها وبادارتها ، وفي سنة ١٩٠٣ انقلب وعد خط بغداد الى امتياز ؛ واتفق على ان يكون في طريقه اركلي واضنه وبغجه وكليس وحران والموصل وبغداد وكربلا ونجف والبصرة ، غير ان البصرة لم تعين بصورة قاطعة كنقطة انتهاء للخط ؛ وانما عينت الزبير التي هي اخر محطة قبل البصرة كنقطة نهائية ، واتفق على ان يعين طريق الفرع الذي يمتد منها الى خليج البصرة ونقطة انتهائية فيما بعد بالاشتراك مع الباب العالي وعلى كل حال كان من المسلم به ان الخط يصل الى خليج البصرة . وقد افترق فيما افترق فيه مشاريع خطوط حديدية اخرى تمتد الى مرعش وحلب واورفة وماردين واربيد وخانقين . وكان مما تضمنه امتياز الشركة حق الملاحة النهرية ، وحق التنقيب عن المعادن وتشغيلها وغير ذلك من الفوائد العظيمة ، كما تضمن نصاً على حق الرجحان لها في انشاء اي خط حديدي يتصل بخطوطها ، ويمتد الى مرسين وطرابلس الشام او بالاحرى يصل هذه الخطوط بالبحر الابيض في المستقبل ، وعلى حق الشركة في انشاء مرافئ ومستودعات في خليج البصرة وبغداد . وما نص عليه ان يكون للشركة ضماناً كيلومترية سنوية مقدارها (١٥٥٠٠) فرنك ، وان تقوم الشركة بانشاء مائتي كيلومتر بعد مائتي كيلومتر ، وبعد ان تكون الحكومة العثمانية قد سددت الضمانة النقدية للاقسام التي تكون قد انشئت .

ولقد كان هذا الامتياز فوزاً عظيماً لالمانية ، وكان في ذات الوقت مناقضاً لصالح

كل من فرنسا وانكلترا وروسية منافضة تامة . وهكذا اصبحت مسألة خطوط حديد الاناضول بهذا الامتياز ذليلاً اضيف الى المسألة الشرقية ؛ وكان من المقدر له ان يكون وسيلة لمصاعب سياسية دولية ...

— ٤ —

ولقد كان من الطبيعي ان تولد خطط الالمان التوسعية قلقاً عظيماً في روسية من الوجهة التجارية اولا ، لانها من شأنها ان تفرق ارمينية والقفقاس وايران بالمصنوعات الالمانية ، ومن الوجهة السياسية ثانياً ، لانها تجعل انتشار الروس وتوسعهم الحر في ارمينية وكردستان وايران ، وسيرهم في اتجاه اسكندرونة متعذراً ، ومن الوجهة الحربية ثالثاً ، لان من شأن شبكة حديد الاناضول ان تساعد على سرعة حشد الجيوش العثمانية حين الاقتضاء . ولهذا فقد ابدت معارضة شديدة وخاصة في امر تمديد خط حديدي الى ديار بكر وسيواس من طريق انقرة وقيصري ، وطلبت من السلطان في كانون الاول من سنة ١٨٩٩ الاعتراف بحق رقابتها على الخطوط الحديدية التي يمكن ان تنشأ في الولايات المجاورة لحدود القفقاس . وقد قبل السلطان طلبها في شباط عام ١٩٠٠ بالنسبة لولايي ارضروم وطربزون ، كما تعهد بعدم اعطاء امتياز خطوط حديدية في ولاية سيواس الارعايا عثمانيين ؛ وبذلك سدت ارمينية الكبرى في وجه التبسط الجرمانى .

ولما تقرر بصورة نهائية عام ١٩٠٣ مرور الخط الحديدي باضنه عاود روسية القلق ، لانها كانت ما تزال وراء امل الامتداد الى خليج اسكندرونة عن طريق كليكية ؛ غير ان الحرب الروسية — اليابانية جعلت المانية لا تعباً كثيراً برضاء روسية وموافقتها . ومع ذلك فان روسية وقفت موقفاً معارضاً كبداً ، ورفضت قبول ما عرض عليها من الاشتراك في الشركة بنسبة اربعين في المائة ، وظل الامر عند هذا الى مقابلة بوتسدام عام ١٩١١ حيث عقد اتفاق اعترفت فيه المانية بمنطقة نفوذ روسية الايرانية كما سبقت الاشارة اليه واعترف الروس مقابل ذلك بامتيازات الالمان في الاناضول .

— ٥ —

ولقد اضررت مشاريع الامان ضرراً بليغاً بخطوط حديد مدانية وازمير ومرسين وحلب المنشأة برؤوس اموال افرنسية ، كما كانت في ذات الوقت خطراً كبيراً يهدد نفوذنا في الشرق الادنى .

واول سهام هذا الخط امتياز خط اسكيشهر — قونية ، حيث لم يعد في الامكان تمديد خط حديد بورسة — مدانية الافرنسي الذي انشيء سنة ١٨٩٣ الى كوتاهيه وقره حصار وقونيه كما كان متصوراً ومأمولاً . وقد سمعت الحكومة الافرنسية لدى السلطان فئات وعداً بامتياز خط الشام وحلب كتمويض عن الضرر الذي لحق بالاموال الافرنسية ، وكان الوعد يتضمن مد الخط الى البيره (بيره جك) ماراً بالفرات ، ولما اشترى بعض الماليين الافرنسيين بعد قليل خط ازمير — قسبة الانكليزي حصلوا على امتياز يمدّه الى قره حصار ، غير انهم لم يروا بداً من التوفيق بين مصالحهم ومصالح شركة خطوط الاناضول الالمانية ، وكان هذا في عهد وزارة هانوتو الذي كان يرسم التقارب بين فرنسا و المانية ضد انكلترة وخاصة بسبب المسألة المصرية . وقد حاول بعض الماليين الافرنسيين عام ١٨٩٦ ان يفتنموا فرصة وجود قونستان في الاستانة فيدخلوا في مشروع خط قونية — بغداد الالماني ، غير ان هانوتو كان قد سقط وحل محله دلكاسه ، فوقف هذا موقفاً معارضاً . ولقد تم التمسك بعد قليل بيننا وبين انكلترة فقضى على مثل هذه المحاولات نهائياً .

وكان امتياز خط بغداد وما تضمنه من حقوق الاستغلال على حفافي طريقه ضربة شديدة اخرى على المصالح الافرنسية في كليكية والاقسام الشمالية السورية ، وفي حوض الفرات ايضاً . وقد انقطع به امل ارتباط خط مرسين واضنه الذي كانت تملكه شركة افرنسية انكليزية بولايي قونيه وحلب ، فلم تر الشركة مناصاً من التخلي عنه للشركة الالمانية . وقد ظننا في بادى الامر ، وحينما منح وعد امتياز خط بغداد عام ١٨٩٩ ان الخط يسير في طريق القوافل الاولى ماراً باضنه وعنتساب

والبيرة ، وكان هذا الظن مما جعلنا نأمل بفوائد مهمة من تحقيق وعد الامتداد الى حلب والبيرة الذي وعدت به شركة خط الشام وحماء وتمديداته الافرنسية ، حيث يلتقي خطنا بالخط الالماني في البيرة غير ان هذا الامل لم يدم طويلا ، لان مرسوم الامتياز الصادر عام ١٩٠٣ عين نقطة الالتصاق في تل الجيش التي تقع على نحو خمسين كيلو مترا فقط من شمال حلب ، وبالإضافة الى هذا فقد نال الالمان وعداً بعد فرع الى حلب نفسها ، وهكذا قطعت الطريق علينا . بل ان الامر لم يقف عند هذا الحد ، فقد منح الالمان كذلك حق الرجحان في انشاء اي خط يتفرع من اي فرع من فروع الخطوط الالمانية وينتهي باي نقطة على ساحل البحر الابيض بين مرسين وطرابلس الشام ؛ فحيل بذلك دون ارتباط خط حلب الافرنسي باي ساحل من سواحل سورية الشمالية ، وصار الطريق الى اسكندرونة واللاذقية مفتوحة امام التبسط الالماني .

على ان الخطر الجرمانى من الوجهتين الاقتصادية والسياسية كان أعم شمولاً من حلب ومنطقتها ، حيث لم تلبث المانية ان اخذت تبذل كل جهد ، وتتوسل بكل وسيلة الى هدم اساس حمايتنا الدينية في فلسطين وسورية ايضاً . ولهذا كله املنا في ان يكون الانساق الافرنسي الانكليزي الذي تم عام ١٩٠٤ عوناً قوياً وفعالاً على ايقاف الخطر الالماني الذي بدا كالحجج الوجه في الشرق العربي ، ومهدداً لمصالحنا ونفوذنا فيه .

— ٦ —

ولقد كان مما تصوره الانكليز حينما استقروا في قبرص عام ١٨٧٨ مد خط حديدي يربط خليج اسكندرونة بخليج البصرة ، وكانت خطة شيسي واندرود القديمة بتمديد هذا الخط في محاذة الفرات قد ابعدت عن البحث ، فحلت محلها الخطة المقترحة من قبل لوفوت كامرون والقائمة على اساس بدء الخط من طرابلس الشام ، ومروره بحمص وحلب واورفة ونصيبين والموصل وبغداد ومنها ينتهي الى البصرة . غير ان احتلالهم لمصر عام ١٨٨٢ ، ودخول قناة السويس فعلاً تحت اشرافهم ، جعل حكومة لندن تحول انظارهم مؤقتاً عن الاناضول .

من اجل ذلك فأن الانكليز لم يقلقوا كثيراً مما ناله الالمان من امتياز اول خط حديدي في تركيا ، بل انهم رأوا هذه الحركة بمثابة سدود وحوائل امام مطامع اروس في ارمينية ، وآمال الافرنسيين ودعائهم في ازميز وكليسيكية وسورية . غير ان هذا الموقف لم يطل ، فأن سياحة غليوم الثاني الطفانة في الشرق الادنى ، وموقفه في القدس وخطابه في دمشق ، لم يلبث ان اثار القلق في جيراننا عبر المائش وقد كان منزع تركية للكتورسيمس وعداً بامتياز خط حديد قونية — بغداد عام ١٨٩٩ منبها قويا لهم ايضاً ، حيث ادركوا ان الالمان وهم يسيرون تحت ستار التجارة انما يسيرون في الحقيقة وراء فكرة سيطرة من شأنها ان تهدد الامن والسلام في بلاد الشرق . على ان الالمان لم يتأخروا في الكشف عن نيتهم ، وان كانوا قد فعلوا ذلك بتحفظ كبير حيث اخفوا وراء الدولة العثمانية وشجعوها ضد الانكليز في مسائل الكويت وحيفا وطابا .

— ٧ —

لم يكن من الممكن ان ترضى انكلترة عن وصول خط بغداد الى خليج البصرة ، فقد حرصت منذ قرن على تحويل هذا الخليج الى بحيرة انكليزية ؛ كما ان تحكمها في شط العرب كان امراً لامعدي لها عنه في سياستها التي ترستها منذ امد طويل ، وقد كانت تفكر ان يكون لها في المستقبل القريب او البعيد خط يمر وينتهي في المنطقة التي اخذ الالمان امتيازهم فيها .

ولقد كانت انكلترة ادخلت امير الكويت الشيخ مبارك في نطاق نفوذها واتفاقها من اجل ذلك الهدف ، وحملته على التخلي لها سرّاً عن ميناء خور عبدالله . ولما كان الالمان يستهدفون هم الآخرون ان يصلوا الى خليج البصرة ، فقد حرصوا الدولة العثمانية سرّاً على توطيد سلطانها الفعلي على الكويت بمساعدة ابن الرشيد امير شمر ، وقد علق السلطان عبد الحميد أملاً اكثر مما تتحملة الامور على معونة الالمان ، فخطا في سنة ١٩٠٠ خطوته في سبيل تنفيذ تلك الخطة ، غير ان الانكليز كانوا يقظين فوقفوا موقفاً حاسماً واضطروا الفصائل التركية بتهديد

الاسطول الانكليزي الذي كان يربط في الخليج الى الزاجع ، على ان بعض الفصائل التركية تمكنت عام ١٩٠٢ من احتلال بعض السواحل في شمال الكويت ، فما كان من الانكليز الا ان اعلنوا مقابل ذلك حمايتهم لمدينة الكويت عام ١٩٠٣ ، ثم ادلى وزير الخارجية البريطانية اللورد لانسدون في ٥ مايس من هذا العام في مجلس اللوردات ، بالبيانات التالية التي توضح وجهة نظر الانكليز ازاء المطامع الالمانية حيث جاء فيها :

« اني اصرح بدون اى تردد اننا نعتبر كل محاولة من اية دولة في سبيل اقامة قاعدة بحرية على خليج البصرة او انشاء ميناء مستحکم فيه تهديداً شديداً لفصالح الانكليزية نقاومه بكل ما في ايدينا من وسائل » .

وقد ابلفت حكومة لندن في نفس الوقت الدولة العثمانية رغبتها في الاشتراك في الخط الحديدي الذي يمكن انشاؤه مستقبلاً ليصل بين بغداد والبحر . وقد اغتنمت فرنسا الفرصة فاحتفظت هي الاخرى بحقها في ذلك لدى الدولة المذكورة .

— ٨ —

ومع ان الانكليز كانوا يعتبرون الكويت كنقطة انتهاء صلاحية وطبيعة خط حديدي يكون في المستقبل طريقاً اضافياً الى السويس ، فقد كانوا مترددين جداً في تعيين نقطة ابتداء هذا الخط على ساحل البحر الابيض ؛ فكان بعضهم يرى خليج الاسكندرونة هو الاصلاح بينما كان بعضهم يرجح بورسعيد ، وبعضهم يرجح بيروت ، وبعضهم حيفا ، ولقد انشأ انصار فكرة حيفا عام ١٨٩١ شركة برأس مال انكليزي سموها « شركة خط حديد سورية العثمانية » ؛ وبدأت هذه الشركة فعلاً بالاستعداد لانشاء خط يربط حيفا بالشام ، على ان يكون في الامكان تمديده يوماً ما الى خليج البصرة ؛ غير ان دراسة الحالة الاقتصادية في حوض النهرين الجنوبي دلت على ان امل الربح من هذا الخط ضعيف جداً فعدلت الشركة عن العمل مكثفياً بها صار لها في انشاء الخط من حق راهن .

وفي سنة ١٩٠٢ وبينما كان الانكليز منهمكين في حرب البوير ، ومهملين امور الشرق الادنى ، اشترى السلطان عبد الحميد بتحريرض الالمان امتياز خط حديد حيفا

من الشركة ؛ ولم تمض ثلاث سنين حتى تمكن مهندسو الالمان من انشاء خط حديدي بين حيفا ودرعا مخترقا مرج ابن عامر . وكان الخط هنا يلتقي بطريق الحج الى المدينة . وهكذا طار طريق حيفا — خليج البصرة من يد الانكليز ولم يكن في امكانهم الاحتجاج ، لان الالمان كانوا رسميا بعيدين عن المشروع الذي كان في الظاهر مشروعا تركيا صرفاً .

— ٩ —

وفي سنة ١٩٠٦ نجح خلاف تركي — انكليزي جديد على حدود سورية ومصر ، كان للأصابع الالمانية يد فيه . فهذه الحدود من ناحية البحر الابيض تبتدىء من رفح وتسير بجنوب جبل الابن والمقارة وتنتهي عند اسفل العقبة على ساحل البحر الابيض ، وتكون العقبة ضمن حدود سورية بينما تكون سواحل طابا ضمن الحدود المصرية .

وقد رأى اصحاب فكرة التوسيع الجرمانى الذين لم ينجحوا في الوصول الى خليج البصرة ان يسيروا في خطة اخرى من ناحيه ثانية ، فحرضوا السلطان على الاستيلاء على طابا أملاً بان يكون لهم على البحر الاحمر مخرج حر ؛ وكانوا يأملون ايضاً في وضع ايديهم على جزيرة فرسان الواقعة في شمال مضيق باب المندب في البحر الاحمر ، وكان مما تصوره ربط العقبة بمعان التي كانت محطة من محطات خط حديد الحجاز ، وكانت الحجة لهذا الفرع تسهيل واسراع القوات الحربية التي ترسل الى قع نورات اليمن ، حيث تركب البحر من ميناء العقبة . ولقد اخترقت الفصائل التركية فعلاً حدود مصر في ١٥ شباط سنة ١٩٠٦ ، واحتلت طابا ، ولكن الانكليز وقفوا موقفاً حازماً ، وحشدوا قوى بحرية وبرية كبيرة اتواها من جبل طارق ومالطة والهند وجزيرة بريطانيا ؛ واعلن الباب العالي من جهة النفير العام واخذ بالحشد . على ان السلطان لم يلبث ان قبل الانذار الانكليزي ، لان غليوم الثاني لم يكن يشعر بعد بقوة الوقوف رسمياً موقف المؤيد لجانب الدولة العثمانية .

— ١٠ —

على ان مواقف انكلترا الحازمة لم تمنع المانيا من دس الدسائس في خليج البصرة ؛

فقد انشيء عام ١٨٩٦ في بندر عباس محل دوتشوس التجاري الالماني تحت ستار تجارة اللؤلؤ واتسعت الشركة عام ١٩٠٢ وازداد نشاطها فجأة ، وانشأت فروعاً لها في البحرين والبصرة وسائر مراكز الخليج ، وطلبت من السلطان امتيازاً باحتكار تجارة اللؤلؤ كما عرضت عليه شراء جزيرة ابي موسى ؛ ومع ان حكومة لندن استطاعت ان تحمل الباب العالي على رفض هذه الطلبات فإن هذا لم يمنع المانيا من استمرار النشاط ، وقد اعلنت سنة ١٩٠٦ وجودها في خليج البصرة بصفتها دولة بحرية تجارية ولم تلبث متاجر دوتشوس ان تحولت الى وكالة شركة هامبورغ اميركا البحرية ، ولم تتم هذه الشركة ان انشأت بعد قليل خط نقل بحري بين هامبورغ وعدن ومسقط وخليج البصرة .

ولم يمض طويل وقت حتى وجه الالمان انظارهم نحو ايران ايضاً ، حيث طلب الامبراطور من حكومة الشاه امتياز قناة قارون ، وان كان هذا الطلب رفض نتيجة لاعتراض ومساعي انكلترة .

وقد نشأت اسباب جديدة من شأنها ان تدفع الانكليز الى معارضة وعرقلة المطامع الجرمانية في شط العرب وبين النهرين ومنطقة ايران الحيادية . فقد اخذ السير ويلكوكس الذي اشتهر في مشاريع الري المصرية بلفت انظار مواطينه الى امكانيات مشاريع ري كبرى بين النهرين ، ويدعو الى وجوب شمول اهتمام الحكومة الانكليزية ورقابتها لهذه المنطقة . وكان بعض الرعايا الانكليز من جهة اخرى قد نالوا امتياز نفط من الشاه في مناطق الحدود الايرانية التركية التي اكتشف فيها طبقات النفط من جديد ، فأعارت الحكومة الانكليزية اهتماماً شديداً لهذا المنبع العظيم من الوقود الذي سيكون في المستقبل كبير النفع وشديد الضرورة لاسطولها .

ولقد كان كل هذا دافعاً لحكومة لندن الى الاتصال ببافيس وبطرسبرج في سبيل عقد اتفاق معها يستهدف فيما يستهدفه سد طريق آسيا في وجه المانيا ، حيث ادركت خطر التبسط الجرمانى ووجوب التضامن في ايقافه .

وقد كانت رحلة غليوم الثاني الى طنجة وحادثه طاباً الجواب الاول من

المانيا على التقارب الودي الجديد الذي اخذ يتوطد بين فرنسا وانكلترا ؛ وكان هذا اعلاناً صريحاً من الامبراطور بان ما تم الاتفاق عليه بين الدولتين في معاهدة عام ١٩٠٤ لن يغير شيئاً من مركز مصر وفاس وفلسطين ؛ وان معاهدتي ١٨٥٦ و ١٨٧٨ الدوليتين اللتين تعترفان بسلطان الدولة العثمانية على مصر هما الواجب رعائتهما ، وانه ليس من شأن الاتفاق الانكليزي الافرنسي تعديل ذلك او الاخلال به ؛ كما انه ليس من شأنه ان يغير مركز سلطنة فاس ؛ لان المانيا لم تشهد . وكان غليوم الثاني يطلب حصّة في حالة تقسيم الامبراطورية العثمانية ، ويؤيد ان تكون حصته جميع آسيا التركية ممتدة الى سواحل البحر الاحمر من جهة وخليج البصرة من جهة اخرى . ومما لا ريب فيه ان هذه المطالب كانت مما يبعث الدهشة والحيرة ، لاسيما وان المانيا لم تؤيد في يوم ما فرنسا حينما كانت تطالب انكلترا بتعيين اجل لاحتلالها مصر . على ان قيام الائتلاف الثلاثي اقنع غليوم انه لن يستطيع تحقيق اطماعه في الشرق الا بالقوة . ومع رغبته في الحرب فانه كان يرغب في تأخيرها مدة اخرى ، ربما يصبح في مقدور اسطوله الوقوف في وجه الاسطول الانكليزي موقف النذ . وقد رأى الى ان يأتي هذا الوقت ان يدس الدسائس لتعكير صفو الصداقة الافرنسية الانكليزية ؛ وفصم عرى الاتفاق الروسي - الافرنسي ، وبالتالي لتفريق المتفقين الثلاثة عن بعضهم ، وكسباً للوقت وافق من جهة على المفاوضات للاتفاق على حل المسائل الشرقية على ما سوف نذكره في احد الفصول الآتية ، بينما ظل من جهة اخرى يهدد فرنسا في اغادير والدار البيضاء ، ويجتمع ويتفاوض مع قيصر روسية في بوتسدام ، ويعرض على اللورد هالدين الانصراف عن برنامجيه البحري ، والاعتراف بمصالح الانكليز في خليج البصرة مقابل وقوف انكلترا موقف حياد ودي في حالة اشتباك المانية مع فرنسا .

ومن حسن الحظ ان مساعي بوانسكاره احبطت دسائس الامبراطور ، وادامت الاتفاق الثلاثي بين فرنسا وروسية وانكلترا .

الفصل السابع سياسة ايطالية



ان ايطاليا اصبحت متحدة وحررة واصبح في ايدينا
اسماؤها وابصارها الى مصاف الدول الكبرى .

من خطاب فيكتور حانوبيل في فلورنسة
في • كانون الاول سنة ١٨٧٠



مطامع رومية وآمالها - حركاتها في البحر الاحمر وسواحل افريقية الشمالية - عدوان ايطاليا
على حماية فرنسة الدينية في الشرق العربي - الحرب الطليانية التركية .

— ١ —

كان لا بد لايطالية الحديثة وريثة روما وجنوه والبندقية من السعي لزيادة نفوذها
في البحر الابيض ، وللبروز كدولة استعمارية كبرى ايضاً . وما يؤسف له ان تكون
خطواتها الاولى في سياستها الشرقية موجهة ضدنا وان يكون ما بدا منها من اتجاه
الى مصادقة انكسار اولاً والمانيا اخيراً والاتفاق معها لضررنا وعلى حسابنا .

فعلى الرغم مما اسداه نابليون الثالث من يد طويلة في سبيل الوحدة الطليانية ،
ومن وحدة الحضارة والمصالح ، ومن زمالة الحرب في ميادين القرم وايطالية التي كانت
نتيجة لتحالف فرنسة وحكومة ييمونقي ، فان المطامع الاستعمارية قد فصمت الروابط
المتنوعة التي كانت تربط فرنسة بايطالية وصار من المقدر للامتين ان تتنازعا من
اجل تونس والحبشة والشرق العربي .

على ان مطامع المانيا والنمسة في البحر الابيض والشرق ، جعلت حكومة روما
تدرك اخيراً ان مصلحتها الحقيقية في جانب الائتلاف الثلاثي بصورة عامة ، والتقرب
الى فرنسة بصورة خاصة .

— ٢ —

ان كثرة النفوس الإيطالية اضطرت حكومتها الى البحث عن اراض يستطيع ان يستقر فيها من تضيق بهم شبه الجزيرة من مهاجريها ؛ وقد اتجه نظرها في بادئ الامر نحو تونس ولكن فرنسا لم تكن لتتخلي عن هذا الاقليم ، لانه لا بد لها منه من اجل سلامة املاكها في شمال افريقيا . ولما خاب امل الحكومة الطليانية هنا حولت نظرها الى البحر الاحمر والحبشة . وكان ظرف انكلترة مما يحمل حكومتها على تشجيع ايطالية وتحريك مطامعها هنا ، اذ تستطيع بالتعاون معها ان تنمّع ثورة المهدي وتعرقل جهود وحرركات فرنسا نحو الهند وطرقها .

ولم تلبث خطوات ايطالية في الشرق ان اسرعت واتسعت . وقد بدأت هذه الخطوات اولا بالبعثات التبشيرية ، ونذكر منها خاصة بعثة الكونت بير انطونيلي الذي اصبح في برهة وجيزة المستشار الاول لنجاشي الحبشة ، والممثل الرسمي لحكومة ايطالية عنده .

وفي عام ١٨٨٢ احتل الطليان عصب ، وفي عام ١٨٨٥ اي في السنة التي استولى المهدي فيها على الخرطوم تصرف الانكليز باراضي مصر التابعة للخبديوي تصرف المالك الكريم فسمحوا للقوى الطليانية بالحصول على مصوع ، وطلبوا من الحماية المصرية ان تنسحب منها فانسحبت .

على ان القوى الطليانية منيت في سنة ١٨٨٧ بخيبة وهزيمة في اقليم تيغري الذي كانت احتلته . وحينئذ تقاضت حكومة روما مع النجاشي منليك الذي كان ينافسه الرأس تيغري ، وعقدت معه معاهدة « المجالي » في ٢٢ مايس ١٨٨٩ ، وهي المعاهدة التي جعلت جميع بلاد الحبشة تحت حماية روما من الوجهة النظرية .

وفي نفس السنة استطاع الطليان توطيد اقدامهم في جنوب بلاد الحبشة وسواحل افريقية الشرقية ، وفي عيبه وبنادير وجميع الانحاء الممتدة من نهر غوبا الى غرب رأس غوارد افولي . وفي سنة ١٨٩٠ احتلوا كسالة واغوردي على طريق الخرطوم ، فأثار هذا هواجس انكلترة ، وحملها على التفاهم مع ايطالية ، بحيث تطلق يدها في جميع بلاد الحبشة على أمل ان تحدد حركاتها في وادي النيل ، وان توجه سيرها

وانظارها الى انحاء أخرى ، وقد عقد بين الفريقين فعلا سنة ١٨٩١ اتفاقان احدهما في ٢٤ مارس وثانيهما في ١٥ نيسان ، ثبتت فيها من جهة حدود بلاد الحبشة الجنوبية الغربية من ساحل المحيط الهندي الى النيل الازرق ، ومن جهة حدود هذه البلاد الشمالية الغربية من النيل الازرق الى البحر الاحمر ، ثم عقد اتفاق ثالث في ٥ مايس سنة ١٨٩٤ ثبتت فيه الحدود بين بلاد الحبشة كذلك وبين الصومال الانكليزي ، ولم يحسب في هذا الاتفاق اي حساب لما تم عليه بين فرنسا وانكلترا في عهد عام ١٨٨٨ من احترام تمام اقليم تيغري .

ولم يكن النجاشي منليك يفكر حينما اتفق مع ايطالية الا بالخلاص من راس تيغري ؛ فلما تحقق املة سارع الى اعلان انفساخ اتفاق العجالي ومنذئذ قام الخلاف المسلح بين النجاشي والاطليان ؛ وقد مني هؤلاء بهزائم عديدة كان اشدها واقظعها وآخرها نكبة عدوه في شباط عام ١٨٩٦ ، ولم يكن لهم مناص بعدها من عقد الصلح مع منليك ، وكان ذلك في ٢٦ تشرين الاول سنة ١٨٩٧ حيث القيت معاهدة العجالي واعترف باستقلال الحبشة ، وانسحبت القوى الطليانية الى الاريترة مترصبة فرصة اسعد حظاً للتوغل ثانية في الداخل .

وفي اثناء ما كانت حكومة روما توطد سيطرتها على الاريترة لم تحسب حساب حقوقنا التي اكتسبناها سابقا في ادوليس وعدوه وام فيلا ، بل ان وزارة كريسبي وقفت منا عام ١٨٨٨ موقف المعتدي ايضا ، مما حمل وزارة خارجيتنا على تقديم احتجاج حازم وان صيغ بأسلوب معتدل . على ان توتر آخر حصل في كانون الثاني من عام ١٨٨٦ قبل هزيمة عدوه ، وعلى اثر استلام الحماية الطليانية في مكالا ، فقد اراد كريسبي ان ينزل حملة الى المصوع ويسيرها على هرر ، فرأت فرنسا ان تذكر انكلتره بان تمام ملك هذا الاقليم قد صودق عليه واعترف فيه في المعاهدة الافرنسية الانكليزية لعام ١٨٨٨ ؛ وحينئذ لم تسمح حكومة لندن لاطالية بتنفيذ ما ارادت .

واول تقاض على الحدود بين الممتلكات الافرنسية في جيبوتي وبين الاريترة الطليانية كان عام ١٨٩١ . وفي سنة ١٨٩٨ حدث خلاف حدودي ساق حكومتي باريس وروما

الى تفاهم آخر تم سنة ١٨٩٥ . وفي سنتي ١٩٠٠ و ١٩٠١ عقدت بروتوكولات
ثبتت فيها هذه الحدود نهائيا ومنذئذ لم يقع هنا حادث محل بالصلات الافرنسية
الطليانية .

— ٣ —

اما في الشرق العربي فأن ايطالية لم تقم في بادى الامر الا بدور ضعيف جداً ؛
ومن عام ١٨٧٠ الى ١٨٩٥ لم يكن من شأنها الا السير وراء السياسة الانكليزية .
غير انها اخذت بعد ذلك تخطو خطوات سريعة ، وخاصة في ميدان التجارة والملاحة
والثقافة ، ومن جملة ذلك ما كان من نشاط شركة كومرسيل في تسيير السفن في
خطوط عديدة بين موانئ الدولة العثمانية بتشجيع ورعاية كريسبي ، وما كان
كذلك من نشاط جمعيات الدعاية والثقافة الطليانية مثل جمعية دانتي اليكري ،
وجمعيه اومانيارا اللتين قامتتا بمجد عظيم في سبيل نشر اللغة الطليانية ، والنفوذ الطلياني
في هذا الشرق .

ومما يؤسف له ان هذا النشاط كان على حساب فرنسة وضررها ايضا . فأيطاليا
الداخلية في الاتفاق الثلاثي (المانية — النمسة — ايطالية) والمناوئة للبابا والفرسونية
معاً لم تر ما يمنعها من بذل مساعيها جبهة ضد حمايتنا الدينية في الشرق العربي ، وقد
نجحت المساعي التي بذلتها منظمة « الاتحاد القومي لحماية البعثات التبشيرية الطليانية »
ومؤسسات « غوستودوي » والفرنسيسكان في القدس والتي اندفع في تعصيدها
المر كيز امبريالي سفير ايطالية في الاستانة وجميع القناصل الطليان اندفاعاً شديداً في
حمل بعض المؤسسات المذهبية والروحانية على الانفصال عن حمايتها الدينية والدخول في
حماية حكومة رومة .

ولقد كان البابا ليون الثالث أيد حقوق حمايتنا هذه عام ١٨٨٨ . غير اننا لم نلبث
ان ابتعدنا عن الفاتيسكان ، ثم قطعت حكومتنا صلاتنا به نهائياً بينما اخذت حكومة
رومة من جهة تقترب اليه ، ومن جهة تحل المدارس التبشيرية في الشرق العربي محل
المدارس الألمانية . وظل الامر على هذا الى ان انفجرت الحرب العالمية .

— ٤ —

ولقد طمعت ايطالية في طرابلس الغرب وبنغازي منذ امد طويل ، وفي ١٢ كانون الاول من سنة ١٨٨٧ نالت وعداً من انكلترة بعدم معارضتها من حيث المبدأ فيما قد تخطوه من خطوات في سبيل تحقيق مطمعها . وقد ضمنت كذلك بدخولها في الاتفاق الثلاثي موافقة كل من حليفتيها المانية والنمسة . وكانت هذه الموافقة تتجدد من حيث المبدأ كلما تجدد امد هذا الاتفاق . ولقد حصلت عام ١٩٠٢ على موافقة كل من فرنسا وروسيا ايضاً .

فلما اعلنت النمسا ضم البوسنك والمهرسك ، وقامت فرنسا بحملتها على فاس ، واحتل الاسبان العرش والقصر ، وبرزت المانية على المسرح اخيراً في حادث اغدير رأت ايطالية ان تقدم هي الاخرى لتحقيق املها في ذينك الاقليمين ؛ فاخبرت الدول في شهري آب وايلول من سنة ١٩١١ بعزمها ، واعلنت الحرب على الدولة العثمانية وقصفت بمدافعها مدينة بيروت والحديدة ، وانزلت قواتها الى طرابلس الغرب . وقد انتهت الحرب بمعاهدة اوشي في ١٥ تشرين اول عام ١٩١٢ التي تخلت فيها الدولة العثمانية عن اقليمي طرابلس وبنغازي لحكم ايطالية وسيطرتها .

ولقد احتلت القوات الطليانية في اثناء الحركات الحربية الجزر الاثنتي عشرة في بحر ايجة ؛ فلم تجل عنها بعد عقد المعاهدة بل صدرت اليها الاوامر بعدم مغادرتها ، كضمانة على تنفيذ احكام المعاهدة تنفيذاً تاماً ؛ اي الى ان لا يبقى جندي تركي واحد في الاقليمين المذكورين (١) هذا في حين انه كان من المتفق عليه بين الدول ان تعطي بعض هذه الجزر لليونان .

وفي عام ١٩١٢ جدد الاتفاق الثلاثي ، ثم قام المركز سسان جيولاتي برحلة الى

(١) تحتل الدولة العثمانية عن طرابلس وبنغازي بموجب قانون منحها به استغلا ، وانشر به نيابة سلطنته . وتهدت الدولة بسحب ضباطها وجنودها ، فانفتح المجال لاطالية لاحتلال البلاد وبسط سيطرتها عليها بجهدها . ولقد ظل الجهاد مستمرا ضدها وعن كثير من ضباط وجنود الدولة من ترك وعرب مندجوس في هذا الجهاد ، فكان هذا ما انكأت عليه ايطاليا في موقفها من الجزر ...
العرب

برلين ، وتقابل فيكتور عمانوئيل في تموز عام ١٩١٣ مع الامبراطور في كيل ، فانعشت هذه المظاهر الاتفاق المذكور ، واغتنمت ايطالية الفرصة فنالت موافقة حليفتها على الاحتفاظ برودوس وجزر بحر ايجه المذكورة . وفي هذه الاثناء اخذت الصحف الطليانية تشير الى احتمال قيام ايطالية بحركة سلمية تجاه مدينة انطاكية والاقسام المواجهة لجزيرة رودوس من اقليمها ، ولم يلبث ان وضح معنى هذا الكلام ، حيث تقدمت ايطالية الى الدولة العثمانية بطلب امتياز بإنشاء مرفأ للمدينة المذكورة ، وخط حديدي يربطها بمدينة بوردو وكان من المتصور ان يتصل هذا الخط بخط حديد الانكليز الممتد بين بوردو واكردير وآيدين وازمير ، ثم اخذ الكلام يدور على امتياز خط آخر بين انطاكية واربيكلي لوصل هذه الشبكة بخط بغداد .

وفي شباط عام ١٩١٤ اخذت الصحف الطليانية توميء الى ان جلاء القوات الطليانية عن الجزر منوط بامتياز مرفأ انطاكية وخط حديد بوردو ، ودفع غرامة حربية ، وتبرهن على حق ايطالية بالغرامة بما كان من امتداد امد المقاومة في طرابلس الغرب ، وبما تحمته من نفقات كبيرة اثناء احتلال الجزر .

ولم تكن مطامع ايطالية لتتفق بطبيعة الحال مع مطالب ودعاوى اليونان التي كان يدلي بها فنزيلوس سنة ١٩١٢ اثناء مفاوضات صلح البلقان . فقد كانت السياسة الطليانية واليونانية ومطالب كل من الدولتين شديدة التضاد ، وكان الامر كذلك حينما انفجرت الحرب العالمية .

الفصل الثامن

الدول الأوروبية والاقليات العثمانية

ومع ذلك فان الاصغاء الى مطالب بعض رعايا الدولة العثمانية بحسن نية ورغبة خير مما يقضي به العقل السليم في سبيل اجتناب المصاعب الداخلية في المستقبل . ومنذ شهور عديدة وسفيرنا في الاستانة بالتضامن مع سفراء الدول الاخرى يؤيدون لدى الباب العالي مطالب اللبنانيين الذين قدموها باللائحة اصلاحية . غير ان النصائح لا تزال تقابل بالمطلل والتسويق ولم يمكن الوصول الى نتيجة ما بعد .

من خطاب للمسيو بوانكاريه امام مجلس الاعيان في كانون الاول سنة ١٩١٢

ندخل الدول الأوروبية لمصاحبة الاقليات العثمانية - الحماية الدينية - المسألة الارمنية - الصهيونية - الحاق اروام الاناضول باليونان - الاستقلال الاداري لسوريا ولبنان - تيار الانفصال في العرب .

- ١ -

لم يحاول الانراك ان يبيدوا الامم التي كانت متوطنة في سواحل البحر الابيض ، والتي خضعت لسلطانهم حينما سيطروا على هذه السواحل بل توطنوا بينهم ، غير انهم لم يريدوا يوما ما ان يتمثل فيهم غيرهم ، حتى الذين اعتنقوا دينهم منهم . وهكذا ظل الرعايا غير المسلمين مملا وطوائف متفرقة تحت نفوذ رؤسائها الدينيين وسلطتهم . غير ان هذا لم يكن في الحقيقة نتيجة لشعور طيب ورغبة في تصرف صالح . وانما كان رغبة في الابقاء على جماعات كثيرة تقطن في اراضي الامبراطورية ،

وتؤدي لخزينتها الضرائب . ومع ان الاقليات المسيحية قد احتفظت باديانها ولغاتها
رقوانينها المدنية ومحاكمها الطائفية ، فانها ظلت عاجزة وبدون نصير ازاء ما كانت
تعرض له من تصرفات حكام الترك الكيفية وعدوانهم وتحقيرهم .

وهذا البيان الوجيز من شأنه ان يحلّي المنطق الذي يرتكز عليه ما كان يبدو على
الدول الاوروبية من حزن وانفعال من جراء ما وقعت الاقليات المسيحية فيه من
مشاكل ومصاعب ، وما كانت تقوم به هذه الدول من تدخل وجهد متواصلين لدى
السلطين كواجب انساني وديني معاً ، في سبيل حماية هذه الاقليات والرفق بها .

وبعد ان كان هذا التدخل والجهد يقعان على عاتق فرنسا او روسية فقط ،
صارا يحملان الطابع الدولي الاوروبي منذ معاهدة باريس عام ١٨٥٦ ، التي
ثبت فيها تمام ملك واستقلال الدولة العثمانية . غير ان انقسام الدول الاوروبية الى
معسكرين متعادلين جعل تدخل اوروبا المشترك غير مفيد وغير منتج في اغلب
الاحوال ، وقد استطاعت الدولة العثمانية التي كان يظاهرها غيلوم الثاني ان تخلص
من كل وعد وعده لانكسرت فرنسا وروسية بالاصلاحيات عقب كل مذبحة وقعت
على طائفة من هذه الاقليات .

وبما يجدر ذكره ان هذه التدخلات الرسمية التي كانت تقوم بها الدول بسائق
الواجب الديني والانساني كانت ترفق احيانا بمساع تخريبية لهذه الاقليات على اضعاف
الروابط التي تربطها بحكومة الاستانة استهدافا لبعض المقاصد والاغراض السياسية ايضا .
ولقد كان تدخل الاوروبيين في شؤون الدولة الداخلية يثير سخط الترك وحنقهم ،
وكثيرا ما جعلهم يتصدون القرص للانتقام من العناصر الساخطة والتخلص منها .
وقد سنحت لهم في الحرب العالمية فلم يضيعوها .

فن الضروري والحالة هذه لفهم بعض اسباب وبواعث الحرب العالمية في الشرق
الادنى جيداً ان نستعرض المسائل التي كانت تحدو بالدول الاوروبية الى التدخل في
شؤون الدولة العثمانية لمصلحة الاقليات العنصرية منذ امد طويل . وخاصة في السنوات
التي تقدمت هذه الحرب وهذه المسائل هي :

الحماية الدينية — المسألة الارمنية — الصهيونية — ضم اروام الاناضول الى اليونان — الاستقلال الداخلي لسورية ولبنان . — تيار الانفصال في العرب .

— ٢ —

ان حق حماية فرنسة لكاثوليك الشرق يرجع الى عهد الخليفة هارون الرشيد ، الذي اوفد بعثة سياسية الى شارلمان تحمل اليه مفاتيح كنيسة القبر المقدس . وبعد هذا الحادث بقليل انشأ الامبراطور في القدس مأوى للعجزة وبعض منشآت دينية . وقد عني لويس الفصالح بالمقامات المقدسة في القدس نفس العناية التي اعارها اياها الامبراطور ، ومنحها المخصصات المرتبة لها .

ولقد تضمنت الامتيازات الممنوحة لفرنسة عام ١٥٣٥ وما تبعها من المعاهدات الافرنسية العثمانية الاعتراف بحق فرنسة بصورة رسمية بحماية جميع النصارى اللاتين ، سواء كانوا تجاراً او رهباناً ، وبحماية المنشآت الكاثوليكية والاماكن المقدسة كذلك ؛ وكان من حق القنصل الافرنسي وحده ان يشهد حفلات القبر المقدس وهو متقلد سيفه .

ولم يكن حق حمايتنا يشمل من الوجهة النظرية الكاثوليك من رعايا الدولة العثمانية ، غير انهم كانوا بالفعل داخلين في نطاقها تبعاً لتقاليد مرت عليها الاحقاب ، وتمشيا كذلك مع ضرورات السياسة ومقاصدها .

اما الذين كانت تشملهم حمايتنا فهم الروم واليونان والكلدان والارمن والموارنة . وفي ايدي الاخبرين رسائل بخط لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر تتضمن صراحة انهم في حماية فرنسة .

ومع ان عهد الامتيازات الافرنسية قد جدد عام ١٧٤٠ ، فإن معاهدة قينارجة عام ١٧٧٤ منحت قيصر روسية حق حماية النصارى الارثوذكس اي الروم غير الكاثوليك والارمن الغربيين .

ولما لم تكن الاماكن المقدسة المعترف بحمايتنا لها مذكورة باعيانها في عهد الامتيازات المتجدد عام ١٧٤٠ ، فإن الروم الارثوذكس الذين يضمرون اشد العداء لللاتين اغتنموا فرصة هذا الغموض فاستطاعوا بما بذلوه من جهد ان ينزعوا بعض

الحقوق والامتيازات لانفسهم في هذه الاماكن ، وفي سنة ١٨٠٨ خاصة نالوا حقوقاً في كنيسة القبر المقدس في القدس والمهد في بيت لحم .
ولقد تكرر عدوان هؤلاء وسرق من كنيسة المهد ثريا فضية ، فحدا هذا وذلك بفرنسا عام ١٨٤٧ الى تقديم احتجاج الى الحكومة العثمانية ، ولكن روسية التي كانت تنفس علينا نفوذنا في الاسقانة سارعت الى التزام جانب الارثوذكس ؛ وكان هذا من اسباب حرب القرم .

وقد نالت روسية نتيجة لمعاهدة باريس اراضي واسعة في شمال القدس ، فانشأت عليها منشآت متنوعة ، ومن جهة اخرى فقد نشطت دعايتها نشاطا عظيما بواسطة الجمعية الارثوذكسية الفلسطينية . ولقد عارضت اشد معارضة للرغبة التي ابدتها البابوية في توحيد الكنيسة الشرقية ، وللمساعي التي بذلت في سبيل تحقيقها ، لما في هذا من حد لمجال التنافس في هذه الساحة ، ولم يكن الاتفاق الروسي الافرنسي ليحول دون استمرار الخلاف والتشاد بين اللاتين والارثوذكس ، حيث ظل كل فريق يحتفظ للآخر بأشد عواطف العداء والضعينة .

على ان حق حمايتنا الدينية قد تعرض لتهجم شديد جدا بعد هزيمةنا سنة ١٨٧٠ ، فحدا هذا بحكومةنا الى ان تشترط بكل حزم وتوكيد لاشتراكها في مؤتمر برلين اعتراف الدول المشتركة فيه بحق فرنسا الصريح في ذلك ، ولقد تضمن متن المعاهدة شرطنا هذا وبذلك اعترفت الدول بصورة رسمية بتقاليدينا وحقوقنا في الشرق .

ولقد اعترفت معاهدة برلين بحق حماية كل دولة لرعاياها ، وظل الباب العالي يراوغ امدا طويلا في الاعتراف بهذا لفرنسة وحدها . ولقد استغلت ايطالية اعتراف معاهدة برلين بهذا فادعت انه لم يعد لفرنسة حق حماية جميع كاثوليك الشرق بلا استثناء ، وان كل ما يمكن ان يكون لها حق حماية الكاثوليك من رعايا الدولة العثمانية . ونقيد مع الشكر ان البابا ليون الثالث عشر ابد حق حمايتنا المطلق ودافع عنه بكل حماسة .

وفي سنة ١٨٨٨ استطاعت حكومة كريسبي ان توفى بعض التوفيق بين دول الاتفاق الثلاثي وانسكترة في صدد توطيد حاية ايطالية للاساقفة الطليان ، فسارع البابا الى اصدار امر عام لجميع البعثات والمؤسسات الدينية بالاستمرار في الاعتراف بحق الحاية الافرنسية فقط ، وبعدم مراجعة غير فرنسة في ما قد تحتاج اليه من معونة وتعزيد .

ولقد حاولت الحكومة الطليانية بعد هذا ان تتفاهم مع البابوية ، ولم تتراجع عن موقفها ضدنا . وكانت التحريضات على الحقوق الافرنسية تبث خاصة من مؤسستي غوستودوي والفرنسيسكان الطليانيتين في القدس ، وكانت هاتان المؤسستان تعتديان على صلاحيات قنصلنا في القدس ، وتفرقلان مساعيه ومواقفه في ممارسة حقوق الحاية الافرنسية .

على ان ازعاجنا والتهجم على حقوقنا لم يبقا قاصرين على ما كان يبذل ضدنا من الروس والطليان ، فان رحلة غليوم الثاني عام ١٨٩٨ الى القدس انتجت تهجما جديداً على حقوق حايبتنا ، حيث وصف نفسه حامياً لكاثوليك الالمان ، مما حدا بالبابا الى اصدار رسالة جديدة الى الكاردينال لانيجينو ايد فيها حقوق فرنسة علناً .

ومن هذا يبدو ان البابوية فقط هي التي كانت تقف مانعاً دون اضعاف حق حايبتنا الذي تعرض لتهجم المنافسين ومساعيم المضادة والاخلال به ، ومن هذا يسهل تخمين ما اصاب حقوتنا ومركزنا في الشرق من ضرر بليغ بسبب انقطاع الصلات السياسية بين فرنسة والبابوية نتيجة للقوانين التي اصدرناها ضد المذاهب الدينية ، والسياسية التي سرنا عليها في التفريق بين الدولة والكنيسة ، والمبول المضادة للدين التي ظهرت في البرلمان .

ولقد كان حق حايبتنا الدينية قبيل انفجار الحرب العالمية على وشك الزوال ، وكان من المقدر ان لا يبقى بعد الحرب البتة . وقد كان اول عمل قام به الاتراك عقب نشوبها اعلانهم الغاء الاميازات التي كان يرتكز عليها ذلك الحق .

ان السكان الاتراك في الاقسام الممتدة في البحر الاسود والقفقاس واران وسورية

وخليج اسكندرونة من آسية الصغرى وخاصة في ولايات ديار بكر وسيواس وطربزون وارضروم قليلون ، وكتلة السكان الكبرى فيها تتألف من عناصر مسيحية اكثرها عددا الارمن ، وفيها اقلية سرانية وكلدانية كما فيها كتلة قوية وكبيرة من الاكراد المسلمين . وكان هؤلاء الاخرون يلقون عطفاً وتأييداً من الاتراك ويحملون نحو جيرانهم المسيحيين حقداً وكراهية . وهم الذين كانوا يقترفون مذابح الارمن التي تكررت منذ الفتوحات العثمانية .

ولقد منحت معاهدة فينارجه عام ١٧٧٤ لقيصر روسية حق حماية الارمن الغريغوريين (١) والاروم غير الكاثوليك ، ومنذئذ اخذت روسية تبأثر حقها لمصاحبة محبيها بانتظام وعناية ، وكانت تأمل ان يأتي يوم تستطيع فيه السيطرة على ارمينية ، والنزول على ساحل البحر الاحمر من طريق الاناضول ، غير ان معاهدة باريس عام ١٨٥٦ قضت على انفراد روسية في التدخل بشؤون ارمينية وجعلت ذلك في نطاق الدول المشتركة بالمعاهدة . وقد استطاعت هذه الدول في مؤتمر برلين ومعاهدته عام ١٨٧٨ ان تبطل مفعول كثير من احكام معاهدة الاستفانوس التي قضت بتدخلي الدولة العثمانية عن اردهان وقارص وبازيد للروس ، وان تنتزع من الباب العالي عهداً اصلاحياً لمصلحة النصارى الساكنين في الولايات الارمنية تحت اشرافها جميعاً .

على ان الاتراك لم يراعوا هذا العهد الذي نصت عليه المادة ٦١ من معاهدة برلين كما كان شأنهم في ما قطعوه على انفسهم بالاصلاح في خط الكليخانة عام ١٨٣٩ والخط الهايوني (٢) عام ١٨٦٥ ؛ بل لقد انشأ السلطان عبد الحميد عام ١٨٩٠

(١) ان الفاتحين الترك اعترفوا في اول الامر بطرك ارمني واحد ولكن الارمن الكاثوليك انشأوا لانفسهم في القرن التاسع عشر بطركية خاصة قامت الى جانب البطركية الغريغورية .

المؤلف

(٢) خط الكليخانة وخط الهايوني علان على مرسومين سلطانيين عثمانيين باجراء اصلاحات ورعاية حقوق الاقليات .

المغرب

كثيية من الكرد سماها الكتيبة الحديدية ، ورسم لها نحو الارمن بصورة تدريجية ومنظمة ؛ ولقد كانت هذه الكتيبة في الحقيقة بلاء عظيما على الارمن ؛ ومع ذلك فان السلطان لم يجد هذا كافياً ومؤدياً الى الغاية بسرعة ، فاحذ يرتب المذابح المنتظمة ضدهم ؛ حيث كانت مذابح سني ١٨٩٤ و ١٨٩٥ و ١٨٩٦ التي ذهب فيها نحو مئة الف ضحية ارمنية .

ولقد وضع سفراء روسية وفرنسية وانكلترة عقب المذبحة الاولى عام ١٨٩٤ التي تعرف بمذبحة ساسون مذكرة احتجاجية واصلاحية مشتركة ايدها الدول الاخرى الموقعة على معاهدة برلين وهي المانية والنمسة وايطالية ، وقد قبلها السلطان ولكنه لم ينفذها . والواقع ان عبد الحميد كان يعرف انه يستطيع الاستناد في موقفه الى وعد التعضيد والمناصرة الذي قطعه له امبراطور المانية اثناء زيارته الاستثنائية ، كما انه كان يرى ما بين الدول من تشاد وتنافس وخلاف ، فجعله هذا وذاك يماطل في تنفيذ ما وعد به . وفي الحقيقة ان التنافس الروسي الانكليزي في آسية في هذه الظروف كان مشتدا اشتدادا عظيما ، كما كان الخلاف قائما بين انكلترة وفرنسية حول المسألة المصرية ، ولم تكن روسية تخفي رغبتها في ضم ارمنية اليها ، وظلت فرنسا حائرة مترددة بين مراعاة مصلحة روسية وبين رغبتها في بقاء ملك واستقلال الامبراطورية العثمانية سليمين ، وقد التزمت انكلترة جبهة جانب الثوريين الارمن الذين التجأوا الى بريطانية ، مستهدفة بذلك حمل الدولة العثمانية على الاعتراف باحتلالها مصر وقيام نوع من كيان ارمني يكون ممائلا للكيان البلغاري ووسيلة للتدخل الاوروبي المشترك ، فتستطيع بذلك ان تحول دون تقدم روسية نحو خليج اسكندرونة .

على ان روسية لم تبد في اي وقت عطفاً صادقا وقويا على الارمن ، ولقد جنحت الى سياسة سحق الميول الانفصالية التي اخذت تبدو في ارمن القفقاس ، حتى انها وعدت الباب العالي سرا عام ١٩٠٠ بالوقوف بالمرصاد للارمن العثمانيين الذين لجأوا الى الحدود القفقاسية بعد مذابح سني ١٨٩٤ - ١٨٩٦ ، وانتزعت مقابل ذلك منه وعدا بعدم منح امتياز بحظ حديدي ما في ارمنية لغير الروس ، ومع هذا فانها اخذت وقتاً ما تلوح للارمن ببعض الآمال ، وتشعرهم بإمكان مساعدتها لهم على احياء

مملكة ارارات الارمنية تحت حمايتها ؛ وكان الارمن مستعدين لقبول اي يد ومساعدة تمد اليهم ولو كانت من الروس ؛ لانهم كانوا في كرب عظيم ، وكل ما كانوا يتمنونه حق الحياة والسلامة من عدوان جديد .

وفي عهد تركية الفتاة وقعت في عام ١٩٠٩ مذبحه ارمنية جديدة لفتت نظر الدول الاوروبية ثانية الى المسألة الارمنية ، ولكن هذه الدول لم تستطع ان تفعل شيئاً مجدياً حيالها .

وفي اوائل عام ١٩١٢ عهدت جمعية اجميازيان الى بوغوص نوبار باشا بمهمة السعي لدى الدول الاوروبية ، واثارة اهتمامها لتنفيذ المادة ٦١ من معاهدة برلين ، ولم تسفر مساعي الرجل عن نتيجة عاجلة ما ، لانها كانت تنطوي بصورة خفية على مشروع جعل الاصلاحات المطلوبة بأشراف روسية .

على ان روسية استمرت سائرة وراء المشروع ، فقد رأت ان نجاح المساعي الالمانية في مد الخطوط الحديدية في الاناضول مما يمكن ان يكون له اثر وصلة بالامن في ارمينية ، فحداها هذا الى التخلي عما اعتادته من سياسة التظاهر بعدم الابوة لمسائل الاقليات العثمانية ، وكانت فرنسا وانكلترا ترغبان فعلا في نجاح الاصلاحات الارمنية على امل القضاء على مطامع روسية في الولايات الارمنية ، حيث كان من شأن تحقيق هذه المطامع ان يفتح الطريق الى تصفية الامبراطورية العثمانية تصفية عامة ، وحيث كان من المحتمل حينئذ مبادرة المانية الى احتلال الاناضول و«كليكية وتوطيد اقدام الاسطول الالماني بعد ذلك في خليج اسكندرونة واخلاقه بموازنة البحر الابيض .

ومن جهة اخرى فان الدولة العثمانية التي خرجت من حرب البلقان منهوكة جداً كانت في حاجة الى مساعدة اوروبية مالية ، وقد تقدمت فعلا بطلب هذه المساعدة فترأى للدول الاوروبية في هذه الظروف احتمال وامكان تطبيق اللاتمة التي قدمتها الى لدولة المذكورة باصلاح الولايات الارمنية ، وعهدت الى حكومة بطرسبرج بحمل الباب العالي على تطبيقها . ولقد ادت المساعي في هذا السبيل الى عقد اتفاق بين سفير روسية في الاستانة والصدر الاعظم بتاريخ ٨ شباط سنة ١٩١٤

تعهد فيه الباب العالي بادخال بعض الاصلاحات على ادارة الولايات الارمنية ، حيث تقسم الى قسمين احدهما يتألف من ولايات سيواس وارضروم وطربزون ، والثانيها من ولايات بتليس ووان وخربوط وذياريكر ، ويقوم على رأس كل قسم مفتش اوروبي توافق الدول عليه ، مهمته العناية بأمن وسلامة العناصر غير التركية ، وكانت هذه الخطوة على وشك التنفيذ قبيل الحرب العالمية ، حيث عين المفتشان وكان احدهما هولاندياً والاخر نروجياً واستعدا للسفر والعمل . غير انه كان من المقدران تحول الحرب دون ذلك ، وان يفتنهما الترك فرصة سانحة لقلع جذور الارمن من الاناضول .

— ٤ —

ان السلطان محمد الثاني بعد فتح القسطنطينية جعل جميع اليهود تحت سلطة رئاسة حاخامين واحدة . وكان اكثر اليهود العثمانيين — باستثناء بعض جماعات متفرقين في انحاء مختلفة — يقطنون في فلسطين وخاصة في القدس . وكان هؤلاء باستثناء نادر جدا في حالة بؤس شديد ، يعيشون على صدقات ترد اليهم من بني دينهم في مختلف انحاء الارض .

ومنذ تاريخ ١٨٧٠ جعلت الاضطهادات الروسية والميول ضد السامية التي اخذت تنتشر في مختلف البلاد الاوروبية تسوق اليهود الى الهجرة بكثرة الى فلسطين . وفي هذه الاثناء انبثق في نفس بعض المثاليين اليهود امل جمع كتلة كبيرة يهودية في فلسطين ، وتجديد مملكة صهيون ، واخذت منظمات محبي صهيون و « الاتحاد الاسرائيلي العام » على عاتقها ادارة وتعضيد وتنسيق الحركات الصهيونية . وقد طاهرها البارون روتشيلد مظهره نبيلة وسخية جدا ، وادخلت الحركة الصهيونية في حركة جمعية الاستعمار اليهودي التي كانت تحت رعايته . ومما يجدر ذكره ان الحركة الاستعمارية اليهودية الاولى لم تأت بشمرة ذات بال على الرغم مما بسذل من جهود ، ولم تسر في طريق النجاح الا بعد ان اضطلع بالامر الجمعية المذكورة منذ عام ١٩٠٠ . ولقد لقي توطن المهاجرين اليهود في فلسطين ممانعة قوية من جانب الدولة العثمانية ، فان الترك لم يرضوا بحال عن انتزاع الاراضي من ايدي اصحابها وتسريبها الى ايدي الصهيونية .

ولقد عرض الصهيونيون على السلطان عبد الحميد ان يمنحهم حق الاستملاك مقابل تعهدهم ببيع ديون الامراطورية ، ولكن عرضهم قوبل بالرفض . وكل ما سمح لهم السلطان به حق الاقامة والاستملاك في العراق على شرط ان لا يتجاوز عدد اليهود في مكان ما الالف ، وقرر مع هذا تحديد وانقاص عدد المهاجرين اليهود الى درجة كبيرة ، ولم يسمح كذلك بتحقيق مشروع السير اوليفانت الانكليزي الذي يتضمن تحويل مناطق جلعاد ومواب (١) الى مزارع خصبة مساحتها ستماية الف هكتار لاسكان اليهود فيها ، ولقد رفضت حكومة الاتحاد والترقي ايضاً مشروعاً مثل هذا (٢) لانها خشيت ان يتولد عنه اضطرابات واعتداءات ضد اليهود .

ومع ذلك فان النشاط الصهيوني ظل مستمراً ، على الرغم من اوامر الاستئانة بفضل تستير وتساehl الحكام الترك الذين كان يجذبهم الكرم الذي لم تقصر فيه الجمعيات اليهودية ، فانتسعت حركة الاستعمار اليهودي حتى صار لليهود في سنة ١٩١٢ اربعون قرية مساحة اراضيها اربعون الف هكتار بزرع ثلاثة ارباعها . وكان اليهود المستعمرون الذين بلغ عددهم اذ ذاك خمسة وستين الفاً (٣) موزعين في مناطق اليهودية والسامرة والجليل وما وراء الاردن ، وكانوا يلقون تعصيداً ومظاهرة من المنظمات اليهودية المتنوعة في المانية وفرنسة وانكلترة ، وكانت مدارس جمعية الايلانس تعلم اللغة الافرنسية كما كانت مدارس هيلفسورين تبت الثقافة الالمانية ، وكانت مدارس اليهود الدينية الارثوذكسية تدرس التلمود والتوراة باللغة العبرانية .

ولقد كان مستقبل الصهيونية قبل انفجار الحرب العالمية غامضاً مشكوكاً فيه ،

(١) هذه مناطق في شرق الاردن . والتسميات هي نورانية . وجماعات منطقة السلط اليوم كما ان مواب منطقة عمان ومادبا .

(٢) اراجع ان هذا المشروع هو الذي عرف بمشروع الاصفر . وقد كانت حكومة الاتحاديين مترددة بين الاعطاء وملتج فيه حيث كان بين اعضائها اختلاف في ذلك . ولقد هاج اهل فلسطين لاشاعات هذا المشروع وعقدوا الاجتماعات ورفعوا الاحتجاجات فلم يلبث ان تعطل .

(٣) العبارة توهم ان العدد هو عدد اليهود الزراعيين فقط في حين انه عدد جميع اليهود في فلسطين .

وكان استمرار اليهود في شراء الاراضي والهجرة يثير خوف اهل فلسطين وقلقهم ويحدو بهم الى رفع الاحتجاجات الشديدة ، على ان الدول الاوروبية باستثناء المانية كانت في موقف غير الابه لهذه الحركة ، ولم تكن انكلترا خاصة قد ادركت بعد ما يمكن ان يكون فيها من عون عظيم لاهدافها الاستعمارية العظمى في الشرق .

— ٥ —

ان الاروام (١) الذين كانوا يقطنون في الاناضول والجزر المجاورة لسواحلهم قد دخلوا في الرعوية العثمانية منذ فتح القسطنطينية ، ولكنهم لم ينسوا اليونان القديمة ذاكرين دوما عهد حروب طرواده الممتدة بالاساطير ، وفتوحات الاسكندر الكبير ومجد الحكم البيزنطي . وقد ظلوا تحت حكم الترك ملة متميزة تحت رئاسة وسلطة بطركهم . وكانت كنائسهم الكبرى تقطن في الانحاء الممتدة من باندروما الى خليج مارصبي في سواحل بحر مرمرية ، وفي الانحاء الاخرى الممتدة في خط طويل يصل الى رأس غاستيلوريزو غربا ، وكان قسم منهم يقطن في سواحل البحر الاسود وخاصة في المنطقة الواقعة بين سينوب وباطوم ، وقسم آخر في ولايات بورصة وسيواس وقونية ووديان طوروس العليا ، وكانت بقيتهم منشورة على سواحل الاناضول الغربية وفي الجزر الاثنتي عشرة وفي جزيرة قبرص .

ولقد تعرض اردام الاناضول واخوانهم في الرومالي لاضطهادات تركية كثيرة وفي اوقات متعددة ، حتى لقد اوقع فيهم مذبحة عظيمة في ازميز عام ١٧٧٠ ، وحينما نشبت الثورة اليونانية في بلاد اليونان الاصلية ضد الحكم العثماني عام ١٨٢١ ازداد اضطهادهم واشتدت آلامهم ، حيث شق بطركهم في الاستانة وقتل مطارنتهم في افس وايزنيق ، وذبح منهم عدد كبير في ايواقي وازميز . وعلى الرغم مما حل فيهم فان عهد لندن ٢٢ مارس ١٨٢٩ لم ينقذهم ويلحقهم بوطنهم الام ، وكل ما كان منه ان ضمن لهم حق الهجرة اليه . ولم يكونوا محظوظين كالارمن ، فنسيبتهم معاهدة برلين التي ذكرت هؤلاء بعناية ملحوظة . وكان من الطبيعي ان لا تظاهروهم روسية لانها كانت

تبدل جهدها لقلع الرهبان اليونانيين من مؤسسات البطريركيات الارثوذكسية واحلال الرهبان الروس محلهم .

- ٦ -

ان نظام لبنان الذي تقرر سنة ١٨٦١ قد ازال الحكم الاقطاعي السابق ، مع ان هذا الحكم ساعد كثيرا في حماية حرية الاهلين المدنية والدينية . وقد اصبح لبنان بذلك النظام متصرفية مستقلة استقلالاً ادارياً يقوم على رأسها متصرف يعينه الباب العالي لمدة خمس سنين ، ويقرتن تعيينه بموافقة الدول الموقعة على النظام ، ويساعده مجلس اداري اهلبي منتخب ، ويحفظ الامن والنظام فيه قوة من الدرك المحلي .

غير ان الدولة العثمانية لم ترع عهداً ، وسارت في سياسة الغاء امتيازات اللبنانيين خطوة بعد خطوة ، وكان هؤلاء لا يفتأون يطالبون باصلاح نظامهم ، وخاصة بحدودهم التي كانت لهم قبل سنة ١٨٤٠ ، وقد كان هذا الطلب الاخير مما تناوله النقاش في اثناء مذاكرة وضع نظام لبنان الجديد فاستبعد عن البحث بمعارضة اللورد دوفروين ، في حين كان ضم سهول البقاع وعسكار وثغور بيروت وطرابلس وصيدا من الامور الحيوية جداً للبنان ، ولا سيما وان حالته الاقتصادية اخذت تسوء يوماً بعد يوم .

ولقد بعث انقلاب عام ١٩٠٨ (١) في نفوس اللبنانيين آمالاً كبيرة ، غير ان رجال تركيا الفتاة لم يلبثوا ان ساروا على النهج القديم الذي كان يسير عليه السلطان ، ولم يساعدوا اللبنانيين الا في امور تافهة جداً اتصل بكيفية تأليف مجلس الادارة وبشكليات المالية والعلمية . وقد سمحوا بفتح ميناءي جونيه والنبي يونس للملاحة .

ولقد حدا الاسلوب الاداري المركزي الضيق الذي سار عليه رجال تركية الفتاة بالموريين مسلمين وغير مسلمين الى المطالبة باستقلال اداري على نمط لبنان . وفي سنة ١٩١٣ وضعوا منهجاً لا مركزياً واسعاً يقرهم الى الاستقلال الذاتي ، واخذوا يسعون في سبيل تحقيقه وكان ينص على بقاء سلطان الدولة على بلادهم ، ولم

(١) اي اعلان الدستور .

يبد من واضعيه اي ميل انفصالي ، وحرصوا على ان تظل الرابطة بين بلادهم وحكومة الاستانة قائمة وطيدة ، وكان كل مطلبهم ان يكون لهم شأن ومشاركة في ادارة الشؤون الخاصة والمحلية .

وكما انشأ السوريون حزب اللامر كزية انشأ اللبنانيون برئاسة شكري غانم الجمعية اللبنانية للدفاع عن مصالحهم ، ولم يمض طويل وقت حتى وجدت وحدة الميول والمطالب والعنصر والخطر بين السوريين واللبنانيين ، ففسوا ما بينهم من خلاف ديني وسياسي ووجدوا ماسعهم ، وانشأ عن هذا مؤتمر سوري لبناني انعقد في باريس في حزيران عام ١٩١٣ وشهد مندوبون عن سورية ولبنان والمهاجرين في مختلف الانحاء (١) ، وارسل المؤتمر مطالبهم الاصلاحية الى الدولة العثمانية والدول الاخرى ، وهذه المطالب المتسامحة التي ظلت في نطاق التضامن والاتحاد العثماني صارت اساس منهج الوطنيين السوريين واللبنانيين في اثناء الحرب .

ومع ان مسائل لبنان وسورية قد اصبحت دولية منذ معاهدة باريس ، فان فرنسا كانت هي التي تتقدم وتبادر في كل خطوة او سعي يقتضيها الامر في صدد هذه المسائل . ففي سنة ١٨٦٠ مثلاً عهد اليها بمهمة حماية الموارد والنصارى تجاه الدروز . ومنذ ذلك الوقت لم تأل جهداً في الدفاع عن اللبنانيين ازاء الاضطهادات التركية ، ولم تكن مظاهرتنا للنصارى لتمنعنا من تأييد مطالب المسلمين السوريين ، لاننا كنا نرغب في نفع جميع السوريين بمساعيينا وجاهنهما كانت اديانهم (٢) ، ومن اجل ذلك اتحدنا مع الدول الاخرى في طلب اصلاحات تقوم على اساس اللامر كزية ليس للبنان

(١) اشترك في انشاء الحزب سوريون ولبنانيون كما انه اندمج فيه عراقيون ايضاً . ومع ذلك فان منهجه لم يكن قاصراً على اللامر كزية للولايات العربية بل كان شاملاً ولهذا فقد كان اسمه « حزب اللامر كزية العثماني » . والاسم التاريخي للمؤتمر هو « المؤتمر العربي » لا « السوري اللبناني » ولم يقتصر على السوريين واللبنانيين كذلك بل اشترك فيه مندوبون عن العراق كما ان رجالا العراق ايدوه من مختلف مدنهم ايضاً

(٢) لقد كان بين السوريين المسلمين اصدقاء كثيرون لفرنسة من جملتهم الامير عمر الجزائري حفيد الامير عبد القادر .

فقط بل لجميع سورية ايضاً ، مقابل اعطاء القرض الذي طلبه الباب العالي للاستعانة به على تضييد جراح حرب البلقان . وفي سنة ١٩١٢ جاء الطراد الافرنسي جولوفري الى ميناء جونيه الصغير ، وزارت هيئة قيادته بطرك الموارنة زيارة رسمية . وفي كانون الاول من السنة نفسها وجه الميسو بوانكاره الى الدولة العثمانية انذاراً علنياً في خطاب القاء امام مجلس الاعيان ، ونصحها بالاصغاء الى مطالب السوريين واللبنانيين وتقبلها بقبول حسن . وكانت الاحوال تبشر بحل يبعث على الارتياح للمسألة السورية اللبنانية قبيل انفجار الحرب العالمية ، ولكن الترك لم يلبثوا ان اغتتموا فرصة هذه الحرب فشفوا غليل احقادهم من السوريين وخاصة من اللبنانيين بسبب ميولهم ومساعدتهم في سبيل الاستقلال الاداري .

— ٧ —

هذا ، وبالرغم من ان المساعي التي بذلت والمنظمات التي انشئت استهدفاً للاستقلال الذاتي في لبنان وسورية قد كانت من قبل بعض السوريين في اول الامر ، فانه ينبغي ان لا يخلط بين هذه الحركة والحركة الانفصالية العربية التي كان انصارها يسعون وراء خيل جمع العرب الى المتكلمين بالعربية الخاضعين للحكم العثماني وخاصة الساكنين في مختلف انحاء آسيا الصغرى تحت سلطة مستقلة عن الاستانة ، وانشاء خلافة عربية منفصلة عن الخلافة العثمانية .

ولقد تبني هذه الفكرة التي اهتمها نابوليون في اول امرها بعض السوريين المثقفين الذين طردوا او فروا من البلاد العثمانية بسبب نشاطهم السياسي ، فانشأوا في باريس سنة ١٨٩٥ جمعية سموها « الجمعية الوطنية العربية » واقاموا لها فروعاً سرية في الولايات العثمانية العربية لبث الفكرة بين العرب . وكانت هذه الحركة في العهد الذي ادرك السلطان عبد الحميد فيه ان نفوذه في اوروبة آخذ بالانحيار ، ونصح فيه من قبل فون درغولتز بتوجيه نظاره الى آسيا .

ولقد قامت في ذهن عبد الحميد حينئذ فكرة توطيد نفوذه وطاعته في الانحاء البعيدة من الامبراطورية التي ظلت مفلتة نوعاً ما من سلطة الترك . فأمر في سنة ١٩٠٠ بانشاء خط بري بين دمشق والمدينة المنورة ، وقرر انشاء خط حديدي يربط

المدينيتين المذكورتين ببعضهما ، وكانت الحجة الظاهرة تسهيل اداء الحج ؛ ولكن القصد الحقيقي هو تسهيل نقل الجيوش لقمع الثورات التي اخذت تقوم في بلاد العرب . ومع ذلك فان هذه الثورات ظلت تتكرر ، وتشتد احيانا . وقد هزم فيضي باشا سنة ١٩٠٤ من قبل امير نجد كما طرد الثوار في السنة التالية الحاميات التركية من اليمن والعسير والحجاز .

ولقد اذاع نجيب المازوري مساعد متصرف القدس السابق بياناً عن المسألة العربية لفت الانتظار اليها واثار ضجة كبيرة في صدها . وبعد قليل قدمت الجمعية العربية الوطنية للدول مذكرة عن رغبة العرب في الانفصال عن الترك وانشاء امبراطورية خاصة بهم . وقد رسم لهذه الامبراطورية حدود تمتد من وادي الفرات ودجله الى قناة السويس ومن البحر الاحمر الى عمان على ان يكون حكمها ملكياً حراً دستورياً ، وكان من المتصور للتفريق بين السلطة الدينية والازمنية انشاء دولة مستقلة تضم ولاية الحجاز ومنطقة المدينة المنورة يكون حاكمها خليفة روحانياً لجميع العرب . وكان منهج الجمعية ينص على رعاية حقوق لبنان وحرية الاماكن المقدسة في فلسطين ، واحترام امتيازات ومصالح الدول المختلفة .

ولقد نفثت الانقلابات العثمانية في سنتي ١٩٠٨ و ١٩٠٩ (١) روحاً جديدة في الحركة الانفصالية العربية فثارت اليمن في سنة ١٩١١ ثورة جديدة . وحدثت بعض الوقائع التمردية في سورية والعراق ، وكلفت هذه الاحداث خزانة الدولة نفقات باهظة ، وحدثت بالدولة اخيراً الى بعض التسامح وخاصة في امر اللغة العربية ، فصارت المرافعات والشكاوي ترفع بها ؛ والعلوم تدرس في المدارس بها ، وكثر الاهتمام اكثر من ذي قبل لتعيين العرب في وظائف الدولة في البلاد العربية . (٢)

وبالرغم عن كل هذا فقد اشتد الخلاف بين رجال تركية الفتاة والعرب كثيراً

(١) الراجح انه يقصد بانقلاب عام ١٩٠٩ الحركة التي ادت الى خلع السلطان عبدالحميد .

العرب

(٢) هذه الاصلاحات كانت نتيجة مباشرة للحركة الاصلاحية ومساعدى اللامركزية وموثر

العرب

قبيل انفجار الحرب العالمية ؛ وإذا كان السوريون واللبنانيون أصابهم بغى الترك أثناءها شفاء لقليلهم من الحركة العربية على ما أشرنا إليه قبل قليل فقد سلم من ذلك أكثر العرب بفضل وضع بلادهم الجغرافي .

— ٨ —

على أن أحياء امبراطورية الخلفاء الغابرة كان من الأمور التي يصعب تحقيقها في هذا الأمر . فهذه الامبراطورية إنما قامت ونجحت بسبب تهرم السكان من استبداد الامبراطورية البيزنطية وسوء تصرفها ، ولم يكن للعرب في الحقيقة أي أثر إيجابي في الأمر ، ولم يكن اذ ذلك شيء يقال له قومية متمسكة . ولقد كان يسكن في بلاد العرب ثلاث مجموعات مختلفة :

الاولى الاسماعيليه السامية ، وكانت تقطن في انحاء سينا ومغان والحجاز والنفوذ ونجد .

والثانية الحميرية الحبشية ، وكانت تقطن في اليمن والعسير .

والثالثة البلوحيون الآريون الذين يجمعهم عرق واحد وكانوا يقطنون في انحاء عمان وجزر البحرين (١) .

(١) ان المؤلف يلقي الكلام على عواهنه كما يفعل كثير من المستشرقين الاجانب . فقد تجاهل الحركة الاسلامية واثرها في بقعة العرب الكبرى وتوحيدهم ، وتجاهل الحركة التي سبقها وما كان من اثر الأشهر الحرم وعمومية الحج وشهود مواسمه من قبل جميع العرب الآن من مختلف الانحاء ، وما كان من التمازج الشديد الذي وحد تقريبا بين اهجات العرب وقوى نواصلهم وجعلهم يشعرون بكونهم أمة متميزة بلسانها العربي ازاء الامم الاعجمية اللسان ، وتجاهل الدعوة والمبادئ الاسلامية التي حملها المسلمون وخاصة قوادم والبارزون منهم الذين كانوا اصحاب رسول الله والمؤيدين له والمستقرين في دعوته التي نشروها ونصرفوا وفقا لها في البلاد التي حلوا فيها ، والتي كانت متحدة في الأسس والمصدر مع النصرانية التي كانت سائدة في بلاد الشام والعراق ومصر وشمال افريقية ، وما كان لذلك من اثر قوى في سكونهم اليهم اجمالا ، وتضليلهم اياهم على الحكام الغرباء مع ما تجمع بينهم من وحدة الدين . ثم تجاهل الكتل العربية الكبيرة التي كانت غلا المدن والقرى والبادي في بلاد الشام والعراق والذين انضموا الى الفاتحين على اعتبار ان عزم ونصرهم نسرهم ، سواء منهم الذين اسلموا فورا او الذين احتفظوا بنصرانيتهم ، ثم تجاهل حقيقة ناصعة اخرى هي عراقة عربيه اليمن واصليتهم فيها . وشذ عن

وكان وطنيو العرب في استهدافهم جمع الذين يتكلمون باللغة العربية في كيان واحد انما يتورطون في مشكلة معقدة خطيرة ، ومن جهة اخرى فان ما كان في زمن النبي محمد «صلم» من الحماسة التي ولدها الدين الجديد ، والسعي في نشره لم يعد موجوداً ، كما ان الرابطة الدينية لم تظل قائمة ، حيث نجمت افتراقات دينية عديدة ، ولم يكن لفكرة الوطن اي معنى وقيمة عند هؤلاء الناس الذين يتألف معظمهم من البدو ، والذين يفصل بينهم صحاري الرمال الشاسعة التي كان يصعب اجتيازها قبل الحرب ؛ وكانت كل قبيلة تحسد الاخرى وتربص بها ولم يكن في الامكان قط اتفاق زعمائهم على شخص يخضعون لسلطته ليقوم على رأس الامبراطورية المتخيلة ، وكان كل الزعماء يدعون الانتساب الى النبي (صلم) وكل منهم يرى انه اهل للخلافة (١) في حين ان منهم من كان ضعيف النفوذ جداً كما انهم كانوا محرومين من المال الذي لا بد منه لتأمين نفوذهم السياسي الديني .

ولقد كان اثنان من هؤلاء الزعماء يلتقان اليها النظر بنوع خاص قبل الحرب العالمية ، وهما عبد العزيز ابن السعود امير الوهابيين الشاب ، والحسين بن علي شريف مكة الجديد .

حقيقة وحدة الارومة التي تجمع العرب الشماليين والجنوبيين والتي يعبر عنها في الاصطلاح التاريخي بالارومة السامية حيث يقررها الشماليون دون الجنوبيين كما يفهم من كلامه ، وصادق منه نظرا وايضاحا عوستان لويون الافرنسي في تقريره هذه الحقائق وتقريره قوة الابداع العربي وقابلية العرب التي كان لها الفضل الاكبر في نجاح وازدهار الامبراطورية العربية .

العرب

(١) ان الخلافة في اصلها تعود الى القرشيين . ولكن احفاد النبي هم ذوو الحق فيها ، وكان شرفاء مكة هم الوحيدون الذين لا يتحمل حقهم اعتراضا ما ولم يعترض عليه في وقت ما . وكان هؤلاء لا يعترفون الا بقرابة بضع عائلات هي عائلة سلطان فاس الحالي . وعائلة الامام يحي امير اليمن وعائلة الاشراف المروفيين بأشراف الحرمين في جنوب بلاد العرب . وعائلة الاشراف المروفيين بالبارزانية الموجودين في بلاد الكرد .

المؤلف

وهذا التعليق كما ان كلام المؤلف في المتن ملقى ايضا على عواهنه من الوجهة العلمية والتاريخية والواقعية كما لا يخفى .

العرب

وكان الاول وهو حفيد ابن السعود الكبير نجد في اعادة الامبراطورية الوهابية التي انهارت بحملة محمد علي الى نجد والتي كان من نتائجها شق الزعيم الوهابي الكبير في الاستانة . وقد اقدم عبد العزيز الشاب الذي لبث لاجئاً مدة طويلة في الكويت على النضال مفاجئة في اوائل القرن العشرين ، وانتصر على خصمه ابن الرشيد امير حائل وشمر ، وانتزع منه بين سني ١٩٠١ - ١٩٠٦ الرياض وواحات نجد ، كما وفق في سنة ١٩١١ الى طرد الترك عن سواحل الحسا ، ولم يبد من سلطان نجد الشاب الذي كان يسعى الى جمع العرب تحت سلطته في نطاق مذهب ديني متشدد اي ميل او استجابة الى اجماعات وتوجيهات الزعماء السوريين .

وكان الشريف حسين بن علي قد عين لامارة مكة عام ١٩٠٥ ، ولكنه لم يستلم زمامها الا في سنة ١٩٠٩ ، وبينما كان ابن السعود محاربا عظيما كان الحسين بن علي يمثل طابع الموظف التركي - العربي ، فقد اقام في الاستانة سنين عديدة ، وترعرع ابناؤه فيها ، وشغل مناصب عديدة من جملتها عضوية شورى الدولة . ولما كان مندجماً في جميع الاساليب السياسية الشرقية فقد كان يظن انه سيكون في بلاد العرب وكيلا مخلصاً لحكومة تركية الفتاة . ولكنه كان في الحقيقة يحمل في نفسه طموحاً عظيماً ، لان زعماء الجمعية العربية من السوريين اوحوا اليه انه قد يجوز يوماً ما لقب ملك العرب . وكان هذا الطموح مما اثار المنافسة والتزاع بينه وبين ابن السعود . وكان مما يسعى اليه هذا التزاع قبائل عتيبه التي كانت تقطن بين الحجاز ونجد من نفوذ الحسين وسلطته مما كان ذا اثر في ذلك التزاع ايضاً .

فالبلاد العربية بسبب تشكّلها الجغرافي ما كان يمكن ان تتفك من سلطة الترك الا لتقع تحت هيمنة الدول الاوروبية المسيطرة على البحار والسواحل . وقد كان هذا القسم من بلاد الشرق الادنى موضوع تشاد وتنافس بين فرنسا وانكلترة منذ امد طويل ، واذا كانت فرنسا تضاعلت امام انكلترة بعد سنة ١٨٧٠ فقد قامت امامها مقابل ذلك المانية التي اخذت تحاول الاندساس في هذه البلاد من وراء الدولة العثمانية ، وصار كل منها يدس الدسائس وينصب الشباك حول زعماء العرب ويحاول عقد العهود معهم . غير ان هؤلاء الزعماء ظلوا يتجنبون اعطاء قرار صريح حاسم ازاء هذه المساعي

محتفظين بحرية تصرفهم بالنسبة للمستقبل .

ولقد كانت انكلترة تشجع الحركة الانفصالية منذ بدئها ، بل اعلمها هي التي اهتمت ، مستهدفة بذلك معاكسة خطة الجامعة الاسلامية التي كانت المانية تمحرض الترك عليها وتبشها في الامبراطورية العثمانية . وقد كان رجال الجمعية العربية الوطنية يلقون تعصيداً وترحيباً كبيرين من قبل ممثلي الانكليز في مصر ، لان موظفي انكلترة الاستعماريين كانوا يستهدفون منذ امد طويل ادخال جميع القبائل العربية ضمن نطاق انفاقهم ونفوذهم ، لانهم يقعون على طريق مواصلات الامبراطورية .

على ان انكلترة مع تشجيعها للحركة العربية القومية فانها كانت ابعد من ان تقبل بمنهجها كاملاً ، فانها وقد رسمت دائها وبكل انتباه سياسة التفرقة التي تساعد على بسط نفوذها بطمأنينة وهدوء بال ، لم تكن لترضى مهما كلف الامر عن قيام امبراطورية كبيرة قوية متحدة . فترئيس امبراطورية كهذه لا بد وان يرغب في الاستمتاع باستقلال كامل ، ولهذا فانها كانت تفضل على مثل هذا الكيان القوي الموحد كياناً اتحادياً مؤلفاً من دول صغيرة محتفظة بكياناتها الخاصة ، حتى يشعر رؤساؤها بالحاجة الدائمة اليها لتكون حكما وموفقاً في ما ينشب بينهم من خلاف ونزاع . كذلك فانها لم تكن لتتنازل عن نفوذها الموطد في المحمرة والكويت والبحرين ومسقط وحضرموت لمصلحة امبراطورية عربية كبرى . ومن جهة اخرى فان مسألة الخلافة كانت في نظر انكلترة حساسة دقيقة ، فهي مضطرة الى حساب عواطف وميول مسلمي الهند فيها ، وهؤلاء كانوا يميلون الى الترك اكثر من العرب ، ويرغبون في الاحتفاظ بالولاء لخليفة الاستانة .

ولقد قضت هذه الظروف على حكومة لندن ان تسير باحتياط وتحفظ شديدين في امر السياسة العربية ، وكان اختلاف وجهات النظر بين ممثلي الانكليز في مصر والهند مما يزيد في ضرورة هذا الاحتياط والتحفظ ايضاً . هذا بالاضافة الى ان الانكليز لم يكونوا ليطمئنوا الى المصريين ويعتمدوا عليهم ، حيث كان هؤلاء بسبب حقنهم على الاحتلال الانكليزي يميلون الى الترك ولا يؤيدون الصداقة العربية الانكليزية . وبما هو جدير بالذكر ان الحديوي عباس الثاني لم يكذب يتسم العرش حتى

أخذ يجهر بكبره للانكليز وتحريضه عليهم بين سمع ممثلي بريطانيا في مصر وبصرهم . وكانت حكومة دلهي مستمرة في موادتها لابن السعود ، ولكنها لم تكن مطمئنة الى كفاية قوته وسلطانه في نجد ، هذا في حين ان اللورد كاتشر كان يعلق املا كبيراً على الحسين بن علي ؛ وقد استطاع ان يطلع على حقيقة مطالبه ونواياه من اجتماعين تما في القاهرة في سنتي ١٩١٢ و ١٩١٤ بينه وبين ابنه الثاني الامير عبدالله الذي كان عضواً في المجلس النيابي العثماني .

ومهما يكن من امر فان هذه الصلات الخفية التي استطاع الانكليز انشاءها في جزيرة العرب ضمنت لهم امكان النشاط فيها منذ نشوب الحرب العالمية ، وجعلتهم وسطاء بين العرب والخلفاء . اما اولياء الامر عندنا فكما انهم لم يستطيعوا ان يدركوا خطورة وضرورة الصلات بين فرنسا وروسة (١) فانهم لم يستطيعوا كذلك ان يدركوا خطورة وضرورة الصلات بين فرنسا ومكة في حين كانت فرنسا هي الاخرى دولة اسلامية كبرى .

(١) يقصد الغائبان والبابا .

الفصل التاسع

التفاهم على مسائل الشرق الأدنى قبيل الحرب

ان الغاية المتوخاة من معاهدة بغداد هي تقسيم
الاناضول الى مناطق نفوذ ، غير انه كان من الضروري
اجتناب استعمال هذا التعبير رعاية لمواطف السلطان . . .
من خاطرات البرنس ليتسنوفسكي

تقسيم آسيا العثمانية الى مناطق نفوذ اقتصادية - التفاهم الروسي الالماني في ١٩ اغسطس
سنة ١٩١١ - المفاوضات الدولية في سبيل اقام انشاء خط حديد بغداد - التفاهم الافرنسي
الانكليزي في كانون الاول سنة ١٩١٢ - التفاهم الانكليزي الطلياني في ١٩ مايس سنة ١٩١٤ .

— ١ —

حينما اخذت شوائع الحرب تثير اوروبة وهزها اشتد نشاط حكومات الائتلاف
الثلاثي (فرنسة - انكلترة - روسية) في سبيل حفظ السلام . ولما لم تكن
المانية راغبة في تعجيل الاشتباك مع انكلترة فانها كانت في موقف المضطر الى المسيرة
والتظاهر في الاستعداد لحل مسائل الشرق الأدنى حلا مؤقتاً بالطرق الودية . ولهذا
لم يكن في امكانها الامتناع عن الاستجابة الى دعوة المفاوضات في هذا السبيل للتدليل
على حسن نيتها من جهة ، وعلى امل ان تجد فرصة لافساد ما بين الدول الصديقة
الثلاث من جهة اخرى .

وهكذا اخذت تدور بين الدول منذ سنة ١٩١٠ مفاوضات ومساوالات طويلة
ودقيقة في سبيل تعيين حصة كل دولة في انشاء الخطوط الحديدية ، واستثمار ثروات
الشرق الأدنى ، وقد انتهى التجاذب والتدافع في هذا المضمار قبيل الحرب العالمية الى
نتيجة تقسيم آسيا العثمانية الى مناطق نفوذ اقتصادية بحيث تنال كل دولة منطقة منها .

وكان هذا بمثابة بدء تقسيم الامبراطورية العثمانية تقسيماً نهائياً .
ومن الصعب تقسيم هذه المداولات والمفاوضات الى اقسام متميزة . غير ان من
الممكن تصنيفها بوجه الاجمال كما يلي :

١ — التفاهم الالماني الروسي في ١٩ اغسطس سنة ١٩١١ نتيجة لاجتماع العاهلين
في بونستام .

٢ — المداولات الدولية في شأن اتمام خط حديد بغداد .

٣ — الاتفاق الفرنسي — الانكليزي في كانون الاول سنة ١٩١٢ بشأن
سورية .

٤ — الاتفاق الانكليزي العلياني في ١٩ مايس سنة ١٩١٤ .

٥ — المداولات في شؤون نفط ايران والعراق .

وسنخصص مسألة النفط بفصل خاص ، ونستعرض في هذا الفصل المسائل الاخرى .

— ٢ —

بتاريخ ٤ تشرين الثاني سنة ١٩١٠ اجتمع عاهلا الالماني والروس في بونستام ،
 واجتمع وزيراً خارجيتهما معاً في الوقت نفسه ؛ وكان موضوع الحديث نسوية
المشاكل المتصلة باتمام انشاءات شبكة حديد الاناضول الالمانية .
وقد انار هذا الاجتماع قلق حكومتي باريس ولندن العظيم كما قدر غليوم الثاني ،
ولما نتج عن هذا الاجتماع الاتفاق الروسي الالماني في ١٩ اغسطس سنة ١٩١١ اشدد
ذلك القلق كثيراً .

وقد ضمن هذا الاتفاق تخلي الروس عن اي معارضة للالماني في اتمامهم خط حديد
بغداد ، وقبل القيصر الروسي بالاضافة الى ذلك بوصل شبكة حديد الالماني الاناضولية
المستقبلة بشبكة حديد ايران الروسية المستقبلة ، لنقل قسم من الصادرات الابرائسية
الى البحر الابيض وخليج البصرة ، على ان يمد الفرع الى خانقين برأسمال روسي
الماني معاً ، وهنا يتصل الخط بالفرع الالماني الممتد بين دلي عباس وسامرا . وقد
اعترف بهذا الاتفاق كذلك بحق الالماني بطلب امتياز انشاء خط خانقين — طهران

إذا لم يبدأ الروس بإنشائه بعد سنتين من وصول الخط الألماني الى خاقين ، وثالث
روسية مقابل هذا اعتراف المانية بمنطقة النفوذ الروسية في شمال ايران ضمن الحدود
المعينة في الاتفاق الروسي الانكليزي عام ١٩٠٧ ، كما اعترفت المانية ايضاً بحق الرجحان
لروسية في انشاء الخطوط الحديدية في هذه المنطقة . وفي مادة سرية من الاتفاق
تعهدت المانية بعدم انشاء اي خط حديدي في ارمينية ، وكانت روسية تستهدف بهذا
حرمان الدولة العثمانية من شبكة تحشيد سريعة على حدود القفقاس الروسية .

— ٣ —

وبينما كانت المفاوضات تجري بين الالمان والروس كانت تجري مفاوضات بين
الدولة العثمانية وبعض الدول في صدد اتمام انشاء خط بغداد .
لقد كانت لجنة المراقبة الاوروبية سمحت في عام ١٩٠٧ للدولة العثمانية باضافة
ثلاثة بالمائة على رسوم الجمارك مقابل ما تقرر القيام به من الاصلاحات في مكدونية .
وقد نال السلطان في سنة ١٩١٠ اذنأ برفع هذه الضريبة الى سبعة ، واستمرارها الى
سنة ١٩١٤ . ومع ان مسأله مكدونية قد حلت بين طرفي النزاع فقد كانت حالة
الدولة العثمانية في حاجة ماسة الى استمرار جباية الضريبة الجمركية . فلما عقدت المانية
معها اتفاق خط حديد بغداد صرحت لها بموافقتها على هذا الاستمرار . وقد حذت
النمسا حذو المانية كتعويض عن الحاق البوسنة والهرسك ، كما ان ايطاليا رضيت
بذلك حين توقيع معاهدة اوشي التي اعترفت الدولة لها فيها بالسيطرة على طرابلس
الغرب . ولم يبق الا دول الائتلاف الثلاثي .

ولقد امتعزت الدولة العثمانية مما اشيع من تعهد المانية لروسية في موضوع خطوط
حديد ارمينية ، فجدد بها هذا الى التقرب من انكلترة وفرنسة ، واطهار حسن النية
والود نحوها ، وقامت بدور الوسيط لحل النقاط المختلف عليها بين المانية من جهة
وانكلترة وفرنسة من جهة اخرى في مسألة اتمام خط بغداد ، ونتيجة لهذه المساعي
نالت موافقتها ايضاً على استمرار جباية الضريبة المذكورة .

ومن اهم ما استطاعت ان تفعله الدولة العثمانية اقناعها شركة الخطوط الحديدية
الالمانية بالتساهل في مسألة نقطة انتهاء خط بغداد على خليج البصرة على وجه يمكن

ان يرضي الانكليز والافرنسيين . وقد وافق غليوم الثاني بسهولة على رغبة الباب العالي ، لوثوقه بإمكان تلافي الضرر بتعويضات اخرى ، وكان امله ورغبته في الهيمنة على الدولة العثمانية مما سهل عليه هذه الموافقة بنوع خاص . وكنتيجة لهذا تنازلت الشركة الالمانية عن حصر حق انشاء القسم الاخير من خط حديد بغداد فيها وهو القسم الممتد الى البصرة ؛ ونالت مقابل ذلك فوائد مالية عظيمة كما نالت حقاً في الاشتراك في انشاء هذا القسم مساوياً لحق افضل الدول فيه . وكان الاتفاق يحل في ذات الوقت مسألة انشاء فرع خلف — بغداد ، وبالإضافة الى هذا كله فقد نالت المانية امتيازاً بانشاء مرفأ اسكندرونة ، وانشاء فرع حديدي يربط هذا المرفأ بمحطة العثمانية . ولقد كان في هذه الامتيازات والمصالح المهمة التي حصلت عليها المانية اقضاء لنا عن كليكية بصورة قطعية ؛ وقد كنا تنازلنا قبل ذلك اي في سنة ١٩٠٦ للامان عن جميع حقوقنا في خط مرسين . وقد حاولنا نيل بعض التعويض عما لحقنا من خسارة فقدم سفيرنا في الاستانة الميسو بومبادور في ٦٤ شباط سنة ١٩١٣ الى الباب العالي قائمة طويلة بمطالبنا جعلتها حكومتنا مقابل موافقتها على استمرار جباية الضريبة البحرية . وقد تضمنت القائمة :

- ١ — طلب امتياز خطوط صامسون — سيواس ، وسيواس — ارزنجان — ارضروم ، وسيواس — خربوط — ارغني ، وارغني بتليس — وان ، وارضروم — طربزون .
- ٢ — طلب حق تمديد خط حلب — رفاق جنوباً الى الرملة .
- ٣ — طلب امتياز انشاء مرافئ ابنه بولي واربيكلي على شواطئ البحر الاسود ، ومرافئ طرابلس الشام ورافا على شواطئ البحر الابيض .

وقد اصررنا على وجوب قبول هذه الطلبات في اقرب وقت وبصورة نهائية ، لاننا كنا اذ ذاك امام منافسة جماعة شستر الاميركية القوية . وفي كانون الاول سنة ١٩١٣ قبل الباب العالي طلباتنا وألحق الاتفاق باتفاق مالي عقد في نيسان من سنة ١٩١٤ . وحينما اخبرت روسية بمنهجنا في انشاء خطوط حديدية في الاناضول لم توافق عليه الا مع تحفظات شديدة ، كانت تستند فيها الى الاتفاق المعقود بينها وبين الدولة العثمانية عام ١٩٠٠ الذي تعهدت فيه الدولة بعدم اعطاء امتياز بخطوط حديدية لغير الرعايا

الروس في ولاياتها الشرقية . وقد كان من جملة شروط روسيا وتحفظاتها عدم ربط مدينة ارضروم بشبكة الحديد الافرنسية ، وربط طربزون بخربوط عن طريق ارزنجان ، ولم يكن لنا بد من قبول ذلك لكيلا نترك المجال للجماعة الاميركية التي كانت تترصد الفرصة .

ولقد اشار المسيو بوانكاريه في مذكراته الى هذه التوضيحات التي طلبتها روسية منا ، حيث يقول في هذا الصدد : « ان مصالحنا الاقتصادية في الاناضول كانت تصطدم كثيراً بالسياسة الروسية ، حيث كانت روسية تمنع اشد المناعة في انشاء خطوط حديدية في المناطق التي كانت تقدر وقوع الحرب فيها بينها وبين الدولة العثمانية . » وقد كانت مسألة اتصال شبكة البحر الاسود الحديدية التي فلما امتيازها تتطلب ان نتفاهم مع المانية ، وفي هذا السبيل وضع مشروع اتفاق في تاريخ ١٥ شباط سنة ١٩١٤ يقوم على اساس مالي بين فرنسا وروزيبرغ وهلسفريخ ، وقد اتخذ الامبراطور هذا الاتفاق وسيلة الى الحصول على منافع جديدة من الدولة العثمانية ، فنال امتيازاً بخط يربط ماردين وديار بكر بشبكة البحر الاسود الافرنسية ، وهذا الخط يتصل بالشبكة في ارغني التي هي مركز تشغيل واستثمار معدن نحاس غني (١) ، وقد نال الالمان ايضاً امتيازاً بخط يربط نصيين ببغداد مخترقاً بلاد الكرد وماراً بطريق زاخو واريل وكر كوك ، واعطي لهم كذلك اذن يربط خط نصيين - بغداد بفرع يصل الى خانقين وحدود ايران ، ويمر بسامرا ودلي عباس وهذا الخط يرتبط بشبكة الخطوط الروسية الايرانية المستقبلية التي اتفق عليها في اجتماع بوتسدام . وهكذا تكون المانية قد وضعت يدها على اهم الاقسام المنتجة والغنية بالمعادن في بلاد الكرد والقسم الشرقي من حوض النهرين . وبينما كانت الدول العثمانية تتفاوض مع فرنسا كانت تتفاوض مع انكلترة ايضاً . وكانت هذه غير مبالاة الى الموافقة على استمرار جباية الضريبة الجمركية لتعارض ذلك مع مصالحها التجارية . ومع ذلك فقد انتهت المفاوضات بين الفريقين في ربيع عام ١٩١٤ الى اتفاق تضمن الموافقة في نفس الوقت على ان تكون البصرة نقطة انتهاء خط بغداد ، وعلى ان يكون لانكلترة عضوان في مجلس ادارة الشركة في كل ما

(١) ان عظم غناء هذا المعدن لفت انتظار كل من المانية وروسية وفرنسية وصارت كل دولة من هذه الدول تحاول وتود ان تدرس الى هذا المكان .

له صلة بإدارة وتشغيل قسم بغداد - البصرة . وقد اعترفت انكلترة في الاتفاق بحق سلطان الباب العالي على الكويت على شريطة اعترافه باستقلال شيخ الكويت من جهة وبجميع اليهود القائمة بينه وبين انكلترة واحترامها من جهة اخرى . وقد تخلت الدولة العثمانية فيه كذلك عن جميع حقوقها ومدعياتها في البحرين وشبه جزيرة قطر وجميع منطقة عمان الممتدة الى مسقط ، ونالت انكلترة الى هذا كله حق الملاحة في نهر الدجلة الى بغداد ، وحق اقامة المناظر والمراصد والحفارة وما شابه ذلك في خليج البصرة . ولقد كان هذا الاتفاق قد نور الموقف وخفف التوتر ، فاصبحت انكلترة في حالة تسمح لها بالمفاوضة مباشرة مع حكومة برلين . وقد حكى البرنس ليشنوفسكي سفير المانية في لندن انه حمل في سنة ١٩١٤ من قبل غولمان على الدخول في مفاوضات مع السير ادوار غراي . ويستفاد مما حكاه البرنس ان السير ادوار غراي كان شديد الرغبة في عقد اتفاق انكليزي - الماني مشابه للاتفاق الانكليزي الافرنسي المعقود عام ١٩٠٤ والاتفاق الانكليزي الروسي المعقود عام ١٩٠٧ ، كما يستفاد ان وجهتي نظر المانية وانكلترة قبيل الحرب العالمية تقاربتا كثيراً الى درجة تبعث على الامل في امكان عقد اتفاق بين الدولتين على امور الشرق عسامة ، بل وعلى شؤون الاستعمار ايضاً . واليك ما يقوله البرنس في هذا الصدد :

« . . . وفي نفس التاريخ كنت اتفاوض بالاشتراك مع غولمان في صدد عقد معاهدة باسم معاهدة بغداد . وكانت غاية هذه المعاهدة الحقيقية تقسيم الاناضول الى مناطق نفوذ غير انه كان من الضروري جداً اجتناب استعمال هذا التعبير رعاية لكرامة السلطان ؛ ولقد صرح السير ادوار غراي في اثناء المفاوضات اكثر من مرة انه لا يوجد بين بريطانيا وروسيا او فرنسا اي اتفاق على تقسيم الاناضول ؛ ولقد امكن بالاتفاق مع حقي باشا سفير الدولة العثمانية حل المسألة المتصلة بمشاريع المانية ، وتحقيق جميع رغبات دولتس بنك الرئيسية وكان اكبر تسامح ابداء السير ادوار غراي معي شخصياً موافقته على تمديد خط بغداد الى البصرة ؛ والواقع ان هذا كان قد اعمل من قبلنا على امل ايصال الخط الى الاسكندرون ؛ وكانت بغداد في مشروعتنا القديم من اجل ذلك هي منتهى الخط . وكان ما اتفق عليه ان تراقب الملاحة في شط العرب من قبل لجنة دولية ، وان يكون لنا حصّة في انشاء مرفأ البصرة وفي

الملاحه في الدجلة ؛ وكانت هذه الملاحه الى هذا الوقت محتكرة في يد شركة لنش الانكليزية ؛ وبهذا الاتفاق اصبحت جميع منطقة ما بين النهرين الى البصرة منطقة نفوذ لنا باستثناء استمرار حقوق الانكليز المكتسبة في الملاحه في الدجلة ، وحقوق شركة ويل كوكس في اشغال الري ؛ وبالإضافة الى هذا فان جميع حوافي خط حديد بغداد — الاناضول تكون لنا ايضاً ، وكان مجال انكلتره الاقتصادي يشمل سواحل خليج البصرة وخط حديد ازمير — ابدین . اما سورية فتكون مجال فرنسة كما ان ارمينية تكون مجال روسية .

وهكذا تساهلت انكلتره مع الالمان هذا التساهل الواسع الذي يسمح لهم باستعمال واستثمار شبكة حديد الاناضول وبغداد ، غير انها حرصت على ان تظل حقوقها السابقة محفوظة ، ونجحت ولو مؤقتاً في ابعاد منافسها عن سواحل خليج البصرة ، وصار في امكانها تنفيذ مشروعاتها القديم وهو وصل الكويت ببور سعيد ، وتمديد الخط الحديدي الامبراطوري الى الهند بعد ذلك ماراً بسواحل ايران الجنوبية ؛ وقد ثبتت كل هذه الامور في المعاهدة الالمانيه الانكليزية المؤرخه في ١٥ حزيران سنة ١٩١٤ والتي اشار اليها السير ادوار غراي امام مجلس النواب في التاسع والعشرين من الشهر نفسه .

— ٤ —

ان الاتفاق الانكليزي الافرنسي عام ١٩٠٤ لم يثبت حدود المصالح الانكليزية الافرنسية في سورية ؛ وكان الاستعماريون الانكليز وموظفو الانكليز في مصر يعتبرون هذه المنطقة قطعة من مصر بالنسبة للمستقبل . وفي سنة ١٩٠٩ قام السير الون غورست برحلة الى هذه الانحاء ، فانارت بعض الشوائع مما حدا بالحكومة الافرنسية الى طلب ايضاح عنها من لندن .

ولقد كان تزايد مطامع الالمان في آسيا العثمانية من جهة اخرى مما يفرض على كل من انكلتره وفرنسة الاتفاق على شؤون سورية ، وكان نظر انكلتره الى سورية قد تغير كثيراً بعد احتلال قواتها مصر ، وكان ما منحه الباب العالي لفرنسة والمانية من امتيازات خطوط الحديد قد خيب آمالها في خطط سيثني واندررو ولوفوت القديمة

ايضاً ، كما جاء انشاء خط حيفا — درعا العثماني محبطاً لامكان انشاء خط انكليزي يمتد من الصحراء وينتهي الى حيفا ، ولم يكن قد بقي امامها الا امكان انشاء خط بين بور سعيد والكويت .

من اجل هذا كله لم يكن هنالك مانع ما لتفاسم انكليزي افرنسي على شؤون سورية ، بل ان هذا اصبح ضروريا حينما منحت الدولة العثمانية للامان في سنة ١٩١١ امتياز انشاء مرفأ اسكندرونة ووصله بخط حديدي لمحطة العثمانية . وقد خطيت الخطوة الى هذا اثناء مفاوضات البلقان ، و اشار المسيو بوانكاره الى ذلك في خطبة القاها امام مجلس الاعيان في كانون الاول سنة ١٩١٢ حيث قال :

« لست في حاجة الى القول ان لنا مصالح تقليدية في لبنان وسورية ، واننا عازمون على تأمين رعاية واحترام هذه المصالح ، واني استطيع ان اذكر مع هذا ان ما يذاع عن وجود خلاف بيننا وبين انكلترة في هذا الصدد ليس الا تلفيقاً لا يستند الى اساس راسخ ، فان انكلترة قد صرحت لنا بلبنان ودي صريح انها لا تضم نية اي عمل في هذه المنطقة ، وانها لا تحمل اي مطمح سياسي فيها . كذلك اننا عازمون على الاستمرار في سياسة احترام تمام ملك الامبراطورية العثمانية في آسيا ، غير اننا لا نريد ان نتخلي عن اي تقليد لنا في هذه الامبراطورية ، اذ اننا لن نرفض انعطافا يوجه الينا نتيجة لتصرفاتنا وجهودنا كما اننا لن نرفض عن مس مصالحنا بأي ضرر . »

ويقول المسيو بوانكاره في المجلد الثاني من مذكراته ان قسما من خطابه هذا قد اتفق على مقتنه مع وزير خارجية بريطانيا السير ادوار غراي . ولقد صرح الوزير المشار اليه بعد القاء بوانكاره خطابه امام مجلس العموم باعتراف حكومته بمصالح فرنسا في سورية . وكما اشرنا سابقاً فاننا سارعنا الى الاستفادة من الاتفاق الذي تم ، حيث قدم المسيو بومبارد في ٢٤ شباط ١٩١٣ طلباً بتمديد خط حلب — رفاق الى الرملة وبانشاء مرفأ طرابلس الشام وحيفا في سواحل سورية ، وحيث قبل السلطان هذه الطلبات في شهر كانون الاول من السنة نفسها .

ومع ذلك فان ما نلناه من الدولة العثمانية من امتيازات جديدة في سورية لن

يلبث ان اثار بعض الانكليز الاستعماريين ، وقد كان من نتيجة ذلك ان شعب السير ادوارغراي بضرورة تفسير الاتفاق الافرنسي — الانكليزي في ١٧ مارس سنة ١٩١٤ تفسيراً من شأنه تضيق مدها حيث اجاب على شكوى السير مارك سايكس احد نواب المعارضة الاستعماريين مما اعطي لفرنسة في سنة ١٩١٢ من توكيدات ومن طرز تفسير فرنسة لها ، فاكد استمرار بريطانية في سياسة التأييد لتمام ملك الامبراطورية العثمانية ، ونبيه على ان ما اعطي لفرنسة من توكيدات بسبيل تطمين قلبها لم يكن الا بشأن مصالح اقتصادية متصلة بامتيازات الخطوط الحديدية ، وانها لم تكن تعني تحديدها لمنطقة نفوذ او موافقة عليها ، وان اسلوب التوكيد والتطمين انما كان بقصد تكذيب ما كان يدور من شوائع على جهود ومساعي وكلاء الانكليز او عمالهم في سبيل ضم سورية الى مصر . . .

على ان العبارات التي نقلناها قبل قليل من مذكرات البرنس ليشنوفسكي توضح بجلاء لا مجال للريب فيه ما يجب ان يفهم من تصريحات السياسيين عن احترام تمام ملك الامبراطورية العثمانية في آسيا .

ومهما يكن من امر فان معرفة ما اذا كان رجال الحكومتين الافرنسية والانكليزية متفقين او غير متفقين في شؤون حدود وامور سورية من المسائل التي تستحق الاهتمام . فهل كانوا مثلاً يعرفون بحدود سورية التي ثبتت في سنة ١٨٤٠ والتي كانت تشمل فلسطين وتمتد الى سيناء ؟ على ان هنالك ما يحمل على القول بان فرنسة كانت موافقة على ان حدود سورية تقف عند جنوب الرملة التي كان يمر بها خط حديد يافا — القدس الضيق الذي نالت امتيازته شركة افرنسية عام ١٨٨٠ واتمت انشاءه وبدأت تستثمره عام ١٨٩٢ ، فلقد كان من المنطق ان يكون منح لانكلترا كل تسهيل ممكن لتنفيذ ما كانت تصوره للمستقبل من مد خط الحديد الامبراطوري بين بورسعيد والكويت دائراً حول بحيرة لوط . ومن جهة اخرى فان الامتيازات التي نالتها المانية في منطقة كليكية وحلب قد حددت آمال ومطامع فرنسة بصورة صريحة بالنسبة لشمال سورية .

— ٥ —

لقد ذكرنا فيما سبق ما قامت به ايطاليا من محاولات في تاريخ ١٩١١ — ١٩١٢ ، وبعد حرب طرابلس الغرب في سبيل تحقيق مطامعها الاقتصادية في مدينة انطاكية والمنطقة المواجهة لجزيرة رودوس من اقليمها ؛ وقد كان من شأن هذه المطامع ان تمس بمصالح انكلترا لان الشركة الانكليزية صاحبة امتياز خط ازмир — ايدن ايكريدير كانت تملك حق الرجحان في انشاء جميع الخطوط التي يمكن ان تمتد بين بحيرة ايكريدير وخليج انطاكية .

وقد جرت مداولات بين ايطاليا وانكلترا حول هذه الامور انتهت باتفاق عقد بتاريخ ١٩ مايس سنة ١٩١٤ ؛ وعندما اخبر المريكز جوليانو مجلس النواب الطلياني بهذا الاتفاق بعد ايام قليلة من عقده ذكر بصراحة حدود منطقة النفوذ المخصصة لاطاليا في الاناضول .

ولقد جرى التصريح الطلياني حكومة النمسا فطلبت من الدول ان تترك لها المنطقة الناعرة الواقعة بين المنطقة الطليانية والامانية اي مدينة ألانية ومنطقتها .

الفصل العاشر

مسألة النفط

ان النفط يفضل الفحم من وجهة السرعة في حالة تساوي الكمية ، كما انه يحدث هذه السرعة في وقت اقصر . وان وزناً نفطياً ما يضمن طول زمن السير أكثر باربين في المائة من مثل وزنه فحماً وان الاسطول يستطيع بكل سهولة ان يحمل معه في عرض البحر ما هو في حاجة اليه من الوقود اذا كان نفطاً .

ونستون تشرشل

عروق نفط الشرق الادنى - الشركة الانكليزية الايرانية - شركة النفط التركية .

- ١ -

يعلمنا التاريخ ان المصريين كانوا في الازمنة القديمة يستهلكون مقادير كبيرة من القار لدهن مراكبهم وتحنيط طيورهم المقدسة . واذا صدقنا المؤرخ العربي ابن الاثير فان النار اليونانية انما اخترعها رجل سوري مسلم بواسطة كمية قليلة من النفط احضرت من العراق . ولقد اشار كثير من السياح وخاصة في الازمنة المتأخرة مرات عديدة الى وجود النفط في مختلف انحاء التبت والعراق وسورية وفلسطين . واذا استثنى نفط القفقاس الروسي فلائنه لم يكن يعرف شيء مهم عن عروق النفط في الشرق الادنى الى آخر القرن التاسع عشر الا ما كان يحصل عليه السكان المحليون من مقادير جزئية وبوسائل بسيطة جداً .

وقد عرف في عام ١٩٠٠ من الاختبارات المتعددة التي اجريت في ايران والعراق انه يوجد طبقة عظيمة من النفط تجري تحت الارض من بحيرة وان الى سواحل

خليج البصرة الشمالية . فكان لهذا الكشف خطورة عظيمة لانه جاء في وقت اخذ المازوت فيه يستعمل وقوداً في الاساطيل الحربية . ولقد كان من الطبيعي ان تتحرك اطماع كل من انكلترة والمانية وروسية بمجرد العلم بهذا الكشف ، وما اسرع ما انشئت شركتان كبيرتان لاستثماره صارت اسمهما موضوع نزاع بين الدول .

— ٢ —

نال المهندس الاوسترالي الجنس الانكليزي الرعوية ويليام نو كس داري في ٢٨ مارس سنة ١٩٠١ امتيازاً من الشاه باستثمار نفط ايران، لمدة ستين سنة باستثناء الولايات الشمالية الخمس وهي ازربيجان وجيلان واستر اباد ومازندان وخراسان . ثم اخذ يبحث ويختبر الانحاء الواقعة على الحدود التركية الى ان وجد في قصر شيرين قرب خانقين طبقة غنية ، غير انه لم يقدم على استثمارها في الحال بسبب بعدها كثيراً عن البحر وانتقل في الاختبار الى الجنوب فوجد طبقة غنية كالاولى بين الاهواز وشوش على طول وادي قارون، وكان الاهلون يسمون هذا الوادي بوادي الزيت ، وكانت تسميته صحيحة حقاً . وحينئذ تقدمت جماعة انكليزية فاخذت العمل على عائقها ، واستطاعت ان تنشيء عام ١٩٠٤ الشركة الانكليزية الايرانية بمساعدة واشتراك شركة زيت بورما الهندية ، ولم تلبث ان بدأت باقامة المنشآت الكبيرة في وادي قارون حيث حفرت فيه اكثر الآبار . ومن اهم ما انشيء خط انابيب يمتد على طول الوادي ويوصل منطقة شوشتر التي هي اغزر المناطق نفطاً بجزيرة عبادان الواقعة قرب مصب شط العرب والتي انشئت فيها المصافي .

وكانت هذه الحركة في الوقت الذي اخذت الدول البحرية فيه تبحث في الوسائل التي تكفل لها المازوت الضروري في حالة نشوب حرب ما ، فانتدبت وزارة البحرية الانكليزية عام ١٩١٣ الاميرال سلال لدرس امكانيات اشتراك الحكومة في ادارة الشركة الانكليزية الايرانية ، وكان الانكليز يعتقدون ان اسطولهم يستطيع في حالة نشوب حرب ما ان يسيطر على البحر الابيض وان ينتفع بنفط ايران بسهولة . وعلى فرض تعطيل النفل مؤقتاً بطريق السويس فانهم يستطيعون ذلك عن طريق المحيط التي هي مفتوحة امامهم دائماً . وبناء على نتيجة دراسة هيئة الاميرال سلال وتقريرها

خصصت حكومة لندن مليوني جنيه لشراء خمسين مليوناً من أسهم الشركة العائدة وخمسة ملايين من أسهمها الممتازة ، ثم رفعت هذا المبلغ بعد قليل الى خمسة ملايين . ولقد كان ينقص الشركة أمور كثيرة بسبب نقص المال ، فلما توفر لها هذا عن طريق الحكومة اقدمت على اتمام نواقصها سواء في الحفر تحت الارض او مد الانابيب وانشاء المصافي الجديدة .

على ان اشترك الحكومة الانكليزية في ادارة نفط ايران اشتركا قويا . قد اثار احتجاج حكومة بطرسبرج ، لان عروق نفط فارون تقع في منطقة الحياض الايرانية التي ثبتت حدودها في اتفاق عام ١٩٠٧ ؛ غير انها كانت مع ذلك مستعدة للتخلي عن هذا القسم من منطقة الحياض لانكلترا مقابل تعويضات تمنحها لها هذه في حدود التبت والافغان ؛ لان روسية غنية جداً بالنفط . وقد ذكرنا في نبذة سابقة ان هذه المسألة كانت توشك ان تحل وتسمى في ما جرى من مفاوضات بين الانكليز والروس قبيل نشوب الحرب العالمية حول تعديل اتفاق عام ١٩٠٧ .

— ٣ —

ولقد كانت الممانية التي تهبأت لانتزاع السيطرة على البحار من انكلترا مهمة هي الاخرى للحصول على المازوت ، وحينما كانت انظار بريطانية متجهة نحو ايران كانت انظار الالمان متجهة في هذا الصدد نحو العراق . وقد منح امتياز خط حديد بغداد الشركة الالمانية حتى استثمار معادن الاراضي الواقعة على جانبي الخط في عرض عشرين كيلومتراً من كل جانب . ثم نالت الشركة عام ١٩٠٤ حق الخيار لمدة سنتين في استكشاف حقول النفط في جميع مناطق ولايتي الموصل وبغداد ، فارسلت لجنة فنية لم تلبث ان اكتشفت عروفا غنية قرب الموصل تمتد على طول مجرى الدجلة ، كما اكتشفت عروفا اخرى في جهات زاخو وكر كوك وقينير وخانقين ومندلي .

وبما يجدر ذكره ان اناساً من رعايا دول اخرى حصلوا في السنين التالية وخاصة بعد سنة ١٩٠٩ على حق استثمار المعادن في العراق ، ومن هؤلاء ممثلون لشركة دارسي الانكليزية الايرانية ، وممثلون المصرف الوطني التركي الذي كان تحت سيطرة ممولين انكليز .

ولقد استطاع بنك دوتش الذي يمثل شركة خط بغداد عام ١٩١٢ ان يوحد في لندن حصص البنك الوطني التركي وحصص شركة انكلوسكسون التي هي فرع من شركة دوتش — شل الملكية ، وان يؤلف من ذلك كله شركة النفط التركية . وقد قام كلبنكيان الارمني الجنس ، الانكليزي الرعوية بدور الوسيط في هذا العمل ؛ وكان تقسيم رأس مال الشركة الموحدة على اساس الثلث لكل من دوتش بنك ، وشركة انكلوسكسون والمصرف الوطني التركي .

وفي سنة ١٩١٣ ظهرت مشكلة خطيرة ؛ فقد عينت لجنة لتحديد الحدود التركية الايرانية فقررت اعطاء قسم من منطقة امتياز شركة دارسي الانكليزية الايرانية في شرق خانقين الى الدولة العثمانية . وفي نفس الوقت حصل غليوم الثاني من السلطان على امتياز بتمديد فرع حديدي يمتد من سامرا الى خانقين . ولما كان امتياز شركة خط حديد بغداد الالمانية يشمل حق استثمار معادن جانبي الحط في عرض عشرين كيلو متراً فقد صارت بطبيعة الحال صاحبة الحق في استثمار عروق نفط القسم الذي اعطيت للدولة العثمانية من حدود ايران ، حيث كان يقع في ساحة الحط الذي حصل الالمان على امتياز به مجدداً .

وقد كانت انكلترة آنئذ تتفاوض مع حكومة الاسفانة في مسألة استمرار جباية الصنمية الجمركية ، فكانت في موقف يسمح لها بتأمين رعاية حقوق الشركة الانكليزية الايرانية ؛ ونتيجة لاتفاق تم في ١٩ مارس سنة ١٩١٤ انتقلت حصة المصرف الوطني التركي الى شركة دارسي ، فاصبحت هذه تملك خمسين في المائة من اسم شركة النفط التركية ، وصار لها حق تعيين مدير الشركة الذي سيكون انكليزيا بطبيعة الحال ، وصارت حصة كل من الشريكين الاخيرين اي شركة انكلوسكسون ومصرف دوتش خمساً وعشرين في المائة (١) ثم تقرر اخذ اثنين ونصف في

(١) يتبادر لنا ان هنا خطأ ، فان حصة المصرف التركي في التقسيم السابق هي الثلث وحصة كل شريك من الشريكين الاخرين هي الثلث كذلك ، فكيف صارت حصة شركة دارس نصفاً وحصة كل شريك من الشريكين ربعاً ، ونحن نقلناه كما جاء في الترجمة التركية .

المائة من حصة انكلوسكسون وداربي واعطائها الى كلبنكيان مقابل وساطته على ان لا يمثل في مجلس الادارة . وبهذه التعديلات اصبحت الحصص موزعة كما يلي :

٤٧.٥٪ لشركة داربي الانكليزية الايرانية و ٢٢.٥٪ لجماعة انكلوسكسون (اي دوتش شل الملكية) و ٢.٥٪ لدوتش بنك و ٥.٥٪ لكلبنكيان .

وفي اتفاق نهائي وقع عليه في لندن بتاريخ ١٩ مايس سنة ١٩١٤ وضع شرط بعدم اشتراك اي واحد من الشركاء مع شركاء آخرين في استثمار نفط ما داخل الامبراطورية العثمانية . وكان مما اتفق عليه ايضاً اجراء النفط بالانابيب الى بغداد ونقله منها الى سواحل خليج البصرة في مراكب صهرجية . وهناك نقطة مهمة يجدر لفت النظر اليها وهي عدم شمول امتياز النفط لولاية البصرة .

وفي تاريخ ٢٨ حزيران سنة ١٩١٤ وقع السلطان امام سفير بريطانيا السير لويس ماليت (الفرمان) المرسوم الذي يمنح شركة النفط الانكليزية حق استثمار النفط المكتشف في ولايتي بغداد والموصل .



الفصل الحادي عشر

الحرب العالمية



ان العالم اذا لم يكن فهم في سنة ١٩١٤ فانه قد فهم الان حتما ان المانية قد عجلت الحرب وراء غايته ازالة دولة الصرب والاشراف على امم البلقان وجعل الدولة المانية دولة محمية لها ، فيتسنى لها بذلك انشاء امبراطورية شرقية واسعة تكون اساسا وقاعدة لفرض سيطرة غير محدودة على الدنيا بأسرها . . .

من مذكرات السفير مورغانو عام ١٩١٩



معاهدة بخارست وخطط اصحاب فكرة التبسط الجرمانى - الحرب التي لم يكن اجتنابها -
فائدة اشترك الدولة المانية للامان - مهمة لمان فون ساندريس - حادثة سيرايفو - الحرب
الاوربية - دخول الدولة المانية الحرب .

— ١ —

ذكرنا في الفصل السادس ونحن نعرض خطط اصحاب فكرة التبسط الجرمانى ان قيام الائتلاف الثلاثي جعل غليوم الثاني يدرك انه لن يستطيع تحقيق مطامعه في الشرق بغير القوة ، وانه مع اعتقاده بضرورة الحرب كان يريد تأخير نشوبها الى ان يصبح في امكان الاسطول الالماني مواجهة الاسطول الانكليزي بقوة متساوية ؛ ولم يكن دخول الامبراطور في مفاوضات تفاهمية على امور الشرق الا بقصد كسب الوقت فحسب ، وكان يأمل ان يفسد بدسائسه ما بين المتفقين وان يمزق بصورة خاصة الحلف الروسي الافرنسي ، ولم يكن من شأن حرب البلقان الثانية الا تعجيل تنفيذ قرار الحرب وسوق النمسا التي ظلت مترددة الى هذا الوقت الى جانب المانية بشوق وحساسة .
والواقع ان معاهدة بخارست التي وقعت بتاريخ ١٠ اغسطس سنة ١٩١٣ والتي

انتهت بها حرب البلقان الثانية قد حيرت واثارت الامبراطور فرنسوا جوزيف بقدر ما حيرت واثارت غليوم الثاني ، لانها تضمنت تقسيم جميع املاك الدولة العثمانية في اوروبة — باستثناء ابرنه والاستانة — بين الدولة البلقانية الرئيسية وخاصة بين دولتي الصرب واليونان . وبينما كان العاهلان ينتظران سحق الصرب واليونان من قبل الترك رأياهما تنتصران عليهما ، وكان من شأن انتصار الصرب سد باب الشرق في وجه المانية وسد طريق سالانيك في وجه النمسا . وهذا يؤدي الى عرقلة تنفيذ خطط التوسيع الجرماني . يضاف الى هذا ان الصرب اصبحت خطراً دائماً على النمسا في صدد سيطرتها على البوسنة والمهرسك ، فلا تقام بعده عن حقها القومي في هاتين الولايتين واستخلاص هذا الحق باية وسيلة . اما اليونان فسيقتنمون اول فرصة تتيح لهم لضم اروام الاناضول ومساكنهم الى الوطن الام ، وهذا يؤدي كذلك الى عرقلة التوسيع الجرماني في آسيا العثمانية .

من اجل هذا كله لم تكن دول اوروبة الوسطى لتقبل باحكام معاهدة بخارست كاحكام نهائية ، وصارت الحرب لهذا السبب واقعة لا محالة في برهة وجيزة ، حتى ولو لم تقع حادثة سيراچيفو . ولم يكن وقوع هذه الحادثة الا سبباً مباشراً ، وكانت المانية والنمسا قد اتمتا استعدادهما للحرب فاعتمتتا فرصة الحادثة .

وخلال هذه الظروف تبدو خطورة الاتفاق العثماني الالماني في نظر غليوم الثاني ، حيث كان الوسيلة الوحيدة الى اسقاط قيمة الحلف الروسي الاقروسي الذي بسدل جهوده طيلة سنين عديدة في سبيل تمزيقه ولم يصب نجاحاً . وكان يأمل من الاتفاق سد طريق المضايق في وجه روسية وحرمانها من مبادلة فحمها ونفطها بالسلاح والعتاد ، كما كان يأمل حمل روسية على استبقاء قوات مهمة في حدود القفقاس بـ مجرد اعلان الدولة العثمانية النفير العام ولو لم تدخل الحرب فعلا .

ولقد كان من المقدر ان تستجيب الدولة الى دواعي السياسة الالمانية . فقد كانت ظروفها المالية سيئة جداً نتيجة للحرب الطليانية والحرب البلقانية (١٩١١ — ١٩١٢ — ١٩١٣) ، ولقد فقدت كريد والبوسنة والمهرسك وطرابلس الغرب وجزر بحر ايجه وقسم كبيراً من املاكها في اوروبة واحدة بعد اخرى ، وجعل هذا رجال من جماعة

تركية الفتاة بدركون شدة وسرعة حاجتهم الى مساعدة دولة كبرى ليتسنى لهم الاحتفاظ بمراكزهم .

فمن اي جانب يصح ان يأملوا هذه المساعدة ؟

ان فرنسا انتزعت من الدولة العثمانية املاكها في شمال افريقية ، واطلقت يد انكلترا في مصر عام ١٩٠٤ مقابل اطلاق هذه يدها في فاس ، ولم تفتأ تقدم الى الباب العالي طلبات متواصلة بامتيازات موانئ وخطوط حديدية في الاناضول وسورية وفلسطين ، وتقف موقف الحامي للاقليات . وابطالية انتزعت منها طرابلس الغرب . وظلت تحتل الجزر الاثنتي عشرة ، ولا تكتم مطامعها في الاناضول . وروسية عدوة الدولة التقليدية ؛ وكانت الغايات التي ترسمها في سياستها الاستيلاء على الاستانة والمضائق وارمينية واسكندرونة والقدس . اما انكلترا فلها لم تعد تقف موقف الحامي للامبراطورية العثمانية من مطامع روسية بعد ان تم التفاهم بينهما عام ١٩٠٧ ، وكانت الى هذا تحتل مصر وتنظر الى وادي الفرات ودجلة نظراً للطامع الثرى ، وتسيطر على خليجي البصرة والعقبة ، وتشجع حركة الانفصال العربية سرّاً ، ولم تفعل شيئاً في سبيل الحيلولة دون تمزيق الرومي خدمة لدول البلقان .

كل هذا في حين ان المانية هي وحدها من الدول الاوروبية كانت تبدو الى هذا الوقت ولو ظاهراً انها لا تسير ازاء الامبراطورية العثمانية سيراً عدائياً ، ولا ترسم منافع خاصة مضادة لمصالحها ، ولم تكن اشتركت في الضغط والموقف غير الودي الذي كان من الدول الاخرى في مسائل كريد ومكدونية ، بل انها التزمت جانب تركية في مواطن كثيرة ، وكانت الى هذا تبدو قوية جداً ومحترمة الجانب من الجميع . فاذا املت المانية رجال الدولة بانها تستطيع ان تعيد اليهم مصر وطرابلس الغرب وتونس ، وتمكنهم من القضاء على آمال العناصر التركية الموجودة في امبراطوريتهم بالحديد والنار فكيف يمكنهم ان يقفوا مترددين ولا يستجيبوا الى تلقينها وابعائها .

ولقد كان لغليوم الثاني في هذا الطرف مندوب خطير في الاستانة وهو البارون فون فانكهائيم ، وقد حل في منصبه كسفير المانية عام ١٩١٢ خلفاً لفون بيرشين ،

ولقد رأى السفير الجديد استعداداً حسناً في انور بك لاستماع اقواله ؛ ولم يلبث الاثنان ان اتفقا في سنة ١٩١٣ على تنظيم وتنسيق الجيش العثماني من قبل بعثة المانية جديدة .

ولم يكن هذا الاتفاق من قبيل ما كان جاريا في نطاق بعثة فون دغورلتر العسكرية الالمانية ، او بعثة الاميرال ليموس البحرية الانكليزية لتنسيق الجيش والاسطول لمدة معينة . بل جي بليمان سندرل الذي يحمل صفة ممثل الامبراطور الشخصي والذي رقي الى رتبة المرشال في الجيش العثماني ليكون قائداً للفيلق الثاني ؛ وليتسنى له في الوقت نفسه ان تكون المضائق تحت سيطرته . ومع ان احتياج دول الائتلاف الثلاثي قد احبط هذا المشروع من هذه الناحية فانه لم يمنع ان يسند الى ليان سندرل وظيفة مفتش الجيوش الالمانية العام . وقد جيء بموجب ذلك الاتفاق كذلك بالجنرال برونسارت فون سيلندروف الى رئاسة اركان الحرب العامة ، واسند الى كثير من الضباط الالمان وظائف قيادة مهمة ، وصار ليان سندرل متصرفاً بالقوات العثمانية كما يشاء ، وكان من الطبيعي ان يسير في تنسيقها وفقاً لمقتضيات الحرب المقبلة .

وكان مما يترسمه البارون فوق فانكهايم ايضاً امالة خديوي مصر عباس حلمي الى السياسة الالمانية واجلاء الاروام عن سواحل بحر ايجة ، واتخاذ جميع التدابير السياسية الضرورية لضمانة نجاح الامال الالمانية .

ولقد ظل الحلفاء امداداً غير قصير يأملون عدم وصول الحرب الى الشرق الادنى بسبب جهلهم امر المعاهدة الالمانية التركية السرية ، بالرغم من اعلان الدولة العثمانية النفير العام ، وقلها المضائق قفلاً يكاد يكون تاماً ، ووصول البارجتين غوبن ورسلا الى الدردنيل ، ولقد تقدم سفراؤهم الى الباب العالي بتاريخ ٢٣ اغسطس سنة ١٩١٤ بوعده ضمان تمام ملك الدولة وتقديم بعض المساعدات المالية والاقتصادية والسياسية . اذا التزم الحياذ التام . غير ان الباب العالي ظل يتهرب من الاجابة الصريحة على هذا العرض .

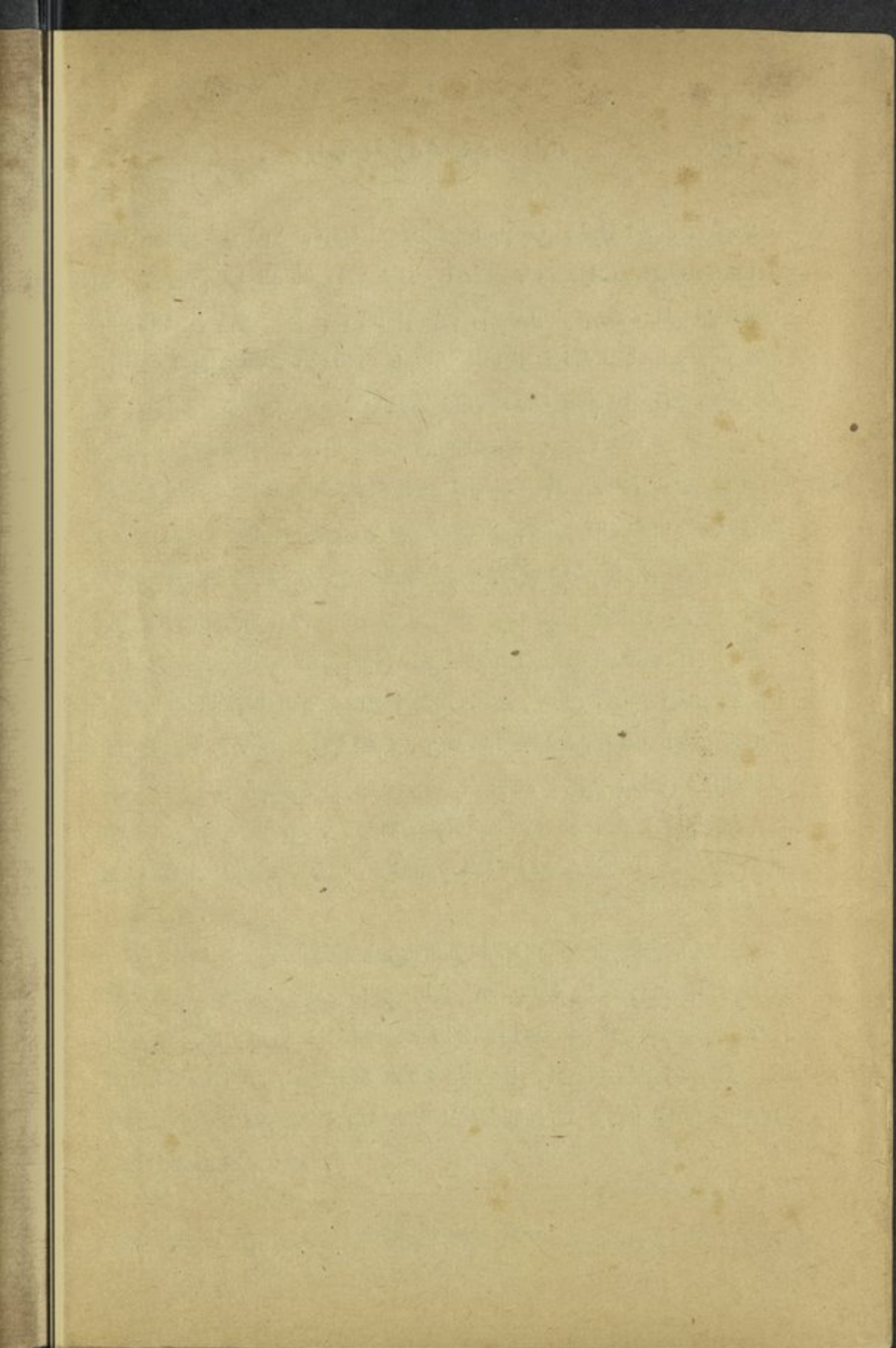
وفي اوائل ايلول وضع جلياً ان الدولة العثمانية قد تشجعت بما كان من زحف

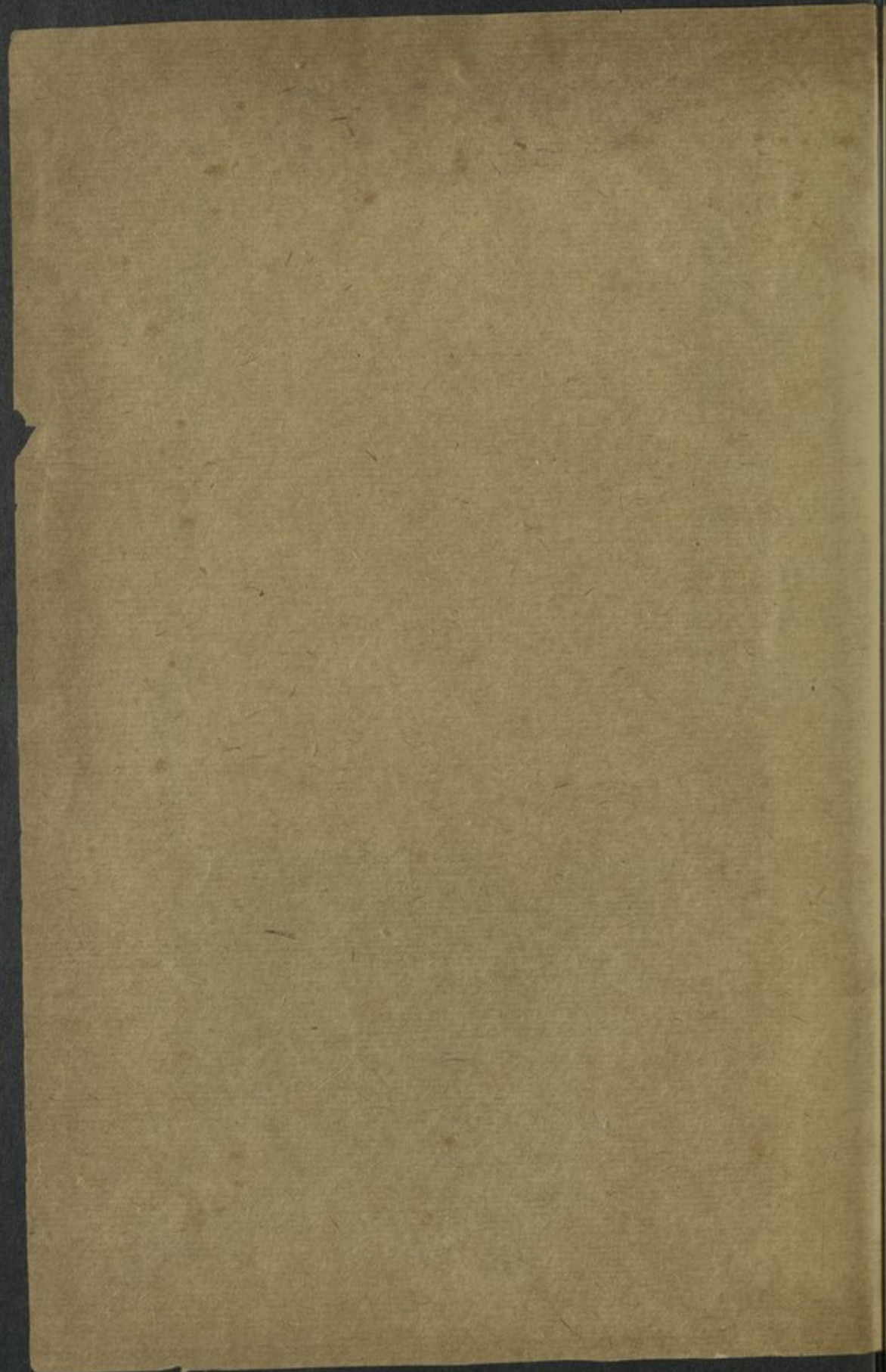
الامان الظاهر نحو باريس ، وانها لن تتأخر طويلا عن دخول الحرب . وحينئذ انصرف عم بريطانيا الى تأخير الازمة بقدر الامكان ، وقد اصدر اللورد كينشر اوامره المشددة بالحرص على بقاء الشرق هادئاً ريثما تصل فرق الاحتياط من انكلترا الى الهند ، وتعتبر الفرق التي تقرر جلبها من الهند الى فرنسا قنساء السويس بسلام ، غير انها لم تر بداً من سحب بعثتها البحرية من الاستانة بسبب ما كانت تتعرض له من الدس والتحقيق يومياً ، فتم سحبها في ٩ ايلول .

وفي ٢٧ ايلول اعلنت الحكومة العثمانية الدردنيل للمرة ، وفي ١ تشرين الاول اعلنت الغاء الامتيازات ، واستدعت على جناح السرعة بعض السفن التي كانت لها في خليج البصرة والبحر الاحمر والمياه السورية ، وفي اواخر تشرين الاول اشتدت حركة الاستعداد التركية على حدود مصر الى درجة جعلت الانكليز يشعرون بالخطر ويسحبون قوات الحفر الموجودة في صحراء سيناء الى ضفة القناة الاخرى .

على ان الحكومة العثمانية ظلت في تردد واختلاف نظر كبيرين في امر الدخول الفعلي في الحرب . والواقع ان الخوف من انكلترا ، وانتصار الحلفاء في معركة المارن جعل بعض وزرائها يقلقون ويترددون . غير ان الامان لم يالوا جهداً في سيدل ابصال الامر الى نهايته المرجوة ، لان الامبرطور اصبح يرى ان مساعدة الجيوش العثمانية الفعلية صارت ضرورية ، بعد ان دخلت بريطانيا الحرب ومنيت جيوشه ببعض الهزائم في فرنسا .

وفي اواخر تشرين الاول دخلت بعض القطع الحربية التركية التي كانت بقيادة ضباط من الامان البحر الاسود وضربت بطريق الحيلة كلا من اوديسا وسيواستبول وتيودوسيا ونوفوروسك ، فحمل هذا الحادث سفراء الحلفاء على طلب جوازاتهم ومغادرة الاستانة وهكذا صار دخول الدولة العثمانية الحرب الى جانب دول اوربة الوسطى امراً واقعاً . وقدر للحرب الاوروبية بذلك ان تسري رويداً رويداً الى الشرق الادنى حتى شملته بأسره .





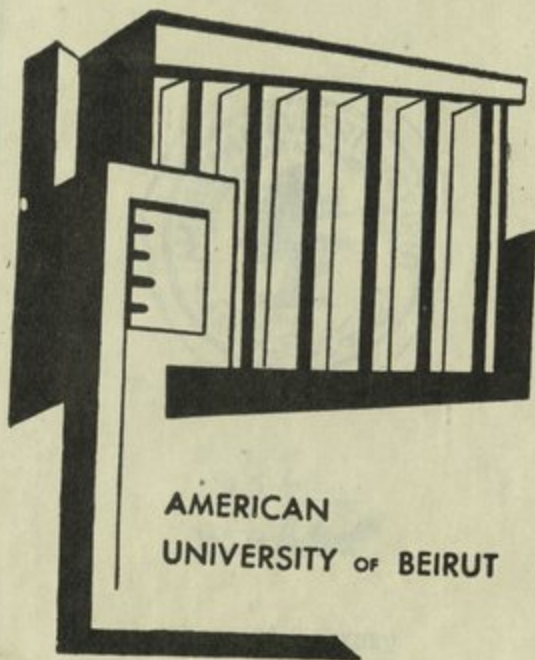
DATE DUE
26 NOV 2010
Circulation Dept. 4

دروزة، محمد عزة
بواعث الحرب العالمية الأولى في الش

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01054050



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

956
P596A